

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

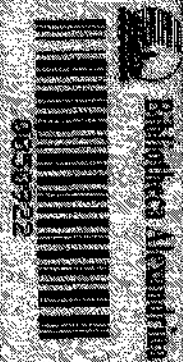
مكتبة

الأسمر

1999

مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري

محمد عبد الله عنان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مؤرخو مصر الإسلامية

طبعة خاصة من مكتبة الخانجي
لمكتبة الأسرة
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع

٩٩/٩٦٦٩

I.S.B.N. 977 - 01 - 6250 - 7

مؤرخو مصر الإسلامية

محمد عبدالله عنان



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

مؤرخو مصر الإسلامية

محمد عبدالله عنان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفيه

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرهان

مَوْخُوْمُ مِصْرَ الْإِسْلَامِيَّةِ
وَمَصَادِرُ التَّارِيخِ الْمِصْرِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كتبت معظم فصول هذا الكتاب في الثلاثينات ، أيام الشباب ، وفي بداية حياتي القلمية . وكان يدفعني في هذه المرحلة المبكرة من حياة القلم ، شغف شديد بالتنقيب في مصادر التاريخ المصري . وقد بدأت بالتوفر على دراسة موضوع في تاريخ مصر الإسلامية ، رأيته جديراً بالبحث ، وهو تاريخ الخطط المصرية ، وأنفقت في سبيل إعداده جهوداً مضنية ، وأخرجته أخيراً ضمن كتابي مصر الإسلامية . وكان هذا المجهود الذي يمثل ناحية واحدة من مصادر التاريخ المصري ، هو تاريخ مدينتي مصر والقاهرة ، مشجعاً لي على المزيد من البحث في مصادر تاريخنا الإسلامي . فعولت على أن أنقضي هذه المصادر بدراسة أصحابها المؤرخين المصريين ، وبدأت بدراسة المؤرخين الثلاثة الذين تعتبر جهودهم ، أسس تاريخ مصر الإسلامية ، وهم ابن عبد الحكم ، والكندي ، وابن زولاق ، وكانت الدراسة شاقة مضنية لأنني حاولت أن أعرض مجهود كل مؤرخ عرضاً مفصلاً شافياً ، وأن أنقضي تراثه ، المطبوع منه والمخطوط . وكان أشق ما في البحث هو تتبع ما انتثر من هذا التراث في رواية المؤرخين المتأخرين ، وكان هذا ما التزمته بالنسبة لتراث ابن زولاق بنوع خاص ، لأن مجهوده التاريخي لم يصلنا إلا على يد المؤرخين اللاحقين ، وبصورة جزئية مبثورة .

ثم رأيت بعد ذلك أن استمر في دراسة هؤلاء المؤرخين المصريين تبعاً . فكان من هذه الدراسات ، دراسات موجزة ، كما حدث بالنسبة للمسبّحي والقضاعي ، لأن تراهما التاريخي لم يصل إلينا كاملاً ، ولم يصل إلينا منه سوى القليل ، فثلاً لم يصلنا من تاريخ المسبّحي الكبير ، الذي قبل لنا لأنه كان يشغل عدة مجلدات كبيرة ، سوى فصل واحد يحفظ بمجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال ،

وإن كان قد وصل إلينا منه كذلك شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين . ولم يصلنا من كتاب القضاء فى الخطط والآثار كذلك ، سوى شذور نقل إلينا معظمها المقرئى فى خطه . وكان من هذه الدراسات ، دراسات مسهبة شاملة لمؤرخين مثل المقرئى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس ، لأننا قد تلقينا من كل منهم معظم تراثه ، وقد ظهر إلى الضياء الكثير من مؤلفاتهم ، وبين أيدينا معظم تراثهم المخطوط ، نحتفظ به مختلف المكتبات الشرقية والغربية .

وقد بدأت بنشر هذه الدراسات فى جريدة السياسة الأسبوعية ، ثم نشرت منها بعد ذلك فصولا فى مجلة الرسالة ، وفصولا أخرى فى مجلة الهلال . بيد أنى لم أقف حين إعدادها للطبع ، عند هذه الدراسات الأولى ، بل عكفت على مراجعتها وتنقيحها والزيادة فيها ، حتى تستكمل ثوبها العلمى المحقق ، وأعتقد أنى وفقت فى ذلك إلى المستوى المرغوب .

وقد كان لدى فى هذه الدراسة برنامج طموح ، هو أن أقوم بدراسة شاملة لسائر مؤرخى مصر الإسلامية ، من ابن عبد الحكم إلى الجبرئى . ولكن الظروف لم تسمح لى بتنفيذ هذا البرنامج على أكمله ، فقامت تباعاً بدراسة ستة عشر مؤرخاً ، هم الذين أقدمهم اليوم إلى القارئ فى هذا الكتاب المتواضع . وقد فاتنى أن أدرس عدة من المؤرخين المصريين ، الذين ساهموا بقسط كبير فى تكوين تراثنا التاريخى ، مثل ابن ميسر ، وابن الصيرفى ، وابن دقاق ، وابن وصيف شاه ، وجمال الدين القفطى ، وابن الفرات الحنفى ، وبلد الدين العينى . ذلك أنى شغلت خلال الخمسة وعشرين عاماً الأخيرة بدراسة التاريخ الأندلسى ، وغلب لدى هذا الاتجاه إلى دراسة تاريخ الغرب الإسلامى ، على كل اتجاه دراسى آخر ، وأحمد الله أجزل حمد على أن شملنى بعونه ورعايته ، حتى استطعت أن أخرج فى هذه الفترة الطويلة من الدراسات الأندلسية الشاقة ، تاريخ الأندلس كاملاً ، منذ بدايته إلى نهايته ، فى سبعة مجلدات كبيرة .

وكان من الطبيعى أزاء تباعد هذين الميدانين للدراسة التاريخية ، أن أضاع نشاطى خلال هذه الفترة الطويلة فى ميدان الدراسات المصرية جانباً . ومع ذلك ، وفى خلال هذه الفترة التى خصصت للدراسات الأندلسية والمغربية ،

استطعت لحسن الحظ ، أن أصدر الطبعة الثانية من كتابي « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » مزيدة زيادة كبيرة ، على ضوء مصادر جديدة مخطوطة (سنة ١٩٥٩) ، وأن أصدر كذلك طبعة جديدة من كتابي « تاريخ الجامع الأزهر في العصر الفاطمي » مزيدة ، متضمنة لتاريخ المعهد العظيم حتى العصر الحاضر (سنة ١٩٥٨) وكلاهما من أخص نواحي تاريخ مصر الإسلامية . وأود أن أنوه بأنني جريت في دراستي للمؤرخين المصريين ، على أسلوب الدراسة الشاملة ، وحاولت ما استطعت أن أنقضي سائر آثارهم وتراثهم التاريخي ، ولا سيما المخطوط منه . وهو تراث ضخم مبعثر في مختلف المكتبات الجامعة ، ولا سيما مكاتب استانبول . ومع ذلك فإن دار الكتب المصرية تحتفظ منه بأعظم قسط . وأعتقد أن هذه الدراسة الشاملة ، سوف تدلل كثيراً من سبل البحث للباحثين في هذا الميدان التاريخي الحصب ، بمصادره وموسوعاته التاريخية العديدة .

ولاني أشعر بالغبطة إذ أضع اليوم هذه الدراسات بين أيدي الباحثين ، بعد أن لبثت محتجة طوال هذه الحقبة . ومن حسن الطالع أنها تظهر إلى الضياء في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الطبعة الثانية من كتابي « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » متضمناً عرضاً شاملاً لسائر المصادر المتعلقة بتاريخ الخطط أو تاريخ مصر القاهرة ، ويعتبر كل من الكتابين بذلك مكمل للآخر من هذه الناحية التي تتعلق بالمصادر .

ولاني لأرجو في الختام أن أكون قد وفقت بهذا المجهود المتواضع ، إلى تحقيق بعض ما نطمح إليه من استجلاء مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، ولا سيما في عصور الرياسة والسودد والمجد .

محمد عبد عياد

القاهرة في شوال سنة ١٣٨٨

الموافق يناير سنة ١٩٦٩

الكتاب الأول

المؤرخون المصريون

حتى العصر الفاطمي

الفضل الأول

عبد الرحمن بن عبد الحكم

أول مؤرخ لمصر الإسلامية

١٨٧ - ٢٥٧ هـ : ٨٠٣ - ٨٧١ م

كانت مصر قبل الفتح الإسلامي ، مطمح دول عظيمة شائعة ، بلغت من القوة والحضارة أعظم شأواً ، فلم يك غريباً أن تقع مصر القديمة ، بعد أن جاوزت ذروة العظمة إلى دور الانحلال ، صريعة الغزاة من الفرس واليونان والرومان . ولكن فتح العرب لمصر كان حادثاً خارقاً بين هذه الفتوحات . فقد كان الإسلام في بداية أمره ، ودولة العرب في مستهل حياتها ، ولم تكن فتوحات فارس والشام قد استقرت بعد على أسس ثابتة . ولكن فتح مصر ، كفتح فارس والشام ، كان أيضاً أمنية يضطرم بها الإسلام منذ نشأته ، وكان النبي العربي منذ العام السادس للهجرة ، قد ذكر مصر فيما ذكر من البلاد ، التي يتأهب الإسلام لفتحها ، فوجه إلى أميرها ، كما وجه إلى عاهل فارس وإلى قيصر الرومان ، دعوة إلى الإسلام ، كانت إنذاراً بالحرب والفتح . ولم يمض على وفاة النبي وفتح فارس والشام أعوام قلائل حتى جاء دور مصر ، فقدم إليها العرب يحفزهم ظمأ الغزو ، وتضطرم نفوسهم عزماً وثقة بما أحروا من الظفر ، ففتحوها في ظروف كالأساطير .

وقد مضى أكثر من قرن ، وسير هذه الفتوحات الباهرة ، قائمة على الرواية الشفوية ، ولم تظهر الرواية المكتوبة قبل أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة ، فدون الواقدي^(١) سير الفتوحات الإسلامية ومنها فتح مصر ، ودونها البلاذري من بعده في كتابه الجامع^(٢) . وأخذت رواية التاريخ الإسلامي من ذلك الحين تنمو وتزدهر ، متقلبة بين التخصيص والتعميم . وكان لفتح مصر حظه

(١) توفى الواقدي سنة ٢٠٧ هجرية .

(٢) « فتوح البلدان » - وكانت وفاة البلاذري في سنة ٢٧٩ هجرية .

من هذه الرواية ، فدُون إلى جانب الفتوحات الإسلامية الأخرى ، ولكنه دون أيضاً بطريق التخصيص . وكان أول من دون هذه الرواية الخاصة ، ووضع أساسها ، مؤرخ مصرى غدت روايته على كر العصور ، مورداً لا ينضب لجميع مؤرخي مصر الإسلامية . هذا المؤرخ أو الراوية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري . ولد بفسطاط مصر في نحو سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) ، وتوفي في المحرم سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) . وكان بنو عبد الحكم من الأسر المصرية العريقة في الجاه والعلم ؛ وكان أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ زعيم المالكية وأعظم فقهاءهم ، صادق الإمام الشافعي حين مقدمه إلى مصر وساعده على البقاء والإقامة فيها . وكان أبناؤه محمد ، وعبد الحكم ، وسعد ، كلهم محدث وفقه بارع ، وبالأخص محمد الذي خلفه في زعامة المالكية . ولم يشذ المؤرخ عن تقاليد أسرته ، فدرس الحديث والفقه وبرع في الرواية^(١) . وهذه البراعة في الرواية هي التي أوحى إليه أن يدون التاريخ ، وبالأخص تاريخ مصر . ذلك أن تاريخ مصر الإسلامية ، كغيره من تواريخ الأمم الإسلامية الأخرى ، لم يكن يومئذ سوى طائفة من الروايات والسير ، يتوارثها جيل بعد جيل . وأنفسها وأوثقها ما اتصلت روايته إلى عصر الفتح بأحد الصحابة أو الأنصار أو التابعين . وكان لآل عبد الحكم كما رأيت من هذا التراث قدر وافر . وكانت الرواية ما تزال حية في صدور الرواة والمحدثين ، فكان تدوينها يومئذ أقرب إلى التحقيق والضبط . ففي هذه البيئة المحدثنة ، المحققة ، الغنية بتراث الأجيال القريبة ، الحريصة على تعاقب الرواية ، نشأ عبد الرحمن بن الحكم ، فقيهاً محدثاً ، قبل أن يكون مؤرخاً^(٢) ، ورأى أن يستخرج من الرواية ما كان خاصاً بفتح مصر وأخبارها ، وأن يجمع ما استطاع مما قيل في شأنها من الأحاديث النبوية ، ومختلف الأنباء والسير ، في رواية واحدة متناسقة متعاقبة تكون تاريخاً مدوناً لمصر . وكان عبد الرحمن بظروفه وكفاياته رجل هذه المهمة ، فهو مصري ولد وعاش بمصر ، ودرس مجتمعاتها وتقاليدها ورسومها الدارسة ، وهو سليل أسرة من الفقهاء

(١) الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) Wüstenfeld : Geschichteschreiber § 63

Broekelmann : Gesch. der Arab. Litteratur (1-148)

والمحدثين ، الذين عاصروا حملة الرواية من الصحابة والتابعين أو تلقوها عنهم ، واتصلوا بالولاة والزعماء ، ووقفوا على أسرار الدولة . وكانت أسيرة المؤرخ أيام نشأته وفتوته كما قدمنا ، من أغرق الأسر المصرية جهاها وعلماء ، ولكنه حينما بلغ الكهولة ، أصيبت الأسرة بمحنة أليمة ، ذهبت بجمالها وجاهاها ، وأسبغت على ذكرها مسحة من العار والإثم . وذلك أن الزعيم المصرى على بن عبد العزيز الجروى كان مثل أبيه ، قد رفع لواء الثورة واستطاع أن يسيطر على عدة نواح من مصر ، ولكنه هزم أخيراً واستسلم وحمل إلى بغداد ، ثم قتل في النهاية^(١) وأتهم بالخيانة وصودرت أمواله ، وعهد بالنظر في أمرها إلى جماعة من رجالات مصر منهم بنو عبد الحكم . وفي سنة ٢٣٥ هـ أوفد الخليفة المتوكل ، يعقوب بن إبراهيم ، والياً على مصر ، وأمره بالنظر في أموال الجروى وتحصيلها من المشرفين عليها ، فعجزوا عن الأداء ، فأحيلوا إلى القضاء وأودعوا السجن ومعهم قاضى القضاة ابن أبي الليث . ومضى أمير مصر الحديد ابن يحيى في هذه الإجراءات ، ف قضى على المشرفين بدفع مبالغ طائلة ، من ذلك مبلغ مليون وأربعمائة ألف وأربعة آلاف دينار على بنى عبد الحكم وحدهم ، وذلك في منتصف سنة ٢٣٧ هـ ، واتبعت في تحصيلها أشنع الوسائل . وتوفى عبد الحكم أخو المؤرخ في السجن من أثر العذاب . وأخيراً ورد كتاب المتوكل باطلاق أخويه الآخرين ، ورد أموال الأسرة إليها ، لكن المحنة ذهبت من ذلك الحين ببيتها وجاهاها^(٢) .

ولسنا نعرف إن كان المؤرخ قد وضع تاريخه عن مصر قبل هذه المحنة التي نزلت بأسرته ، وذاق فيها عذاب السجن^(٣) والمطاردة حيناً ، أم بعدها ، ولكن المحقق على أى حال ، أنه كتب قسماً منه بعد المحنة ، إن كان قد بدأه قبل

(١) المقرئى في الخطوط ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) الكندى - كتاب الولاة والقضاة (طبع رومة) ص ١٣٦ - ١٣٩ وأيضاً الكندى . « الولاة » طبعة ذكرى جيب ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

(٣) لا يتضح من رواية الكندى إن كان المؤرخ قد سجن بالفعل مع أخويه ، ولكن المرجح أنه سجن بالفعل لأن الكندى يشير دائماً إلى « بنى عبد الحكم » . أما المؤرخ نفسه فيصر على هذه السيرة بالصمت رغم إشارته في باب « القضاة » إلى بعض من اشتركوا في إجراءات القضية . كذلك يجب أن نذكر بهذه المناسبة أن بنى عبد الحكم عانوا قبل هذه المحنة ، عذاب المطاردة من جراء فتنة خلق القرآن أيام الخليفة الواثق (سنة ٢٢٧ هـ) وحمل أحدهم وهو محمد إلى العراق وعذب لأنه أبى أن يعترف بخلق القرآن (الكندى ص ١٢٧ وكذلك Wüstenfeld-ibid, § 63)

وقوعها ، لأنه يمضى فى أخبار القضاة الذين ولوا قضاء مصر حتى سنة ٢٤٦هـ (١) أعنى بعد المحنة بنحو ثمانية أعوام ، وإلى ما قبل وفاته هو بنحو عشرة أعوام . والظاهر أيضا أنه كتب قسماً منه قبل هذا العهد أو على الأقل قيد بعض رواياته ، لأنه يسند الرواية فى مواضع عدة إلى أبيه عبد الله بن الحكم المتوفى فى سنة ٢١٤هـ . (٢) وكانت هذه الرواية الشفوية عمدة ابن عبد الحكم فى معظم ما يدونه فى تاريخه ، فهو يروى عن أبيه ، وعن جماعة من معاصرى أبيه ، أو القريبين من عصره ، مثل الليث بن سعد ، وعبد الله بن صالح ، وابن لهيعة ، ويزيد بن حبيب ، وخالد بن حميد ، ويحيى بن أيوب ، وعبد الملك بن مسلمة ، وغيرهم من المحدثين الذين عاشوا فى القرن الثانى من الهجرة ، ثم يروى عن معاصريه هو مثل عثمان ابن صالح ، وعبد الله بن بكير . ومن هؤلاء وهؤلاء كثير من المحدثين المصريين الذين أتقنوا الرواية عن مصر ، وحرصوا على تسلسلها وتعاقبها منذ عصر الصحابة والتابعين ، الذين شهدوا الفتح وما تلاه من الحوادث . كذلك يعتمد ابن عبد الحكم على الرواية المدونة فى فرص قلائل ؛ من ذلك ما ذكره فى سياق المكاتب بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فى شأن الخراج ، حيث أسند رسالة رواها لعمر إلى كتاب لابن بكير المتقدم ذكره قال إنه أعطاه إياه ، ومن ذلك استناده إلى « الواقدي وغيره » فى خاتمة كتابه عند ذكر الصحابة الذين دخلوا مصر (٣) . وكان الواقدي قد كتب يومئذ تاريخه عن فتح مصر والإسكندرية . وفيما عدا ذلك تستند مادة ابن عبد الحكم إلى الرواية ، وقد كانت يومئذ كما قدمنا عمدة النقل والسير . وكانت فيما يتعلق بفتح مصر وحوادثه وأساطيره ، لا تزال حتى أواخر القرن الثانى ، حية مكيئة فى أذهان جبهة من المحدثين المصريين ، وعلى رأسهم الليث بن سعد قاضى مصر ، وكاتبه عبد الله بن صالح ، وعثمان بن صالح ، ومن هؤلاء ومدرستهم يستقى ابن عبد الحكم معظم روايته عن حوادث الفتح . كذلك يستقى معظم روايته عن الأحاديث المتعلقة بمصر عن ابن لهيعة ، وهو محدث مصرى ولى قضاء مصر أيام المنصور ، وقد كان ضعيف الرواية فيما

(١) فتوح مصر - طبعة ليدن الكاملة ص ٢٤٧ .

(٢) فتوح مصر صفحات ٤٢ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٤ ، ٩٥ ، ١٤٤ ، ٢٥٠ وكثير غيرها .

(٣) فتوح مصر ص ١٦ و ٣١٩ .

يظهر (١) ، بيد أن أثر هذا الضعف لا يتعدى رواية الأحاديث ، ولا ينتقص من سياق الرواية التاريخية .

- ٢ -

وقد وصل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم في تاريخ مصر بطريق الرواية التي استند إليها هو في تدوينه . وتعاقب هذه الرواية واحد ، في ثلاثة من أربعة مخطوطات لهذا التاريخ ، هي كل ما ظفر به البحث الحديث إلى اليوم . ومن هذه الأربعة ، مخطوط في لندن في المتحف البريطاني يرجع إلى القرن السادس الهجري كما يبدو من سياقه ، ومخطوطان في المكتبة الوطنية بباريس ، أحدهما قديم مؤرخ في سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٠ م) والثاني مؤرخ في سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٥ م) ، والمخطوط الرابع في مكتبة جامعة ليدن ، وهو مؤرخ في سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٦ م) وهو أحدثها ، وقد لبث حيناً ينسب خطأ للسيوطي ، لأنه يحمل عنواناً آخر هو « بغية الطالب ، ومنهج المسالك في أخبار مصر والقرى والممالك » ، ولكن عرف بعد من مطابقة نصه ، أنه هو كتاب ابن عبد الحكم عن تاريخ مصر (٢) . ويوجد فوق ذلك قسم من مخطوط آخر في جتنجن . وفي الأول والثالث والرابع من هذه المخطوطات ، تساق نسبة الكتاب إلى ابن عبد الحكم على النحو الآتي مع اختلاف يسير في الصيغ :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن إبراهيم السلفي الأصفهاني قراءة عليه وأنا أسمع بفتح الإسكندرية حماد الله تعالى . قال : أخبرنا الشيخ أبو صادق مرشد بن يحيى بن القاسم بن علي المديني بقراءة عليه ، قال أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن منير بن أحمد الخلال في كتابه سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج القهاج ، أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدي ،

(١) ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) تراجع مقدمة المستشرق تشارلس توري الإنجليزية لكتاب « فتوح مصر وأخبارها » (طبعة ليدن سنة ١٩٢٥) ففيها معلومات ومقارنات نفيسة عن المخطوطات الأربعة . وقد تولى هذا العلامة إصدار « فتوح مصر » كاملاً ومطابقته على المخطوطات الأربعة ، وتصحيحه وتحقيقه . تراجع أيضاً دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية كلمة ابن الحكم) .

حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا ... » .
 وأول هؤلاء الرواة الخمسة ، وهو ابن قديد ، الذى تولى الرواية مباشرة
 عن ابن عبد الحكم توفى فى سنة ٣١٢ هـ أى بعد وفاة ابن عبد الحكم بخمسة
 وخمسين عاماً ، فمن الصعب أن نفرض أنه تلقى الكتاب سماعاً أو تدويناً عن مؤلفه ،
 لأنه ليس ثمة ما يثبت أنه كان تلميذاً لابن عبد الحكم أو أنه رآه واتصل به ، ولأنه
 من جهة أخرى كان فى أواخر أيام ابن عبد الحكم طفلاً أو حدثاً . والظاهر
 أيضاً أن الحن التى تواتت على بنى عبد الحكم ، والعار الذى لحقهم ، كانت لها أثر
 فى انقضاى الرواة والتلاميذ عنها^(١) . فلبث مؤلف ابن عبد الحكم فى زوايا
 النسيان حيناً ، ومضى أكثر من نصف قرن قبل أن يتناقله الرواة أو ينتفعوا به .
 وقد كان أبو عمر الكندى ، المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ ، على ما نعلم ، أول
 مؤرخ مصرى انتفع بمؤلف ابن عبد الحكم ورواية أسرته انتفاعاً كبيراً^(٢)
 لأنه تناول نفس الموضوع الذى كان ابن عبد الحكم أول من تناوله فى فصل
 خاص وهو تاريخ القضاة الذين تولوا القضاء فى مصر منذ الفتح الإسلامى^(٣) ،
 وقد كان بنو عبد الحكم ، وهم أسرة من الفقهاء والمحدثين ، وقد ساهمت فى
 مزاولة القضاء ، مصداً نفيساً للكندى . على أن الكندى يرجع كثيراً مما نقله
 عن ابن عبد الحكم إلى رواية أستاذه ابن قديد أولاً^(٤) . وقد رأيت أن ابن قديد
 هو الذى نقل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم كله ، ثم رأيت أنه لم يكن تلميذاً له
 ولم يتصل به ، فلم يبق إلا فرض ممكن واحد هو أن ابن قديد تلقى نسخة من
 « فتوح مصر » بعد وفاة مؤلفها بحين ، أعنى فى أواخر القرن الثالث للهجرة ،
 فنقلها إلى تلاميذه كما تلقاها ، دون أن يجرى فيها أى تصحيح أو تعديل^(٥) ،

(١) المستشرق تشارلس تورى فى مقدمته المذكورة .

(٢) يراجع كتاب « الولاة والقضاة » للكندى (طبع رومة) ص ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٨ ،
 ٦١ ، ٧١ ، ١٠١ ، وفيها يروى الكندى عن عبد الرحمن بن عبد الحكم - وص ١١٥ وفيها
 يروى عن أخيه عبد الحكم ، وص ١٠٩ وفيها يروى عن أخيهما سعد بن عبد الحكم .

(٣) وهو الباب السادس من « فتوح مصر » ؛ وعنوانه « ذكر قضاة مصر » (ص
 ٢٢٦ - ٢٤٧) .

(٤) راجع الكندى « الولاة والقضاة » (ص ٣٧ ، ٤٨ ، ٧١) .

(٥) المستشرق تشارلس تورى فى المقدمة المشار إليها .

ونقلها عنه بنصها أبو بكر بن الفرج القماح ، فنقلها عنه أبو الحسن علي بن منير ابن أحمد الخلال المتوفى سنة ٤٣٩ هـ ، فنقلها عنه أبو صادق مرشد بن يحيى المديني المتوفى سنة ٥١٧ هـ - نقلها كما دونها سلفه في سنة ٤٣٥ هـ ، وأثبت ذلك في روايته حيث قال : « أخبرنا الشيخ أبو الحسن بن منير بن أحمد الخلال في كتابه سنة خمس وثلاثين وأربعمائة » ثم نقلها عن المديني ، الراوية الأخير أبو طاهر أحمد ابن محمد السلفي الأصفهاني المتوفى سنة ٥٧٦ هـ ، ومنه وصلت إلينا بنصها الحالي ، فهو آخر حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم ، مدون الرواية وصاحبها الأصيل .

فمن هو السلفي هذا الذي كان آخر من حمل إلينا تراث ابن عبد الحكم ؟ وما قيمة روايته من الإثبات ؟ كان السلفي فارسياً من أصبهان ، ولد بها نحو سنة ٤٧٢ هـ^(١) ، ثم رحل فتي إلى بغداد ودمشق ، وأكثر من الدرس والحفظ على أكابر عصره ، ثم وفد إلى الإسكندرية في سنة ٥١١ هـ ، واستقر بها زهاء ثلثي قرن حتى توفي . وأبدى السلفي براعة مدهشة في الرواية والاستقصاء ، وطار صيته في أنحاء العالم الإسلامي ، وكرس مدى عمره المديد للحفظ والدرس والتحقيق ، وتلقى الرواية عن ثقات المحدثين المصريين ، ومنهم أبو صادق مرشد ابن يحيى المديني . قال الذهبي : « ما خرج من الإسكندرية سوى خرجته إلى إلى القاهرة للسمع من أبي الصادق مرشد بن يحيى المديني وطبقته »^(٢) ؛ فقد كان المديني أيضاً من أعلام الرواة والثقات في عصره . وعنه تلقى السلفي فيما تلقى تاريخ ابن عبد الحكم كما قدمنا . يقول ابن خلكان عن السلفي : « قصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله »^(٣) . ويقول الذهبي : « وسمع ما لا يوصف كثرة ، ونسخ بخطه الصحيح السريع ؛ وكان متفناً مثبته ديناً خيراً حافظاً نافذاً ... وكان جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحده زمانه في علم الحديث ، وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث » . وقال الذهبي أيضاً عن عبد القادر الرازي : « كان له عند

(١) ابن خلكان - الوفيات ج ١ ص ٣٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ في ترجمة السلفي (ج ٤ ص ٩٣ - ٩٩) .

(٣) الوفيات ج ١ ص ٣٧ .

ملوك مصر الجاه والقوة والكلمة النافذة ». وعن الحافظ عبد العظيم : « كان السلفى مغرى بجمع الكتب وما حصل له من المال يخرجها في ثمنها ، كان عنده خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها ». وتوفى في ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ بعد أن عمر زهاء قرن^(١) .

كان السلفى إذا آية عصرة في الحفظ والتحقيق والرواية . وفي عمره المديد ما يفسر كيف أنه استطاع أن يتلقى تاريخ ابن عبد الحكم عن المدينى الذى توفى قبله بستين عاماً . وفي براعته في الحفظ والتحقيق والتدوين ما يرفع من قيمة روايته لتاريخ مصر ؛ ويطبعها بطابع عميق من الصحة والضبط ، وبذا نستطيع أن نطمئن إلى الاعتقاد أن رواية ابن عبد الحكم « لفتوح مصر وأخبارها » ، وصلتنا عن يد السلفى ، كما تلقاها ابن قديد مباشرة عن مدونها . وفي مخطوط ليدن ، أعنى المخطوط الرابع أن رواية السلفى وصلتنا على يد كاتب هذا المخطوط في سنة ٥٧٠ هـ أعنى قبل وفاة السلفى بأعوام قلائل ، فقد ورد في مستهله ما يأتى : « أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام الحافظ العالم شيخ الإسلام أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد بن إبراهيم السلفى الأصفهاني رضى الله عنه وأرضاه قراءة عليه وأنا أسمع في منزله بالإسكندرية في شهر رمضان المعظم سنة سبعين وخمسائة ؛ قال أخبرنا مرشد بن يحيى بن القاسم المدينى بمصر أخبرنا ... إلخ »^(٢) .

ولا يختلف سياق النسبة التى شرحناها عن تلقى تاريخ ابن عبد الحكم إلا في المخطوط الثانى ، وهو أقدم الإثنين المحفوظين في باريس المؤرخ تدوينه في سنة ٥٩٥ هـ ؛ ففيه تساق النسبة إلى ابن عبد الحكم عن يد ابن قديد أولاً ثم أبى عمر الكندى . والظاهر أن هذا المخطوط قد نقل عن النسخة الأصلية التى تلقاها الكندى عن ابن قديد ؛ وكان من تلاميذه كما قدمنا^(٣) .

والآن نستعرض عمل المؤرخ . كان ابن عبد الحكم ، كما قدمنا ؛ أول من دون سير الفتوحات الإسلامية لمصر والمغرب ، بطريق التحقيق والرواية

(١) تذكرة الحفاظ في ترجمة السلفى .

(٢) مقدمة المستشرق تشارلس تورى .

(٣) مقدمة المستشرق تشارلس تورى .

المسندة . وقد خص مصر بأكبر قسط من جهده . ولم يكن تدوينه لفتح إفريقية والمغرب والأندلس ، إلا كذيل يقتضيه سياق الرواية ، لأن مصر كانت قاعدة لهذه الفتوحات ، ولأن حكام مصر الأوائل كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابن سعد ، هم الذين نظموا أول غزوات إفريقية . وكان الواقدي قد دون في الواقع روايته عن الفتوحات الإسلامية قبل ابن عبد الحكم بنحو ربع قرن ، وخص فتح مصر منها بقسط كبير لا يقل إفاضة عن رواية ابن عبد الحكم ، ولكن رواية الواقدي أقرب إلى القصة منها إلى التاريخ ، حشوها الأساطير والحواري والمبالغات ثم الأخطاء التاريخية الجوهرية^(١) . ولا غرو فقد دون الواقدي روايته عن مصر في بغداد بعيداً عن مواطن التحقيق والتحصيل . ولهذا نرى ابن عبد الحكم يغفل رواية الواقدي ، رغم اطلاعه عليها ، ولا يشير إليها إلا في موضعين لا أهمية لهما^(٢) . فليس إذاً ثمة من وجه للاتصال بين رواية الواقدي ورواية ابن عبد الحكم . غير أنا بالعكس نلمس هذا الاتصال بين ابن عبد الحكم والبلاذري . فقد كان البلاذري معاصراً لابن عبد الحكم^(٣) وقد وضع روايته عن الفتوحات الإسلامية ، ومنها فتح مصر ، تقريباً في نفس الوقت الذي دون فيه ابن عبد الحكم روايته أو بعده بقليل . والبلاذري يصرح في عدة مواطن باعتماده على الواقدي ، ولا يشير أقل إشارة إلى رواية ابن عبد الحكم . غير أنه من جهة أخرى يرجع في فتح مصر إلى نفس المصادر التي رجع إليها ابن عبد الحكم ، ويروي عن نفس الرواة كابن لهيعة ، وبزيد بن حبيب ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن صالح^(٤) . وقد يفسر هذا الاتصال بين الروايتين بأن ابن عبد الحكم سبق البلاذري بروايته ، فاطلع البلاذري عليها واستفاد منها دون التصريح بذلك . وسواء أصبح هذا الفرض أم لم يصح ، فإن ابن عبد الحكم يبقى دائماً أول من دون الرواية المحققة المسندة عن تاريخ الفتح الإسلامي لمصر ، وما ارتبط بهذا الفتح من الأخبار والسير .

(١) فتح الشام للواقدي (طبع مصر) ص ٥٧ - ١٠٧ .

(٢) فتح مصر ص ١١٢ و ٣١٩ .

(٣) توفي البلاذري كما تقدم في سنة ٢٧٩ هـ .

(٤) يراجع الفصل الخاص بفتح مصر والمغرب في فتوح البلدان (طبع ليدن) ص

٢١٢ وما بعدها .

ويعرف أثر « ابن عبد الحكم » بكتاب « فتوح مصر وأخبارها »^(١) ، ويحتوى على سبعة أجزاء : الأول عن فضائل مصر ، وفيه رواية للأساطير التى قيلت فى تاريخ مصر قبل الفتح ، ودخول يوسف إليها ثم خروج بنى إسرائيل منها ، وغزو بختنصر لها ، وبناء الإسكندرية ، والثانى عن فتح مصر ، والثالث عن خطط مصر الأولى ، والرابع عن ولاية عمرو بن العاص . وفى هذه الأجزاء الثلاثة رواية مسهبة للفتح ، وما تعلق به من وثائق ، وسيرة عمرو بن العاص وأعماله وخططه ومكائباته مع عمر بن الخطاب فى شئون مصر ، وتنظيمه لإدارة مصر ، وقواعد استعمار العرب لها . والخامس يتعلق بفتح إفريقية والمغرب والأندلس حتى سنة ١٢٧ هـ ؛ والسادس عن قضاة مصر ، وفيه تاريخ موجز للقضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح حتى سنة ٢٤٦ هـ ؛ والسابع فى « الأحاديث ومن روى عنه أهل مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن دخلها فعُرف أهل مصر بالرواية عنهم ، ومن شركهم فى الرواية عنهم من أهل البلدان ، وما تفردوا به دون غيرهم ، ومن عرف دخوله منهم برواية غيرهم عنه » ، وفيه رواية مسهبة للأحاديث النبوية ، التى تلقاها رواة من اشتروا فى الفتح ، أو حلوا بمصر ، ويعتمد ابن عبد الحكم على ابن لحيعة فى رواية معظمها ، وفيه أيضاً ذكر لنفر من الصحابة والتابعين الذين اشتروا فى الفتح . ولهذا الفصل ، والفصل السادس المتعلق بذكر القضاة ، علاقة واضحة بالتقاليد التى نشأت فيها أسرة المؤرخ ، فقد امتازت كما رأينا بدراسة الفقه والحديث وتحقيق الرواية ، وكان ابن عبد الحكم فقيهاً ومحدثاً بارعاً .

وتبدو قيمة أثر ابن عبد الحكم بالأخص فى روايته لأخبار الفتح الإسلامى ، وما كانت عليه مصر يومئذ من الأحوال والظروف . ونستطيع أن نضرب صفحاً عما يورده المؤرخ قبل ذلك من أخبار مصر القبطية أو الوثنية قبل الفتح ، فما يورده من ذلك يحمل طابع الأساطير والقصص ، وكل قيمته أنه ينقل إلينا صورة من الرواية التى تلقاها العرب عند الفتح عن تاريخ مصر من رواة الشعب المغلوب . وهذه الرواية هى التى تناقلها المؤرخون المسلمون على كثر العصور تاريخياً لمصر

(١) يحمل مخطوط باريس القديم هذا الاسم : « كتاب فتوح مصر وأخبارها وإقليمها من قديم الزمان » (مقدمة المستشرق تشارلس ثورى) .

القبطية والوثنية ، وهى رواية يدحض البحث الحديث بلا ريب معظمها ، بيد أنها لا تخلو من لذة وطرافة . أما سيرة الفتح الإسلامى لمصر ، وما كانت عليه مصر وقت الفتح من أحوال العمران ، فهى أنفس ما دون ابن عبد الحكم . وتبدأ هذه السيرة بكتاب النبى العربى إلى « المقوقس »^(١) ، ورد المقوقس على النبى ، ثم ينتع المؤرخ زحف العرب تفصيلاً ، حتى فتح مصر والإسكندرية ، وما تحلل ذلك كله من سفارات ومفاوضات بين العرب والقبط ، ومراسلات بين الفاتح والخليفة ، ومنها وثائق فى منتهى الأهمية ، تلقى الكثير من الضياء على سياسة العرب الدينية ، وطرقهم الأولى فى الاستعمار والإدارة ، وعلى مبلغ ما كانت مصر عليه يومئذ من وفرة السكان والعمران^(٢) . ثم يناقش المؤرخ بعد ذلك نظرية فتح مصر من الوجهتين السياسية والشرعية ؛ وهل فُتحت مصر بالصلح غير الإسكندرية وبعض النواحي ؛ وهو ما يقول به بعض المحدثين والرواة ، أم فتحت عنوة وبقوة السيف ، بلا عهد ولا عقد كما يقول بذلك البعض الآخر^(٣) . ويشرح خطط مصر الأولى منذ إنشاء الفسطاط ، ونزول القبائل والبطون بها ، وقيام المساجد والمنازل الأولى ، ثم خطط الإسكندرية منذ احتلها العرب ، وما وزع من أحيائها ومنازلها وضياعها قطائع للزعماء والجند ، ويتتبع نموها وتقدمها فى عهد حكامها من العرب . ومع أن رواية ابن عبد الحكم فى هذا الشأن فقدت قبل بعيد أهميتها التاريخية ، لأن هذه الخطط الأولى لمصر والإسكندرية اختفت ؛ ونمت العاصمتان نمواً كبيراً فى عهد الدول الإسلامية الأولى ، وتغيرت معالمهما تغيراً كبيراً ، فإنها كانت مع ذلك قاعدة نفيسة لمحاولة طريفة فى التاريخ الإسلامى ، هى الإمام بتخطيط الأمصار الإسلامية العظيمة ، وتتبعها والاحتفاظ بآثارها الأولى . وكانت رواية ابن عبد الحكم عن خطط مصر على ضآلتها ، مستقى نفيساً لجمهرة من أكابر المؤرخين المصريين المتأخرين ، الذين توسعوا فى هذا الدرس الطريف ، كابن زولاق ، والقضاعى ، ثم المقرئى أعظم كتاب

(١) المقوقس هو تحريف لإسم البطريق الرومانى « سيرومن » . ولم يكن أميراً للقبط ، بل كان هو الحاكم الرومانى لمصر وقت الفتح .

(٢) تراجع بعض هذه الوثائق والبيانات فى « فتوح مصر » ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

(٣) فتوح مصر ص ٨٧ - ٨٩ .

الخطوط . كذلك يقدم إلينا ابن عبد الحكم بحثاً هاماً عن الجزية وأحكامها ، وكيف طبقت على مصر ، وعن الخراج وجبايته ، وما تبادله الفاتح والخليفة بشأنه من الرسائل ، مما نستطيع معه أن نكون فكرة عن أحوال مصر المالية وميزانيتها في هذا العصر .

وابن عبد الحكم في ذلك كله راوية فقط ، فهو لا يناقش ولا ينتقد ، وإذا ناقش فلأنما يناقش أصل الرواية وتحقيقتها لا مادتها . ذلك لأنه لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقي ، ولأن الرواية كانت يومئذ كل ما في التاريخ . ويجب ألا ننسى أن ابن عبد الحكم كان فقيهاً ومحدثاً قبل كل شيء ، وهو يدل على براعته في هذا الميدان في مواطن كثيرة ، فينتقد مصادره في الشئ والرواية ويحققها ، على أن هذه المادة التي يقدمها إلينا عن فتوح مصر وأخبارها ، كانت وما تزال من أنفس المصادر لتاريخ مصر الإسلامية ، وقد لبثت مدى العصور مورداً لا ينضب لأكابر المؤرخين المصريين وغيرهم ، ممن كتب عن مصر وشئونها من أكابر مؤرخي الإسلام وكتابه . ويندر أن يخلو أثر هؤلاء هؤلاء من مجهود ابن عبد الحكم ، فابن عبد الحكم هو واضع الحجر الأول ، في مصادر تاريخ مصر الإسلامية ، وهو صاحب الفضل الأول في صياغة هذا الهيكل التاريخي الذي قدم إلينا فيما بعد ، على يد المتأخرين من كتاب التاريخ المصري ، في أبواب بديعة زاهرة . وقد بدأ الانتفاع برواية ابن عبد الحكم ، كما رأيت ، منذ أوائل القرن الرابع ، فاستفاد منها الكندي في مجهوده ، ثم تداولها المؤرخون المصريون تبعاً بالنقل والاشتقاق منذ ابن زولاق ، والمسبحي والقضاعي^(١) إلى ابن وصيف شاه وابن دقاق ، والمقريزي وابن حجر وابن تغري بردي ، والسخاوي والسيوطي وابن إياس^(٢) وهم جميعاً من أقطاب هذه المدرسة التاريخية الزاهرة التي خلدت تاريخ مصر الإسلامية بآثارها الباهرة . ومن هؤلاء من ينقل عن ابن عبد الحكم فصلاً برمتها . كذلك نقل عنه كثير من كتاب الإسلام ومؤرخيه الآخرين ،

(١) توفي ابن زولاق في سنة ٣٨٧ هـ - والمسبحي في سنة ٤٢٠ هـ - والقضاعي سنة ٤٥٤ هـ .

(٢) توفي ابن وصيف شاه في أواخر القرن السابع ، وابن دقان سنة ٨٠٩ هـ ، والمقريزي سنة ٨٤٥ هـ ، وابن حجر سنة ٨٥٢ هـ ، وابن تغري بردي سنة ٨٧٤ هـ ، والسخاوي سنة ٩٠٢ هـ ، والسيوطي سنة ٩١١ هـ ، وابن إياس سنة ٩٢٠ هـ .

كياقوت الحموى ، فإنه ينقل عنه في معجمه^(١) كل ما تعلق بمصر ، ونيلها وأمصاها . وإذا كان مجهود ابن عبد الحكم قد لبث على كر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى مصر الإسلامية ، فإنه سيبقى أيضاً مورداً لكل بحث حديث في تاريخ الفتح الإسلامى لمصر وأبامها الأولى في ظل الإسلام ، وستبقى رواية ابن عبد الحكم أبداً وثيقة خالدة ، تلقى الكثير من الضياء على وقائع هذه المرحلة الحاسمة ، التى أقامت بين تاريخ مصر الوثنية والنصرانية ، وبين تاريخ مصر الإسلامية ، سداً كثيفاً ما زال على البحث الحديث أن يجلو الكثير من ظلماته ، لنقرأ تاريخ مصر متصلاً وضاءً فى جميع مراحلها وعصوره^(٢) .

(١) معجم البلدان .

(٢) اتجهت أنظار البحث الحديث منذ بعيد إلى أثر ابن عبد الحكم فظهرت ترجمات لاتينية وإنجليزية وفرنسية وألمانية لكثير من فصوله ، وتوج هذا الاهتمام بنشر « فتوح مصر » كاملاً بعناية المستشرق تشارلس توري الذى تولى تصحيحه ومطابقته على المخطوطات الأربعة المعروفة ، ومهد له بمقدمة نفيسة بالإنجليزية عن المؤرخ وأثره (طبعة ليدن سنة ١٩٢٠) وهى الطبعة الكاملة الوحيدة . هذا وقد نشرت منه طبعات أخرى غير كاملة من ذلك طبعة بعنوان « فتوح مصر والمغرب » بتعقيق المستشرق هنرى ماسيه ، وصدرت عن المعهد الفرنسى بالقاهرة (سنة ١٩١٤) . ومنها قطعة عن « فتوح مصر » نشرت فى جوتنجن سنة ١٨٥٦ . إلى قلاع أخرى عن فتح مصر والأندلس .

الفضل الباني

أبو عمر الكندي

(٢٨٣ - ٣٥٠ هـ) - (٨٩٧ - ٩٦١ م)

رأينا فيما تقدم أن رواية ابن عبد الحكم هي أقدم وثيقة ، وصلتنا عن الفتح الإسلامي لمصر^(١) وقيام دولة الإسلام فيها ، وكيف لبثت هذه الرواية على كر العصور مستقى لجميع مؤرخي مصر الإسلامية . والآن نعرض إلى مجهود مؤرخ مصري آخر ، في طليعة المتقدمين أيضاً ، استأنف تدوين هذه الرواية في نواح خاصة ، ووصل بمجهوده مجهود ابن عبد الحكم . هذا المؤرخ هو أبو عمر الكندي ، وهو أحد هؤلاء الرواة الذين ازدهروا في القرن الرابع ، وسلكوا في تدوين التاريخ طريق الرواية والإسناد . وهو محمد بن يوسف بن يعقوب ابن حفص بن يوسف بن نصير ، أبو عمر التجيبي الكندي ، نسبة إلى تجيب ، وهم من بطون قبيلة كندة الشهيرة^(٢) الذين وفدوا إلى مصر وقت الفتح^(٣) . ولد في فسطاط مصر في العاشر من ذى الحجة سنة ٢٨٣ هـ (١٧ يناير سنة ٨٩٧ م) . وتوفي بها في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م)^(٤) . ولسنا نعرف تفاصيل نشأته وحياته ، بيد أنه كان من أقطاب العلماء والمحدثين

(١) هذا مع استثناء رواية الواقدي ، وهي أقرب إلى الفحص منها إلى التاريخ .
(٢) وهي نفس القبيلة التي ينتسب إليها يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف الشهير ، وقد ذهب بعض المستشرقين (ده سلان وإيستروب مثلاً) إلى أنه هو جد المؤرخ ، ولكن الحقيقة أنه ينتسب إلى كندة من فرع آخر (راجع مقدمة المستشرق كنجج للقم الأول من تسمية ولاية مصر ص ٦) .

(٣) ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص ١٢٥ ، حيث يشير إلى خطة تجيب ونزولها في الفسطاط .

(٤) تراجم ترجمة المقرئ في « المذني » وقد نقلها المستشرق « كنجج » في مقدمته المشار إليها (ص ١ و ٢) وفيها يذكر المقرئ أن الكندي « ولد يوم النحر سنة ثلاث وثمانين ومائتين » و « توفي يوم الثلاثاء ثلاث خلون من شهر رمضان سنة لخسين وثلاثمائة بمصر » - راجع أيضاً ترجمة أخرى للكندي وردت في المقدمة - وكذلك دائرة المعارف الإسلامية (الكندي) .

في عصره . وصفه المقرئى « بالمؤرخ الفقيه » وأنه « كان عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك » . ونقل عن الفرغانى أنه أى الكندى « كان من أعلم الناس بالبلد (أى مصر) وأهله وأعماله وثغوره . وله مصنقات فيه وفي غيره من صنوف الأخبار والأنساب . وكان من جملة أهل العلم بالحديث والنسب ... عالماً بعلوم العرب »^(١) . وكان قد درس الحديث والسنة ، وتبع الرواية ، وإسنادها وتحقيقتها ، عماداً لتدوين التاريخ يومئذ ، وبواسطتها دون ابن عبد الحكم ، كما بينا روايته عن « فتوح مصر وأخبارها » ، وكذلك اتبعها الكندى ، في تدوين معظم روايته . وقد نشأ الكندى في مثل هذه البيئة والتقاليد العلمية ، التى نشأ فيها سلفه ابن عبد الحكم ، فدرس الحديث والسنة على أكابر عصره ، ومنهم أبو عبد الرحمن النسائى^(٢) المحدث الأشهر ، وابن قديد الأزدي^(٣) ، وخص بدرسه وتحقيقه نواح من أحوال مصر وأخبارها ، فجاء بمجوده متمماً لمجهود ابن عبد الحكم ؛ يلقي مثله ضياء نفيساً على تاريخ العصور الأولى من حكم الإسلام لمصر ، وعلى كثير من نظم الحكومة الإسلامية ، وأحوال المجتمع المصرى .

والواقع أن التراث الذى خلفه لنا الكندى يصل في تاريخ مصر حلقة منفردة ، لولاها لبقيت ثغرة في تاريخ مصر يصعب سدها . ذلك أن ابن عبد الحكم يقف في روايته كما رأينا عند سرد حوادث الفتح الإسلامى ، وماتعلق به من نظم الحكم الأولى ، وقيام الفسطاط وخططها الأولى ، وذكر من اشترك في الفتح ودخل مصر من الصحابة والتابعين ؛ ولا يشذ في الوقوف عند أخبار عصر الفتح والتنظيم ، إلا في ذكر القضاة الذين ولوا قضاء مصر ، فإنه يمتضى في ذكرهم حتى

(١) راجع ترجمة المقرئى للكندى المشار إليها (مقدمة تسمية ولاية مصر ص ٢) .

(٢) هو الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب النسائى (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) وكان من أئمة عصره في الحديث . نشأ بخراسان ووقد على مصر وقضى بها معظم حياته ، وعنه أخذت جبهة من الحفاظ المصريين ، وكان ثقة حجة في الرواية والتحقيق (ابن خلكان ج ١ ص ٢٥) ويضع السيوطى مولده في سنة ٢٢٥ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٣) .

(٣) هو أبو القاسم على بن الحسن بن قديد المصرى توفى سنة ٣١٢ هـ ، كان من أكابر المحدثين والرواة . والظاهر أنه ألف تاريخاً لمصر (راجع تسمية الولاية - هامش ص ٣ من المخطوط) ويضعه السيوطى في مرتبة المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفاظ ، ويقول إنه توفى عن بضع وثمانين سنة ، وعلى هذا التقدير يكون مولده حوالى سنة ٢٣٠ هـ (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٣) .

سنة ٢٤٦ هـ أى إلى ما قبل وفاته بعشرة أعوام . ولكن الكندى يصل تاريخ مصر ؛ وأخبار الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح حتى عصره إلى سنة ٣٣٥ هـ وإن كان يقف في أخبار القضاة حينما وقف ابن عبد الحكم ، ويتناول أحوال مصر وما توالى على خططها وآثارها من التغيير حتى عصره أيضاً أعنى إلى نحو منتصف القرن الرابع ؛ وهو العصر الذى بُلدئ يكتب فيه تاريخ مصر ، بنوع من التخصص والإفاضة ؛ وفيه ظهر ابن زولاق ثم المسبحى ؛ فكان مجهودهما التاريخى فاتحة هذا التراث الغنى الشاسع ، الذى انتهى إلينا عن تاريخ مصر الإسلامية .

وقد خلف الكندى آثاراً عدة ، ولكن لم يصل إلينا سوى بعضها كاملاً ؛ ووصل إلينا من البعض الآخر نبذ وشذور فقط ، على يد جماعة من الكتاب المتأخرين الذين اعتمدوا على الكندى في النقل والرواية ؛ ولم تصل إلينا أصول كاملة لهذه الآثار التى لم نعرف عن بعضها سوى الاسم . على أننا قد ظفرنا فيما يظهر بأهم تراث الكندى ، وهو تاريخ ولاة مصر أو أمراءها منذ الفتح الإسلامى إلى عصره ؛ وتاريخ قضاة مصر منذ الفتح أيضاً إلى منتصف القرن الثالث . وقد وصل الاثنان إلينا في مخطوط واحد حصل عليه المتحف البريطانى ، ولم يصلنا سواه كاملاً من آثار الكندى . بيد أن كلا الموضوعين مستقل عن الآخر ، وكلاهما يكون بذاته كتاباً خاصاً .

أما الكتاب الأول فيعرف بكتاب « تسمية ولاة مصر » وهو العنوان الذى أثبتته المخطوط الذى وصل إلينا^(١) . ولكنه يعرف أحياناً بكتاب « أمراء مصر » أو كتاب الأمراء أو كتاب الولاة^(٢) . وهو نوع من التاريخ الإدارى ، يتناول تاريخ مصر من ناحية معينة ، هى ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من قبل الخلافة ، منذ الفتح إلى عصر المؤلف ، وذكر طرف من أعمالهم وحروبهم . ويلخص الكندى نفسه موضوع كتابه في تلك العبارة التى يستهل بها :

(١) تسمية ولاة مصر . طبعة بلنة ذكرى جب التى عنى بإصدارها المستشرق رفون جست

- ص ٦ - وكذلك طبعة كينج ص ٢ .

(٢) راجع المقرئى مثلاً ج ٣ ص ٢٢٣ د ج ٤ ص ٨ (انطبعة الأملية) .

« قال أبو عمر ، هذا كتاب تسمية ولاية مصر ، ومن ولي الصلاة ومن ولي الحرب والشرطة منذ فتحت إلى زماننا هذا ، ومن جمع له الصلاة والخراج ، على اسم الله وعونه ، وصلى الله على محمد وآله » .

ويتناول الكندى تعداد الولاة دون تمهيد ولا مقدمة ، فيبدأ بولاية عمرو ابن العاص مقرونة بنبذة سيرة عن فتح مصر ، ومن خلفه من ولاية مصر الأوائل ، مع تلخيص ما تم في عهدهم من الفتوحات في إفريقية ، ثم يمضى في ذكر الولاة متعاقبين ، فيذكر تاريخ مقدمهم إلى مصر ، ومن ولي الشرطة في عهد كل منهم ، وما وقع في أيامهم من الحروب والقتال ، ويشير أحياناً إلى ما وقع في معاهد القسطنطين وخطوطها ولا سيما مسجدها الجامع (جامع عمرو) من التغيير والتبديل . ويتبع الإيجاز في إيراد هذه الحوادث حتى نهاية الدولة الأموية . فإذا كانت الدولة العباسية ، تبسط في الكلام نوعاً ، وزاد شيئاً في تفصيل الحوادث . ويبدو ميل الكندى إلى التفصيل واضحاً في بعض المواضع ، فزاد مثلاً في أيام السرى بن الحكم وبنه (٢٠٠ - ٢١١ هـ) يعنى بتفصيل ما وقع من حوادث وحروب ويورد خلالها قطعاً شعرية عديدة ، وكذلك في عهد بني طولون فإنه يسهب في ذكر أيامهم وحوادثهم ، وما قيل في تمجيدهم وراثتهم من مختار الشعر^(١) . كذلك يبدأ الكندى أخبار الولاة بطريق الرواية والإسناد المختص ، فلا يكاد يورد نبذة إلا مسندة إلى عدة من المحدثين المتعاقبين ، ولكنه يتحرر من قيود هذه الطريقة شيئاً فشيئاً ، فإذا كان بدء القرن الثاني من الهجرة ، قل الإسناد ، وإذا كان بدء الدولة العباسية استرسل الكندى في ذكر الحوادث على ترتيبها ، في ثوب المؤرخ أو الراوية ، فلا يكاد يلجأ إلى الإسناد ، وإنما يروى الحوادث من عنده بطريق مباشر .

وتقف رواية الكندى في تاريخ الولاة عند وفاة محمد بن طغج الإخشيدى (في ذي الحجة سنة ٣٣٤ هـ) ، أى عند مفتتح الدولة الإخشيدية . ويختتم « تسمية ولاية مصر » بهذه العبارة التي أثبتت في المخطوط الوحيد الذي وصل إلينا :

« إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر . واختارته المنية قبل إكماله . قال ذلك

ابن زولاق في أول كتابه أخبار قضاة مصر . وما بعد ذلك ليس من كلام أبي عمر^(١) .

وبلى ذلك ذيل للكتاب لا يتجاوز أربع صفحات ؛ يصل أخبار الدولة الإخشيدية بإيجاز حتى فتح الفاطميين لمصر والدعوة بخلافة المعز لدين الله الفاطمي . فمن صاحب هذه الإضافة ؟ قد يكون هو ابن زولاق (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ) ، وهو معاصر للكندى ، ولكنه عاش بعده جيلاً وأدرك الدولة الفاطمية . وقد يؤيد ذلك ما هو ثابت من أن ابن زولاق ألف كتاباً في تنمة « ولاية مصر » وصل به كتاب الكندى . ودليل ذلك ما يذكره ابن زولاق نفسه في مقدمة كتابه « سيرة الإخشيد » الذي نقله إلينا ابن سعيد الأندلسي ، إذ يقول : « وقد كان أبو عمر محمد بن يوسف الكندى عمل أخبار أمراء مصر ، وختمه ب وفاة الإخشيد ، وذكر له أخباراً يسيرة ، وقد أتممت أنا هذا الكتاب بسيرة أنوجور وأخيه على وكافور وأحمد بن علي بن الإخشيد والقائد جوهر إلى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافته »^(٢) ، ويشير المقرئ إلى هذا المؤلف ، ويقتبس منه في أكثر من موضع ، ويسميه « تنمة أمراء مصر » أو « كتاب إتمام كتاب الكندى في أخبار أمراء مصر »^(٣) ؛ ولكن يبدو من مقارنة ما اقتبس المقرئ بما ذيل به كتاب الولاية ، أن الذيل لا يحتوى نبذاً بنصها من كتاب ابن زولاق ، فإن صح أن ابن زولاق هو صاحب هذه الإضافة ، فلعلها خلاصة استخرجت من كتابه المذكور .

وأما كتاب « تسمية قضاة مصر » أو « القضاة الذين ولوا مصر » أو « أخبار قضاة مصر »^(٤) ؛ فيتناول تاريخ القضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح إلى منتصف القرن الثالث (سنة ٢٤٦ هـ) . وقد كان القاضي أحد ثلاثة أو أربعة

(١) تسمية الولاية ص ٢٩٣ - تقابل ١٢١ من المخطوط .

(٢) راجع كتاب المغرب في حل المغرب (ج ٤) طبع ليدن - ص ٥ .

(٣) المخطوط ج ٣ ص ٣٢٣ (الطبعة الأهلية) .

(٤) وردت التسميتان الأولى والثانية في مستهل الكتاب ص ٣٠٠ (المقابلة لصفحة ١٣٤

ب من المخطوط) . ووردت التسمية الثالثة في صدر المخطوط ص ٢٩٩ (المقابلة ١٣٤ من الأصل) .

توكل الخلافة إليهم السلطات العامة في الأقاليم المفتوحة : هم الأمير أو الوالى وهو الحاكم الإدارى والعسكرى ، ومتولى الخراج وهو متولى الشئون المالية ، وهى مهمة يتولاها الولاة أحياناً ، وصاحب الشرطة ، وهو المشرف على النظام والأمن ، والقاضى وهو المشرف على تنفيذ الشريعة والحكم بين الناس ، مقره في عاصمة البلاد ، وله نواب في التواحي . فتاريخ القضاة الذين تولوا القضاء بمصر ، هو ناحية طريفة في تاريخ مصر الإسلامية ، له أهميته ونفاسته في فهم نظم القضاء الإسلامى في عصور الإسلام الأولى . ولكن الكندى ليس بصاحب الفضل الأول في معالجة هذه الناحية من تاريخ مصر الإسلامية ، وإنما صاحب الفضل الأول في تناول هذا الموضوع هو عبد الرحمن بن عبد الحكم ، تناوله كما قدمنا ، في « فتوح مصر وأخبارها » في فصل خاص^(١) ، عنى فيه بذكر القضاة الذين تعاقبوا على قضاء مصر منذ الفتح ، حتى ولاية القاضى بككار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) ، واتبع في ذكرهم الترتيب التاريخى ، ولكنه لم يذكر تواريخ التعيين إلا منذ القرن الثانى ، وبالأخص منذ العصر الذى أدركته أسرته ثم العصر الذى عاش فيه^(٢) ، ويمهد لفصله بما ورد من أحاديث وأقوال مأثورة في خطورة القضاء والفرار من تبعاته . وقد رأينا أن بنى عبد الحكم كانوا أسرة نابعة من الفقهاء والمحدثين وقد ساهموا في مزاولة القضاء ، ومن ثم كان ابن عبد الحكم أستاذ موضوعه ، وهو موضوع يتصل أشد الاتصال بتقاليد أسرته وبالبيئة التى نشأ فيها ، ومن ثم كانت أهمية روايته على إيجازها .

ويحذو الكندى حذو ابن عبد الحكم ، فيبدأ في ذكر القضاة حيث بدأ ابن عبد الحكم ، وينتهى حيث انتهى ، أعنى من ولاية قيس بن أبى العاص أول قاض للإسلام بمصر في سنة ٢٣ هـ إلى ولاية القاضى بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ . ولا فرق بين الروابطين إلا أن رواية الكندى أوسع وأكثر تفصيلاً ، فهى في الحجم خمسة أضعاف رواية ابن عبد الحكم تقريباً . ويظهر جلياً بالمقارنة أن الكندى قد اتخذ رواية ابن عبد الحكم أساساً لكتابه ، وأضاف إليها ما استطاع أن يجمع من شوارد التفاصيل والأخبار . ومن السهل أن نعين حلقة الاتصال

(١) راجع هذا الفصل في « فتوح مصر » ص ٢٢٦ - ٢٤٧ .

(٢) فتوح مصر - ص ٢٣٩ وما بعدها .

بين المؤرخين . فقد رأينا أن الكندي تلميذ لابن قديد الأزدي ، تلقى عليه الحديث والرواية . وابن قديد هذا هو الذي نقل إلينا مؤلف ابن عبد الحكم مباشرة على نحو ما فصلنا في الفصل السابق ، بل هنالك ما يدل على أن ابن قديد عني عناية خاصة بدرس القسم المتعلق بالقضاة من « فتوح مصر » ، وهو إضافة نسبت لابن قديد في خاتمة هذا القسم ، يذكر فيها اسم القاضيين اللذين خلفا بكار بن قتيبة^(١) . وإذا فقد تلقى الكندي تراث ابن عبد الحكم على يد أستاذه ابن قديد وانفتح به انتفاعاً كبيراً ، وإن كان يؤثر على ما يظهر أن يتجنب الإسناد ما استطاع إلى ابن عبد الحكم إلا ما كان من إسناد أستاذه ابن قديد إليه^(٢) ، ولكنه يستند من طريق آخر إلى معظم الرواة والمحدثين ، الذين يلقيهم إليهم ابن عبد الحكم ، كيزيد بن أبي حبيب ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وعثمان بن صالح ، وسعد بن عفير ، ويحيى بن بكير^(٣) . ولا ريب أن هذه الرواية بحلقائها المتعددة ، لم يكن يعتمد في نقلها حتى عصر الكندي على السماع وحده ، ومن المحقق أنها كانت تدون قبل ذلك بمدة طويلة ، فقد رأينا أن ابن عبد الحكم ، وهو يسبق الكندي بنحو قرن ، يعتمد على الرواية المكتوبة في بعض المواطن^(٤) . وكذلك الكندي ، فقد اعتمد على مؤلف ابن عبد الحكم في وضع تاريخ القضاة ، واعتمد على مصادر مكتوبة أخرى ، من ذلك قوله في رواية تلقاها عن ابن قديد : « أخبرني ابن قديد عن كتاب يحيى بن عثمان » (الكندي ص ٤٤٣) وكذلك اعتمد على وثائق ومحفوظات رسمية فيما يظهر ، مثال ذلك ما ذكره في رواية تلقاها من ابن بكير ، وقال إن ابن بكير رآها في سجل الديوان^(٥) مما يدل على أنه كانت للديوان محفوظات يرجع إليها ، وأن الكندي استطاع أن يفتنع

(١) فتوح مصر ص ٢٤٧ : « قال أبو القاسم بن قديد ، وأقامت مصر بد بكار بلا قاضي ... الخ » .

(٢) راجع كتاب القضاة - طبعة لجنة ذكرى جب - ص ٢٤٢ و ٣٥٦ و ٢٨٤ (طبعة الأستاذ جوتيل ص ٣٧ و ٤٨ و ٧١) - وكذلك مقدمة الأستاذ جست الإنجليزية ص ٣٤ .

(٣) توفى يزيد بن أبي حبيب سنة ١٢٨ هـ وابن لهيعة سنة ١٧٤ هـ . والليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ وعثمان بن صالح سنة ٢١٩ هـ ، وسعد بن عفير سنة ٢٢٦ هـ ، ويحيى بن بكير سنة ٢٣١ هـ .

(٤) فتوح مصر ص ١٦ و ٣١٩ .

(٥) الكندي ص ٣٥٤ (ص ٤٦ طبعة جوتيل) .

بها سواء مباشرة أو عن طريق شيوخه ؛ ويؤيد ذلك أيضاً أن الكندي في تاريخ الولاة يسوق الرواية منذ القرن الثاني مرسله دون إسناد تقريباً ، مما يدل على أنه اعتمد على مصادر مكتوبة دونت قبل عصره .

ولمؤلف الكندي عن القضاة أهمية خاصة ، لا بما يورد من ذكر القضاة الذين تعاقبوا على قضاء مصر في عصور الإسلام الأولى ، فقد سبق ابن عبد الحكم الكندي في تدوين هذه الرواية ، ولكن بما يحتويه من تفاصيل وصور ووثائق غريبة ، سواء عن أحوال القضاة أو عن نظم القضاء ، وطريف القضايا والأحكام . مثال ذلك ما ذكر في وصف الحارث بن مسكين الذي ولي قضاء مصر سنة ٢٣٧ هـ ، أورده الكندي عن ابن قديد « وكان الحارث هذا مقعداً من رجليه ، فكان يحمل في محفة في المسجد الجامع ، وكان يركب حماراً مبرقماً ، وطُلب إليه في لباس السواد ، فامتنع فخوفه أصحابه سطوة السلطان به وقالوا : يقال إنك من موالى بنى أمية ؛ فأجابهم إلى لباس كساء أسود من صوف ... » وما ذكره عن أحكامه : « ومنع النداء على الجنائز وضرب فيه ... ونفى » وضرب الحد في سب عائشة رضي الله عنها ؛ وتهدد بالرجم ؛ وقتل نصرانيا سب النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن جلده الحد ؛ وأمر بضرب عنق رجلين نصرانيين بعد أن شهد عنده أنهما ساحران^(١) وما ذكره عن استقالة الحارث حينما بلغه أن القضاء الأعلى في بغداد نقض حكماً أصدره ، ورد الخليفة على هذه الاستقالة^(٢) وما ذكره عن مرتب أحد القضاة مما يقدم لنا فكرة عن مرتبات كبار الموظفين في هذا العصر^(٣) وغير ذلك من الحقائق والتفاصيل التي تلقى كبير ضياء على تاريخ القضاء ونظمه وإجراءاته في عصور الإسلام الأولى . وقد نقل إلينا مؤلف الكندي عن القضاة تلميذه ابن النحاس^(٤) وهو الذي

(١) كتاب القضاة ص ٤٦٩ و ٤٧٠ (١٤٢ و ١٤٣ طبعة جوتيهيل) .

(٢) كتاب القضاة ص ٤٧٥ (١٤٧ طبعة جوتيهيل) .

(٣) كتاب القضاة - ص ٣٦٥ (١٥ طبعة جوتيهيل) - وقد أورد ابن عبد الحكم هذه

الوثيقة المتعلقة بمرتبات القضاة ؛ ونقلها الكندي عنه (فتوح مصر ص ٢٣٥) .

(٤) هو أبو محمد عبد الرحمن بن عمر المعروف بابن النحاس من مشاهير محدثي مصر ورواتها في القرن الرابع . ولد سنة ٣١٩ هـ وتوفي سنة ٤١٦ هـ وقد أربى على التسمين . ويضمه السيوطي في فريق المحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفاظ (ج ١ ص ١٧٥) .

يروى عنه في الكتب أو الأجزاء السبعة ، التي يتألف منها تاريخ القضاء على النحو الآتي في فاتحة الكتاب :

« أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزار المعروف بابن النحاس قراءة عليه . قال : قال لنا أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي : هذا كتاب تسمية قضاة مصر على اسم الله وعونه ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم » .

وفي الأجزاء المختلفة على النحو الآتي :

« أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن ، المعروف بابن النحاس قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو عمر ... الكندي ، قال ، ثم ولي القضاء ... إلخ » .

وتنتهي رواية الكندي التي نقلها إلينا ابن النحاس عند ولاية القاضي بكار ابن قتيبة قضاء مصر في سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) ؛ وتختتم بالعبارة الآتية : « آخر ما عمله أبو عمر من أخبار قضاة مصر »^(١) وسواء أكانت هذه العبارة من صلب مؤلف الكندي ذاته ؛ أم كانت إضافة من الناسخ له ، فإن المحقق أن الكندي قد وقف في روايته عند هذا التاريخ ، وهي حقيقة يؤيدها ابن خلكان صراحة إذ يقول في ترجمة ابن زولاق ما نصه : « وله ... كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبلا على كتاب أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي الذي ألفه في أخبار قضاة مصر وانتهى فيه إلى سنة ست وأربعين ومائتين ؛ فكماله ابن زولاق المذكور ؛ وابتدأ بذكر القاضي بكار بن قتيبة »^(٢) ولكن المخطوط الذي انتهى إلينا عن كتاب الكندي يحمل لتاريخ القضاة ذيلين ، أولها منسوب لأبي الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد^(٣) ويصل تاريخ القضاة إلى ولاية أبي الحسن على بن النعمان في سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) والثاني لكاتب مجهول ، ويلخص ذكر القضاة من سنة ٣٤٧ إلى سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٣ م)^(٤) ويلى ذلك عبارة

(١) الكندي ص ٤٧٦ (١٤٩ طبعة جوتنبيل) .

(٢) الوفيات ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) لم نثر على ترجمة لابن برد هذا ، ولكن يستدل بما ورد في صدر التكملة المنسوبة إليه أنه عاش في أواسط القرن الرابع لأنه يروى عن محمد بن الربيع بن سليمان الجيزي ؛ وهذا توفي سنة ٣٢٤ ؛ ولأنه يصل تاريخ القضاة إلى سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) يشغل الذيل الأول من المخطوط ثمانى صفحات (الكندي ٤٧٧ - ٤٩٤ و ١٤٩ - -

ختامية تفيد أن الكتاب بشرطيه أى الولاة والقضاة ، قد نسخ بدمشق فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) .

وتاريخ الولاة والقضاة هو كل ما وصلنا كاملاً من آثار الكندى . ولكن الكندى خلف آثاراً أخرى ، منها ما أشار إليه بعض المتأخرين ولم يصلنا شيء من نصه ، ومنها ما تلقينا بعضه بطريق الاقتباس منه فى كتب المتأخرين . فأما القسم الأول فيشمل كتاب « الخطط » وكتاب « أخبار السرى بن الحكم » ، وكتاب « مروان الجعدى » . وأهمها فيما يظهر كتاب الخطط أعنى خطط مصر الأولى ، من عهد إنشاء القسطنطين وأحيائها ومعاهدها وآثارها ، وهو مؤلف ينوه به المقرئ فى مقدمة خطته ، ويذكره ضمن مصادره فيقول : « أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه أبو عمرو محمد بن يوسف الكندى »^(١) ثم يعود فيذكره فى ترجمة الكندى فى « المقفى » . وكذلك تشير إليه ترجمة الكندى التى وردت فى كتاب الولاة والقضاة^(٢) ؛ ولكن السيوطى لا يذكره^(٣) . وهذا كل ما نعرف عن خطط الكندى . ولكن الظاهر أنه كان مصدراً لمؤرخى الخطط منذ القضاعى^(٤) ، ثم كان مصدراً بعد ذلك لابن دقاق^(٥) والمقرئ ، فيما كتباه عن خطط القسطنطين وأحوالها وأخبارها ، وإن لم يذكر أحدهما صراحة أنه نقل منه . وكذلك ينقل القلقشندى فقرات عن الخطط والآثار لم يذكر مصدرها^(٥) غير أنه يظهر من جهة أخرى أن خطط الكندى كانت كمعظم آثاره كتاباً متواضع الحجم ، ولعله لم يكن ، شأن

— ١٦٢ طبعة جوتنبيل) ويشمل الذيل الثانى ثلاث صفحات من المخطوط (٤٩٤ - ٥٠٠ و ١٦٣ - ١٦٧ طبعة جوتنبيل) .

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ٦ .

(٢) الكندى - طبعة كينج ص ١٩ وطبعة لجنة ذكرى جيب ص ٤ .

(٣) حسن الخافرة ص ٢٦٥ .

(٤) راجع خطط المقرئ ج ١ ص ٤٨ حيث ينسب الكلام إلى القضاعى عن الكندى من كتاب لم يذكر عنوانه - وقد تولى القضاعى سنة ٤٥٧ هـ أى بعد وفاة الكندى بأكثر من قرن .

(٥) فى كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار .

(٦) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ .

كتابه عن القضاة ، أكثر من بسط لما كتبه ابن عبد الحكم في هذا الموضوع ؛ مع شيء من التفصيل والإضافة^(١) .

أما كتاب « أخبار السرى بن الحكم » ؛ وكتاب « مروان الجعدى » ، فلما نعرف منهما غير الاسم . وقد رأينا الكندى ، في كتاب الولاة يفيض نوعاً في أخبار السرى بن الحكم وحروبه^(٢) . فلعله رأى كذلك أن يفرد لها رسالة خاصة ، لأنها كانت فترة حوادث وقلقل مدهشة . والظاهر أن المقرئ انتفع بهذه الرسالة في الفصل الذى كتبه عن حوادث الإسكندرية^(٣) . كذلك يظهر أن الكندى وضع رسالة في أخبار مروان الجعدى آخر خلفاء بنى أمية لمناسبة فراره إلى مصر ومصرعه فيها ، ولم يرد ذكر هذه الرسالة في ترجمة المقرئى للكندى ، ولكنه ورد في ترجمته في كتاب الولاة . بيد أن المستشرق جىست يرى أن الكندى لم يضع مثل هذه الرسالة ، لأنه لعل لمرؤان الجعدى بتاريخ مصر ، وأن ذكرها تكرار خاطئ لكتاب السرى بن الحكم^(٤) .

ويشمل القسم الثانى الذى انتهى إلينا بعضه بالاقتباس أربعة كتب : كتاب الخندق والتراويج ، كتاب الجند العربى ، كتاب مسجد أهل الراية ، كتاب الموالى . فأما الأول فموضوعه أخبار الحوادث التى وقعت في مصر سنة ٦٤ هـ حين تغلب أشياخ عبد الله بن الزبير على مصر ، والحرب التى قامت بين ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر ، وجيوش بنى أمية التى جاءت لاستردادها ، وسميت أيام الخندق والتراويج لأن ابن جحدم حضر لحماية القسطنطينية عظيمياً ، وكان أهل مصر يقاتلون نوباً ؛ يخرج هؤلاء ثم يرجعون ، ثم يخرج غيرهم^(٥) . وأما الثانى فموضوعه غامض ، والظاهر أنه يتعلق بأخبار الجيوش والصفوف من مختلف القبائل . وموضوع الثالث هو أخبار جامع عمرو الذى سمي عند إنشائه مسجد أهل الراية ، لأنه أنشئ في وسط خطط أهل الراية

(١) فتوح مصر ص ٩١ وما بعدها .

(٢) راجع الكندى « ولاة مصر » ص ١٦١ وما بعدها .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٧٨ .

(٤) الكندى - مقدمة جىست الإنكليزية ص ١٠ .

(٥) راجع الكندى حيث يفصل هذه الحوادث في كتاب الولاة (ص ٤٣ وما بعدها) .

وهم بطون من القبائل التي اشتركت في الفتح ، ولم يكف عدد جندوها لتكوين فرقة خاصة منها ، فاجتمعت معاً وسميت أهل الزاوية ، واختطت حول المسجد الجامع^(١). والكتاب الرابع ، وهو كتاب الموالي ، يتعلق بأخبار القادة والزعماء البارزين من المسلمين غير العرب . وظاهر من موضوعات هذه الكتب أنها لم تكن واسعة المدى ، إذا استثنينا كتاب الموالي ؛ وأنها لم تكن تخرج عن الرسائل الموجزة . وقد كانت جميعاً مصدراً للتقل والاقتباس من جانب المؤرخين المتأخرين ، وبالأخص المقرئزي ، فإنه يقتبس منها جميعاً في خططه في مواضع عديدة ، ويسميتها بأسمائها^(٢) .

بقى أن نشير إلى كتاب ينسب أحياناً إلى الكندي ، وهو كتاب فضائل مصر : ذكره السيوطي ونسبه إلى الكندي في ترجمته^(٣) وذكره المقرئزي واقتبس منه ، ولكنه ينسبه إلى ولد الكندي عمر بن أبي عمر^(٤) . وقد وصل إلينا كتاب « فضائل مصر » هذا ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية^(٥) . ويبدو من تلاوة مقدمتها لأول وهلة ، أن الكتاب هو لابن الكندي ، فقد استهلته بما يأتي : « أخبرنا عمر بن أحمد بن يوسف الكندي — قال هذا الكتاب أمر بجمعه وحض على تأليفه الأستاذ أبو المسك كافور أطل الله بقاءه يذكر فيه أخبار مصر وما خصها الله تعالى من الفضل والبركات والخيرات على أكثر البلدان ... » . ثم يذكر المؤلف أنه استفاد عن شيوخ المصريين وغيرهم من أهل العلم والخبرة ، ويذكر ضمن هؤلاء علي بن حسن بن خلف بن قديد ، وأبو عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب الكندي ، وأنه اختصر رواياتهم وأسقط منها الأسانيد لتسهيل تلاوة

(١) خطط المقرئزي ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) مثال ذلك ما نقله في فتح الإسكندرية (ج ١ ص ٢٦٣) ، وما نقله من كتاب الموالي (ج ١ ص ٢٧٦ و ج ٢ ص ٢٧٧) ومن الخندق والبراهين (ج ٣ ص ٢٣٣) ومن كتاب مسجد أهل الزاوية (ج ٤ ص ٤ ، ٥ ، ٧) وكثير غيرها .

(٣) حسن المحاضرة (ج ١ ص ٢٦٥) .

(٤) الخطط ج ١ ص ٢٥٥ .

(٥) مخطوطة برقم ٤٢٢ و ٧٥٣ تاريخ وقد نسب الكتاب خطأ في فهرس دار الكتب لأبي عمر الكندي ونشر المستشرق الألمانكي إيستروب هذا المخطوط وعلق عليه ، وصفاً له لا تتجاوز الثلاثين .

الكتاب. وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الكندى الكبير ، ألف أيضاً كتاباً في تاريخ مصر ، وأن ابنه عمر اختصر منه . وهو رأى يقول به المستشرق إيستروب^(١) ولكنه ليس بقاطع في الموضوع^(٢) . والمحقق فقط هو أن كتاب « فضائل مصر » الذى انتهى إلينا هو من وضع الابن لا الأب .

* * *

هذا هو مجهود الكندى التاريخي ، وهو مجهود له قيمته وأهميته في مصادر تاريخ مصر الإسلامية . ونستطيع أن نقدر تراث الكندى متى ذكرنا أنه يصل بمجهود ابن عبد الحكم ويتمه ، ويعنى بنواح هامة من تاريخ الحكم الإسلامي لمصر ، ونظمه ووسائله ، في عصور تميز بمصادرها ووثائقها . وقد بينا كيف يمتضى « كتاب الولاة » بتاريخ مصر الإداري إلى أوائل القرن الرابع الهجري ، وكيف يقدم « كتاب القضاة » ، عن نظم القضاء الإسلامي وسيره ، إلى منتصف القرن الثالث ، صوراً وتفاصيل هامة لم تلم بها رواية ابن عبد الحكم ، وكيف أن تراث الكندى ، يكون في مجموعه حلقة فريدة في تاريخ مصر الإسلامية ، تكاد تنفرد بإلقاء الضياء على تاريخ مصر خلال القرن الثالث ، ولا سيما في العصر الذى أدركه الكندى حتى قيام الدولة الإخشيدية . ومع أن الكندى يلتزم حد الرواية المجردة ، فإن هذه الرواية تحتوى كثيراً من التفاصيل التى تمثل روح العصور التى أرختها ، وخواص المجتمع الذى تناولته ، وكثيراً من الوثائق التاريخية الهامة ، ولا سيما عن نظم القضاء وأحواله وأحكامه . وقد كانت السنة التاريخية التى اعتمد عليها ابن عبد الحكم ، هى أيضاً أهم مصادر الكندى ؛ ولكن الكندى انتفع أيضاً بالمصادر المكتوبة والتواريخ المدونة وربما الوثائق الرسمية . وقد لبث تراثه إلى جانب تراث ابن عبد الحكم على كر العصور ، مستقى خصباً لمؤرخي مصر الإسلامية ، وكان مؤلفه عن القضاء بالأخص نواة لمجهود خاص في هذا الميدان ، اضطلع به جماعة من أعلام المؤرخين المصريين مثل ابن زولاق ، وابن حجر ، والسخاوى ، وهو مجهود يلقى إلى جانب مجهود الكندى ، كثيراً من الضياء على تاريخ القضاء الإسلامي في العصور الوسطى .

(١) راجع مقدمة إيستروب في الطبعة التى أصدرها للكتاب .

(٢) لا يرى المستشرق جست الأخذ بهذا الرأى ، لعدم كفاية الدليل عليه (الكندى - في المقدمة الإنكليزية - ص ١٤) .

الفصل الثالث

الحسن بن زولاق

(٣٠٦-٣٨٧ هـ) - (٩١٩-٩٩٧ م)

في أوائل القرن الرابع الهجري شهدت مصر فترات متعاقبة من الاضطراب وتحول السلطان ، فغلب عليها بنو الإخشيد حيناً بعد ذهاب الدولة الطولونية ؛ ثم افتتحها الفاطميون بعدئذ بقليل ، واتخذوا مركزاً للملكهم وخلافتهم ودعوتهم . وكان عصر هذا الانقلاب موضعاً لمباحث جماعة من أعلام الرواة والمؤرخين المصريين الذين شهدوه أو عاشوا قريباً منه ، وانتهت إلينا بعض آثارهم . وكان في طليعة أولئك المؤرخين أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن ابن زولاق اللبثي المصري . ولد بفسطاط مصر في شعبان سنة ٣٠٦ (٩١٩ م) وتوفي في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م)^(١) . ونشأ في مهده العلم والدرس ؛ فكان جده الحسن بن علي من مشاهير العلماء . وكان من أسرته أيضاً محمد بن زولاق أحد أقطاب العربية في عصره^(٢) . ودرس الفقه على أبي بكر بن الحداد ، وهو من أعظم أئمة عصره^(٣) . وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » ، ودرس الرواية التاريخية على أبي عمر الكندي^(٤) . ثم

(١) ابن خلكان في الوفیات ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيوطي - حسن المحاضرة (ج ١ ص ١٤١) ، ولا يذكر السيوطي أن مداد بن زولاق هذا ينتمي إلى أسرة المؤرخ ، ولكن يغلب على الظن من ظروف الزمان والمكان واتفاق القلب أنه من المؤرخ .

(٣) توفي ابن الحداد سنة ٣٤٤ هـ . ويعتبه ابن زولاق في كتابه أخبار سيديوه الذي يتحدث عنه بعد « بشيخنا فقيه مصر ، وقصصها ، وعابدها » (وهو مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ) .
(٤) يستفاد ذلك من ديباجة ابن حجر في كتابه رفع الإصر عن قصاة مصر حيث يقول : « اعتمدت في الأول على أخبار لقضاء لأبي عمر الكندي ثم على ذيله لصاحبه أبي محمد بن زولاق » (رفع الإصر) المنشور بمناية وزارة بتربية (١٩٧) ص ٢ . يؤكد ذلك أيضاً ما ورد في كتاب مختصر فضائل مصر الملسوب لابن زولاق ؛ وهو مخطوط بباريس ورد فيه عن إسان ابن زولاق « فرؤي شيخنا أبا عمر محمد بن يوسف الكندي » راجع مقال للمستشرق جوتيجل عن ابن زولاق في مجلة جمعية المستشرقين الأمريكية (سنة ٢٨ ص ٢٦٣) J.A.O.S XXVIII.263 .

نخص كأستاذه تاريخ مصر بدرسه وبحثه . وقد نشأ ابن زولاق في عهد الدولة الإخشيدية ؛ وشهد في فتوته ما تعاقب يومئذ على مصر وعلى حكومتها من حوادث وقلقل ، ثم شهد من بعد ذلك في كهولته ذهاب ملك بني الإخشيد ؛ واقتناح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية ، ونشأة القاهرة ، عاصمة الإسلام الجديدة في مصر . فاختر أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الإسلامية ، ومع أننا لم نتلق سوى القليل من تراث ابن زولاق فإن ما انتهى إلينا من آثاره يدل على أن مجهوده التاريخي يمتاز عن مجهود أسلافه بكثير من البراعة والدقة ، واستكمال الرواية ، وحسن التنسيق ؛ وقد يرجع ذلك إلى أن ابن زولاق وقف معظّم درسه وبحثه على حوادث عصره ؛ وأن الانقلاب العظيم الذي شهدته في مصابر مصر ، كان له أثر في إذكاء خياله وخصوبة بيبانه ، وقد يرجع أيضاً إلى أنه شهد الحوادث عن قرب ، واتصل بممثليها صلة متينة ، واستطاع بما أُتيح له من حسن المشاهدة والاطلاع ، أن يقدم لنا عنها صوراً قوية دقيقة . فقد اتصل ابن زولاق مثلاً ببلاط بني الإخشيد ، وكتب تاريخ الإخشيد بطلب من ابنه أبي الحسن على بن الإخشيد^(١) ، ثم اتصل من بعد ذلك بالقائد جوهر الصقل فاتح مصر ، وبالحليفة المعز لدين الله ؛ وانتفع بهذه الصلة في وضع كتابه عن سيرة المعز ، على نحو ما تفصل بعد^(٢) . فكان هذا الظرف أعنى اتصال ابن زولاق برجال الدولة ، ومشاهدته لأعمالهم وتصرفاتهم عن كثب ، وما اجتمع إليه من متانة في البيان وبراعة في العرض ؛ أساس هذه الدقة التي تطبع بمجهوده التاريخي . ومن الأسف أننا لم نتلق من تراث ابن زولاق التاريخي قطعة كاملة ، ولم يصلنا كاملاً من آثاره غير رسالة أدبية في أخبار سيويه المصري لا علاقة لها بمجهوده التاريخي . على أننا تلقينا مع ذلك من آثاره التاريخية ، على يد بعض المؤرخين المتأخرين قطعاً وشلووراً كثيرة ، منها ما لا يقل كثيراً عن الأصل ، وفيها ما يكفي للإحاطة بمجهود ابن زولاق التاريخي وتقديره ، والحكم عليه ، كما أنها من أهم مصادر التاريخ المصري في عصر بني الإخشيد ، ومستهل الدولة الفاطمية .

(١) راجع الجزء الرابع من كتاب المغرب في حل المغرب لابن سعيد (ليدن سنة ١٨٩٨) في الديباجة التي نقلها ابن سعيد عن ابن زولاق (ص ٥) .
(٢) أخبار سيويه المصري لابن زولاق (المطبع بالقاهرة سنة ١٩٣٣) في ديباجته يشير ابن زولاق إلى صلته بالقائد جوهر . وقد كان جوهر أعظم أصحاب المعز نفوذاً لديه .

وينقسم مجهود ابن زولاق التاريخي إلى قسمين ، أحدهما عام والآخر خاص ،
وكلاهما يتعلق بتاريخ مصر .

- ١ -

أما القسم العام فمن الصعب تحقيقه وضبط مداه ، إذ لم تصلنا عنه سوى إشارات
غامضة متناقضة ، ولم ينته إلينا بالنقل شيء منه يكفي للدلالة عليه . ويشمل كتباً
ثلاثة تنسب إلى ابن زولاق ، وهي كتاب خطط مصر ، وكتاب تاريخ مصر ،
وكتاب فضائل مصر ؛ فتتردد هذه الأسماء الثلاثة في كتب المؤرخين منسوبة إلى
ابن زولاق .

فتلا يذكر ابن خلكان في ترجمة ابن زولاق ما يأتي : « كان فاضلاً في
التاريخ وله فيه مصنف جيد ، وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه ... »^(١) ،
ويذكر السيوطي في ديباجة كتابه « حسن المحاضرة » ضمن مصادره « تاريخ
مصر لابن زولاق »^(٢) ، ثم يعود في ترجمته فيقول إنه « صنف كتاباً في فضائل
مصر ... »^(٣) ، ويقول ابن حجر العسقلاني في كتاب رفع الإصر ما يأتي :
« وذكر ابن زولاق في تاريخه الذي على السنين في حوادث سنة عشرين ... إلخ »^(٤) ،
ويستفاد من ذلك أن ابن زولاق كتب تاريخاً لمصر ، هو الذي يذكره كل من
السيوطي وابن حجر بصراحة ، ولعله المقصود أيضاً في قول ابن خلكان
« بالمصنف الجيد » . وينقل السيوطي في سياق كتابه عدة نبد عن ابن زولاق^(٥)
دون أن يعين اسم الكتاب الذي ينقل منه ، مع أنه يعين أسماء مصادره عادة ؛
فهل نفهم من ذلك أن « تاريخ مصر » الذي ذكره ضمن مصادره و « فضائل
مصر » الذي ذكره في ترجمة ابن زولاق ؛ هما اسمان لكتاب واحد ؟ هذا ما نميل
إلى الأخذ به ؛ لأن السيوطي ، يقتبس من ابن زولاق فيما كتبه فقط عن فضائل
مصر . أعني فيما حباها الله به من الهبات والبركات ، سواء بما جعلها مهبطاً لبعض

(١) الوفيات ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) رفع الإصر عن قضاة مصر مخطوط دار الكتب المشار إليه .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ ، ٤ ، ٩ ، ١٣ ، ٢٩ ، - وج ٢ ص ١٩٦ .

الأنبياء ، أو بما أسبغه عليها من الخصب والنعم ، وفي هذا يقتبس منه أيضاً ابن تغرى بردى مكتفياً بالإسناد إلى ابن زولاق دون تعيين كتابه^(١) : وكذا يعقد المقرئى فى « خططه » فصلاً عن فضائل مصر لم يشر فيه إلى ابن زولاق ، ولكنه يورد فيه بعض ما ينسبه إليه السيوطى وابن تغرى بردى .

وهذا موضوع اعتاد المتقدمون من مؤرخى مصر أن يجعلوه قطعة من توارىخهم . وقد رأيت أن عبد الحكم يفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً فى فتوح مصر ، وأنه يظن أن الكندى ألف أيضاً كتاباً فيه .

ولم يصلنا أثر ابن زولاق هذا ؛ ولكن توجد ثلاث رسائل مخطوطة فى مكتبة باريس تنسب إلى ابن زولاق ؛ وتتعلق بهذا الموضوع أعنى فضائل مصر . وتوجد رسالة مخطوطة رابعة فى جوتا تنسب إلى ابن زولاق أيضاً تتعلق بتاريخ مصر حتى سنة ٤٩ هـ . وقد عنى المستشرق جوتهيل ببحث هذه الرسالة وتحليلها ، فانتهى إلى أن إحدى رسائل باريس الثلاث ، لا يمكن أن تنسب إلى ابن زولاق بأى حال ؛ إذ ورد فى سياقها اسم ابن أبى الصلت أمية الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، ثم اسم المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . أما الرسالتان الأخريان ، فيبينهما شبه فى المحتويات ، وعنوانت إحداهما ، وصفحاتها ثلاث وأربعون : « كتاب مختصر فضائل مصر تصنيف الشيخ الأجل الإمام الحسن بن إبراهيم ابن زولاق » و خلاصة محتوياتها : ما ورد فى القرآن الكريم خاصاً بمصر ، ومن ولد بها من الأنبياء ، وعجائبها ، ونيلها ، ومحاصيلها ، ونبذة فى تاريخها قبل الإسلام ، وذكر منها ومساجدها . والرسالة الثانية نحو نصف الأولى فى الحجم ، وتحتوى على مثل هذه الموضوعات مع نبذة أخرى عن خراج مصر ، والموازنة بينها وبين بغداد ، ورخاء العيش فيها ، وقد ذيلت هذه الرسالة بقصيدة بلحال الدين المصرى المعروف بالجزار المتوفى سنة ٦٧٦ هـ فى أمراء مصر^(٢) . مما يقطع بأنها ليست بخط ابن زولاق ويرى الأستاذ جوتهيل بمقارنة الرسالتين أن الثانية

(١) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ١ ص ٤٥ و ٤٧ .

(٢) أورد السيوطى هذه القصيدة برمتها وهى أرجوزة ذكر فيها ولاية مصر وملوكها من عمرو ابن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤١ وما بعدها) .

قد اقتضيت من الأولى على يد كاتب مجهول ، وأن الأولى هي من تأليف ابن زولاق ، كما يرجح أن مخطوط جوتا هو أيضاً نسخة من هذه الرسالة^(١) . ويلحق بهذا القسم من مجهود ابن زولاق التاريخي كتاب خطط مصر الذي يذكره ابن خلكان دون لبس ، ثم يقول إن ابن زولاق « استقصى فيه » أى أطال البحث وأسهب فيه . وقد رأينا أن ذكر الخطط منذ قيام الفسطاط وتوزيع مناطقها بين القبائل ، وإنشاء معاهدها الأولى ، وذكر باقى المدن المصرية ، موضوع تناوله المؤرخون المتقدمون أيضاً كابن عبد الحكم والكندى ، ولكن الظاهر أن ابن زولاق قد تناوله بنوع من الإفاضة والتوسع ، ولعله استقصى فيه إلى جانب خطط الفسطاط ، خطط العسكر^(٢) ، ثم خطط القطائع ، وهى مدينة بنى طولون الذين عاش ابن زولاق قريباً من عصرهم ، وأدرك آثار قصورهم ومعاهدهم الزاهرة ، بل ليس بعيداً أن يكون ابن زولاق قد تناول فى « خططه » إنشاء القاهرة التى شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عام . ولم نتلق عن أثر ابن زولاق فى الخطط أى شرح أو اقتباس شاف ، بل إن المقرئ الذى عنى فى مقدمة كتابه^(٣) بتعداد كتاب الخطط ، لم يذكر ابن زولاق فيمن ذكر ، مع أنه ذكر الكندى ، وليس فى سياق مؤلفه ما يشير صراحة إلى أن ابن زولاق قد وضع كتاباً فى الخطط ، مما يدل على أن المقرئ لم يدرك مثل هذا الأثر ولم يعلم به . بيد أن ياقوت الحموى الذى توفى فى سنة ٦٢٦ هـ يقتبس فى معجمه الجغرافى عن ابن زولاق فى كلامه عن بعض المدن المصرية ؛ ولكن دون الإشارة إلى اسم الكتاب الذى نقل عنه^(٤) .

أما القسم الخاص من تراث ابن زولاق فقد انتهت إلينا منه عن يد المتأخرين بقية شافية ؛ وقد اختص ابن زولاق تاريخ عصره بهذا القسم من مجهوده .

(١) واجع مقال الأستاذ جوتهيل عن ابن زولاق فى مجلة جمعية المستشرقين الأمريكية ٥٧—٢٥٩ p. XXVIII ففيه استعراض تفصيلى للمخطوطات المذكورة .

(٢) هى محلة أو مدينة صغيرة ، أنشأها الجند العباسيون إلى جانب الفسطاط سنة ١٢٣ هـ (٧٥٠ م) حين قدومهم إلى مصر لمطاردة بنى أمية .

(٣) الخطط ج ١ ص ٦ .

(٤) راجع معجم البلدان (طبعة مصر) ج ١ ص ١٥٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ .

فكتب «سيرة الإخشيد» ، و «سيرة المعز لدين الله» ، وكتب ذيلاً أو تنمة لكتاب الكندى عن أمراء مصر ، وذيلاً آخر لكتاب الكندى عن القضاة ، ورسالة في أخبار الماردانيين وزراء مصر .

وهذه الكتب كلها حلقات متصلة في أخبار العصر الذى عاش فيه المؤرخ . وأولها من حيث التاريخ «سيرة الإخشيد» التى وصلتنا برمتها تقريباً بطريق النقل عن يد مؤرخ آخر هو ابن سعيد الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب»^(١) الذى تعاقب فى وضعه عدة من أجداد هذا المؤرخ ، وخصت مصر فيه بقسم فى منتهى الأهمية ، يقوم معظمه على النقل من المؤرخين المصريين أنفسهم ، وقد تناول الجزء الرابع منه تاريخ دولة بنى الإخشيد وسمى كتاب «العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج» واعتمد فيه على كتاب ابن زولاق ، ونوه المؤلف بذلك فى الديباجة حيث قال : «والنقل فى ذلك من كتاب الحسن بن زولاق فى سيرة محمد بن طغج وغيره من الكتب التى تلى أسماؤها مذكورة فى أماكن الإحالة عليها»^(٢) . ويبدأ النقل من كتاب ابن زولاق منذ الديباجة وفيها يذكر ابن زولاق ظروف تأليفه لهذا الكتاب ثم يقول :

«وكننت قد سئلت فى سنة خمسين وثلاثمائة من أبى الحسن على بن الإخشيد أن أعمل سيرة أبيه فعملت هذه السيرة ووصلت إليه وحسن موقعها منه ، وأحسن عليها المكافأة ، وجعل ذلك جارياً فى كل سنة هو ووالدته ، ولم أضمن هذه السيرة إلا ما شاهدته وأخبرنى به من أثق به حسباً أمكننى»^(٣) .

وظاهر من سياق الرواية فى كتاب «المغرب» ومن تناسقها ، وإسهابها ، أننا أمام حالة نقل كامل ، أو بعبارة أخرى أننا ظفرنا بكتاب ابن زولاق كله تقريباً ، منقولاً فى كتاب «المغرب» فالنقل يبدأ بالديباجة ، والرواية تبدأ بنشأة الإخشيد (محمد بن طغج) وتنبع حياته مرحلة فرحلة ، وظروف تغلبه على

(١) نشر بعض المستشرقين قطعاً من هذا الكتاب أكبرها الجزء الرابع الذى تولى نشره المستشرق الدانماركى تالكفست سنة ١٨٩٨ وهو المشار إليه فيما يلى ، ولا يزال معظم الكتاب مخطوطاً فى دار الكتب . وقد نشر منه الجزء الخامس بالأندلس بناية الدكتور شوق ضيف فى مجلدين (القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥) .

(٢) كتاب المغرب ص ٤ .

(٣) كتاب المغرب ص ٥ .

مصر ، وأعماله وحروبه مفصلة ، حتى وفاته ، ووصف خلالاته وأحوال بلاطه ، كل ذلك في رواية متناسقة ضافية تقع في أكثر من أربعين صفحة كبيرة^(١) فإذا أضفنا ذلك إلى ما يذكره ابن زولاق في المقدمة عن ظروف تأليفه لهذه السيرة ، استطعنا أن نقطع بأن « سيرة الإخشيد » تكون مؤلفاً لابن زولاق مستقلاً بذاته ؛ وليس ذيلاً لكتاب آخر ، كما توهم الأستاذ جوتهيل ، حيث اعتقد من فهم خاطئ لعبارة وردت في خاتمة ديباجة ابن زولاق عن تتمته لكتاب أمراء مصر ، أن سيرة الإخشيد هي قسم من هذا الذيل ، أو ذيل لكتاب سابق^(٢) .

وقد رأينا أن ابن زولاق كان متصلاً برجال الدولة منذ بنى الإخشيد ، فإذا كان قد وضع سيرة للإخشيد ؛ فقد نكون أمام تاريخ رسمي ؛ أثبتت فيه المحاسن ، وأريد أن نخدم به دعوة معينة . وقد يؤيد ذلك ما خص به الإخشيد من المديح في عدة مواطن^(٣) ، ولكن تفاصيل الرواية فيما عدا هذه المواطن القليلة تعرض مجردة ، ولمنطق الحوادث أهميته ، ومنها كثير يشهد على الإخشيد لاله ، هذا إلى أن ابن زولاق قد نفح كتابه فيما بعد كما يتضح ذلك من قوله في ختام مقدمته « وقد زدت في هذه السيرة أشياء بعد على بن الإخشيد^(٤) » ؛ مما يدل على أننا أمام نسخة معدلة من سيرة الإخشيد ، غير النسخة التي كتبها المؤرخ بإشارة على بن الإخشيد ، وأنه بعد ذهاب دولة بني الإخشيد ، قد تناول ما كتبه أولاً بشيء من التغيير والتعديل في جو أكثر حرية ونزاهة .

ويلحق بسيرة الإخشيد ، رسالة كتبها ابن زولاق عن أخبار الماردانيين ؛ وهم أسرة قوية تولت الوزارة أيام بنى الإخشيد ، وناولتهم وناقصتهم حيناً ، ولم تصلنا هذه الرسالة ، غير أن المقرئ يخلص منها فصلاً في أخبار أبي بكر

(١) هذه الصفحات قطعها ضعف الصفحات العادية ، فالصفحة منها مثلاً تحتوي على ثمانية وعشرين سطرًا والسطر يحتوي على نحو ستة عشر كلمة فهي بذلك تبلغ مائة صفحة من القطع العادي .
(٢) راجع لجمعية المستشرقين الأمريكية J.A.O.S. سنة ٢٨ ص ٢٥٧ . وأظهر أن الأستاذ جوتهيل ، قد فهم من إشارة ابن زولاق إلى أنه كتب ذيلاً لأمراء مصر منذ ولاية الإخشيد إلى دخول المعز ، أن سيرة الإخشيد ، هي قطعة من هذا الذيل ، ولكن العبارة الختامية في الديباجة وهي قوله : « وقد زدت في هذه السيرة أشياء بعد على بن الإخشيد » تزيل هذا الوهم .

(٣) راجع كتاب المغرب ص ١٥ و ٣٢ و ٣٧ .

(٤) كتاب المغرب ص ٥ .

المارداني عميد هذه الأسرة وأخبار ولده^(١) ، ويذكر في نهايته أن ابن زولاق قد أفرد لتاريخ المارداني «سيرة كبيرة» ، مما يدل على أن ابن زولاق تناول هذه السيرة بشيء من التوسع ، هذا فضلاً عما يقتبسه المقرئ من غيرها في مواضع أخرى .

على أن أهم آثار ابن زولاق ؛ فيما يظهر ، هو كتابه «سيرة المعز لدين الله» . وقد شهد المؤرخ فتح الفاطميين لمصر ؛ وانتقال مصر بذلك من الخلافة العباسية إلى خلافة الشيعة ، وشهد عهد المعز لدين الله ، ثم عهد ولده العزيز بالله ، واتصل بالبلاط الفاطمي ؛ ويجوهر فاتح مصر^(٢) ، فكان طبيعياً أن يكتب تاريخ هذا العهد الفياض بغريب الحوادث ، وأن يكتب بالأخص سيرة المعز لدين الله محور هذا الانقلاب العظيم في مصير مصر . وإذا لم يكن قد وصلنا أثر ابن زولاق هذا ، فقد وصلتنا منه على يد المقرئ شذور عديدة نستطيع منها أن نقول رأياً في قيمته ومداه .

وهذه الشذور اقتبسها المقرئ بالأخص في كتابين من كتبه : الأول في كتاب «اتعاظ الخنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء» ، وهو تاريخ للخلفاء الفاطميين . وقد وصلنا قسم كبير منه في مخطوط محفوظ بمكتبة جوتا ، ونشره المستشرق بونز . وفيه يقتبس المقرئ فيما كتبه عن المعز لدين الله منذ دخوله مصر ، فضلاً برمته عن ابن زولاق^(٣) ؛ ثم ينقل في موضع آخر ، صورة كتاب المعز لدين الله لزعيم القرامطة الحسن الأعصم ، وهو وثيقة فقهية تاريخية هامة يرجح أنه نقلها أيضاً عن ابن زولاق . ثم يقتبس المقرئ في كتاب الخطط أيضاً ،

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٥٤ . وكذلك ج ١ ص ١٣٢ - راجع أيضاً ج ٣ ص ٩ و ٢٩٤ حيث يقتبس من سيرة الإخشيد .

(٢) راجع كتاب أخبار سيويه المصري الذي سبقت الإشارة إليه ففيه ما يفيد صلة ابن زولاق بالقائد جوهر (ص ١٧) .

(٣) راجع هذا الفصل في اتعاظ الخنفاء طبعة بونز ص ٨٩ إلى ١٠٠ ، والطبعة التي نشرت بمناية المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال (ص ١٤٦ - ١٦١) ؛ وفي فاتحته يقول المقرئ أنه نقل «عن خط ابن زولاق» مما يدل على أن مؤلف ابن زولاق كان موجوداً متداولاً حتى القرن التاسع الهجري . هذا وقد عثر البحث أخيراً بنسخة كاملة من «اتعاظ الخنفاء» بإحدى مكتبات استانبول .

كثيراً من «سيرة المعز» متفرقة في كلامه عن أحوال الدولة الفاطمية وتاريخ المعز لدين الله .

والظاهر من هذه الشذور^(١) أن سيرة المعز كانت مؤلفاً كبيراً ضافياً ، يلم بكل ما في سيرة المعز الخافلة من الحوادث والتفاصيل ؛ وبكل ما استحدثه البلاط الفاطمي في مصر من النظم والرسوم والتقاليد . وقد ذهب الأستاذ جوتيل في بحثه إلى أن سيرة المعز قد تكون أيضاً إلى جانب سيرة الإخشيد جزءاً من ذيل لمؤلف سابق ، وليست كتاباً مستقلاً^(٢) وهذا خطأ في نظرنا . ويكفي أن نستعرض خلاصة ما اقتبسه المقرئزي ، لنرى أن سيرة المعز تكون مؤلفاً مستقلاً بذاته ، تحول سعته وإفاضة ، دون أن يكون ذيلًا أو جزءاً من ذيل .

ففي هذه الشذور تفصيل لبعض الحوادث التي وقعت منذ دخول المعز قصره الجديد في القاهرة لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ؛ وقد رتب على الأيام والشهور متقاربة متناسقة على النحو الآتي :

في يوم ٧ رمضان سنة ٣٦٢ ؛ دخول المعز قصره في القاهرة ، وبلى ذلك وصف ما في القصر من بلخ وتحف وذنائر .

في ١٥ رمضان سنة ٣٦٢ جلوس المعز على عرشه ، ومثول الكبراء للسلام عليه ، وتقديم القائد جوهر هديته إليه ، مع وصف مفصل لهذه الهدية . في شوال سنة ٣٦٢ ، منع المعز النداء بزيادة الثيل .

في يوم عرفة سنة ٣٦٢ ؛ عرض المعز للمظلة التي صنعت للكعبة في قصره ، ووصف هذه التحفة .

وصف ما استعمل من الذهب في صنع العرش .

في ١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢ ، وصف اجتماع أهل القاهرة للدعاء .

في ١٦ المحرم سنة ٣٦٣ ، قلد المعز ولاية انخراج للوزير يعقوب بن كلّس .

(١) راجع هذه الشذور أيضاً في المخطوط ج ١ ص ٩٧ و ص ١٣٢ و ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢ ، ٣٥٢ : ٣٨٩ و ج ٣ ص ٢٢٤ . وهي نفس ما نقله المقرئزي في «أتماظ الخفاء» في تاريخ المعز لدين الله مجتمعا ، غير أنه يوردها في المخطوط متفرقة في مناسبات مختلفة .

في يوم عاشوراء سنة ٣٦٣ ، سير موكب الشيعة للنواح على الحسين .
في يوم الفطر سنة ٣٦٣ ، ركوب المعز للصلاة في القاهرة ، ووصف مشهد
الصلاة ، والخطبة التي ألقيت .

في ذي القعدة سنة ٣٦٣ ؛ ركوب المعز لفتح الخليج ، وتجوّاله في القاهرة .
سنة ٣٦٣ أيضاً ؛ منع الوقود في عيد النبروز .

سنة ٣٦٤ ؛ وصف مواكب النبروز .

هذا ملخص ما اقتبسه المقرئ من سيرة المعز ، يدل دلالة واضحة على
أن ابن زولاق ، كان يتتبع في هذه السيرة حوادث هذا العصر مرتبة حسب
تاريخها ، وعلى أنه كان يستقصى كل الحوادث الشعبية والملوكية سواء ،
كما أن تقارب هذه الحوادث ، وما يتخللها من الوصف والإسهاب يدل
على أننا أمام مؤلف ضخم شاسع لا أمام ترجمة موجزة ؛ وإذا كان
ابن زولاق ، قد أحصى في عامين أو ثلاثة ، كل هذه الحوادث واهتم أن يتتبع
الخليقة خلالها في غدواته وروحاته وحفلاته وصلواته ؛ فمن الواضح أنه قد
سار في مؤلفه على هذا الأسلوب ، منذ نشأة المعز في بلاد المغرب وتاريخه
قبل مقدمه إلى مصر ؛ ثم فتح مصر وما تخلله من الحوادث حتى وفاته
(٣١٧ — ٣٦٥ هـ) وذلك على نحو ما فعل في سيرة الإخشيد حيث تتبع أدوار
حياته منذ بدايتها إلى وفاته ؛ أضف إلى ذلك أن صلة ابن زولاق بالقائد جوهر
وبالبلاط الفاطمي ، تحمل على الاعتقاد بأنه كتب سيرة المعز ، بناء على طلب
رسمي ، كما حدث بالنسبة لسيرة الإخشيد ، وفي ذلك كله ما ينفي القول
بأن مؤلفه عن المعز قد يكون ذيلًا أو شبه ذيل للمؤلف سابق ؛ وما يؤيد أنه
مجهود مستقل بذاته ؛ ولعله أكبر آثاره كلها ؛ فضلاً عن كونه أهمها ، لأنه
يتعلق بفترة من الحوادث كان لها أكبر أثر في تطور مصائر مصر الإسلامية .

ولابن زولاق إلى جانب سيرة الإخشيد ، وسيرة المعز لدين الله ، أثران
آخران يتّان مجهود الكندي ، أولهما ذيل لكتابه عن القضاة ، والثاني ذيل
لكتابه عن الولاة ؛ ويبدأ ابن زولاق في كتابه عن قضاة مصر حيث وقف
الكندي أعني بولاية القاضي بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦ هـ (٨٦١ م) وينتهي

بذكر ولاية محمد بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) في أيام العزيز بالله ،
ويعضى ابن زولاق في ذكر أخباره إلى رجب سنة ٣٨٦ هـ^(١) (٩٩٦ م)
أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عام ونصف ، ويسمى ابن خلكان هذا الكتاب
« أخبار قضاة مصر »^(٢) ويسميه ابن حجر « بالذيل » أعنى ذيل كتاب الكندى^(٣)
ولم تصلنا منه نسخة كاملة ؛ ولكن وصلنا معظمه على ما يظهر ، عن طريق
ابن حجر ؛ في كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر^(٤) ، حيث يعتمد على
ابن زولاق وحده تقريباً في ذكر قضاة الفترة التي تناولها ، وينوه بذلك في
مقدمة كتابه^(٥) .

كذلك وضع ابن زولاق ذيلاً لكتاب الولاة ، فبدأ حيث انتهى الكندى
أعنى منذ وفاة الإخشيد إلى دخول المعز لدين الله مصر (٣٣٥ - ٣٦٢ هـ) ؛
وقد أشار ابن زولاق نفسه إلى محتويات هذا الذيل في مقدمة سيرة الإخشيد
فقال :

« وقد كان أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، عمل أخبار أمراء مصر
وختمه بوفاة الإخشيد وذكر له أخباراً يسيرة ، وقد أتممت أنا هذا الكتاب
بسيرة أنوجور وأخيه على وكافور ، وأحمد بن علي بن الإخشيد ، والقائد
جوهر إلى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافته »^(٥) .
وهذه الإشارة صريحة في أن ابن زولاق لم يتناول في هذا الذيل تاريخ
الإخشيد بل بدأه بتاريخ أنوجور بن الإخشيد ، لأنه تناول تاريخ الإخشيد
في مؤلف خاص ، وهو سيرة الإخشيد كما قدمنا . ولم يصلنا من هذا الذيل
لكتاب الكندى غير شذور قليلة ، أورد بعضها المقرئ في « الخطوط » ،
ولكنها تدل على أن ابن زولاق اتبع فيه شيئاً من التوسع ، ويسميه المقرئ

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر الطبعة المشار إليها ص ٢ .

(٣) لا يزال معظم رفع الإصر مخطوطاً ولم يطبع كاملاً (دار الكتب رقم ١٠٥ تاريخ) وقد
صدر منه جزءان فقط . ونشر المستشرق رفون جست منه قسماً كبيراً مع كتاب الكندى ، تكملة
لتاريخ القضاة .

(٤) رفع الأصر ص ٢ .

(٥) كتاب المغرب ص ٥ .

فما اقتبسه منه بكتاب « تنمة كتاب أمراء مصر » أو « إتمام كتاب الكندي في أخبار أمراء مصر »^(١) .
وهناك أيضاً ذيل أو تنمة أخرى لابن زولاق في أخبار الدولة الطولونية ، أشار إليها في ديباجة سيرة الإخشيد ، ولكن لم يصلنا منها شيء^(٢) .

— ٤ —

بقى أن نتكلم عن أثر لابن زولاق ، هو الوحيد الذي تلقيناه كاملاً . ذلك هو « كتاب أخبار سيبويه المصري » . وهو أثر أدبي يحتوي أخبار أحد أعلام الأدب في عصر ابن زولاق ، ويلقى شيئاً من الضياء على بعض نواحي الحياة الأدبية في هذا العصر . وسيبويه المصري ، هو أبو بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندي المصري ، ولد بالقسطاط سنة ٢٨٤ هـ وتوفي سنة ٣٥٨ هـ ولقب بسبويه لبراعته في النحو وخواص اللغة ، وقد ذكره السيوطي بين فقهاء الشافعية وبين أئمة اللغة^(٣) ، كان صديقاً لابن زولاق ، وزميلاً له في الدرس على ابن الحداد^(٤) ، وكانت له أخبار وملح ونوادر كثيرة عني ابن زولاق بجمعها في كتاب خاص . وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية وحيدة من هذا الأثر ، لا ريب أنها من أقدم المخطوطات العربية التي وصلت إلينا^(٥) وهي كتيب في نحو أربعين صفحة صغيرة ، وفي مقدمته يقول ابن زولاق ما يأتي : —

(١) راجع المخطوط ج ٣ ص ٣٩ و ٢٢٣ .

(٢) كتاب المغرب ص ٤ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٧ و ٢٥٤ .

(٤) كان ابن زولاق تلميذاً لابن الحداد كما قدمنا ، وقد ذكر السيوطي أن سيبويه المصري

درس على ابن الحداد أيضاً (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٤) .

(٥) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ ، وهي مخطوط قديم جدا ، أكثر صحفه غمرة بهتت كتابتها من تقادم العهد . وقد كتب على صفحة عنوانه ما يأتي : « كتاب أخبار سيبويه المصري تأليف أبو محمد الحسن بن إدراهم بن الحسين ابن . . . » وأكلت نسبة المؤلف وترجمته بخط آخر على النحو الآتي : « الحسن بن خلف بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق اللقي المصري الفقيه التاريخي مصنف أخبار مصر وغيرها ، توفي في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ست وثمانين وثلثمائة » ووقت هذه الترجمة بما يأتي « كنه يوسف بن أحمد بن حود بن أحمد (الأسدي) الدمشقي لطف الله تعالى به » .

« قال الحسن بن إبراهيم : وكان عندنا بمصر رجل يعرف بسيبويه ... لو كان بالعراق لجمع كلامه ونقلت ألفاظه ، ولو عرف المصريون قدره ، جمعوا عنه أكثر مما حفظوه ، وسئلت أن أجمع (من) كلامه ما أقدر عليه مما حفظته عنه ، وما بلغني عنه ، فعملت كتابي هذا بصفته وما كان يحسنه حسب ما قدرت عليه ، وبالله التوفيق » .

ثم يترجم ابن زولاق صديقه ، ويقول إنه توفي في صفر سنة ٣٥٨ هـ « قبل دخول القائد جوهر إلى مصر ستة أشهر ، وتأسف عليه لما ذكرت له أخباره ، وقال لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز صلوات الله عليه » ثم يقول : « وكان أبوه ... يكنى أبا عمران ، أعرفه وأعرف لابنه سيبويه معه قصصاً أذكرها في كتابي » ويصف صاحب الترجمة بأنه « كان عالماً حافظاً ، يعرف من النحو والغريب ما لقب بسبويه سيبويه ... اجتمعت فيه ألفاظ الورعين والمتزهدين والواعظين ، وأخبار الصالحين ، وأدوات المتأدبين ، وفكاهة المتأدبين ... وبلغ ذلك حتى جالس أنوجور الإخشيد أمير مصر ، وجالس الحسين بن محمد المارداني وزير مصر أيضاً وواكلهما وناديهما ... » .

وكتاب أخبار سيبويه يلقي كما قدمنا شيئاً من الضياء على بعض نواحي الحياة الأدبية المصرية في النصف الأول من القرن الرابع ، وعلى أحوال الأدباء ومكانتهم من المجتمع ، وعلائقهم برجال الدولة ، وعلى حلقات

= وقد كتب نفس الكاتب بخطه تحت عنوان الكتاب هذه العبارة « بخط ابن زولاق وجمعه » . وتحمل صفحة العنوان فوق ذلك في الزاوية اليسرى ما يأتي : « لأحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم ابن أحمد بن حمد بن سليم أبو محمد القيسي » . وقد لفت نظرنا أهمية هذا المخطوط وقدمه ، وما أورده الكاتب المجهول من أنه بخط ابن زولاق . فلبحثنا حينئذ نقيب عن شخصية صاحب هذه العبارة وهو أيضاً كاتب ترجمة الغلاف ، أعني يوسف بن أحمد الأسدي الدمشقي . حتى اهتدينا إليه ، وحققتنا أيضاً شخصية صاحب الاسم الثاني الذي في زاوية الغلاف اليسرى ، بأنه هو ابن مكتوم القيسي والقروي المصري ، وانتهينا من تحقیقات ومقارنات خطية عديدة أيدناها بالوثائق والأدلة القوية ، على أن هذا المخطوط يرجع تحقیقاً إلى عصر الفسطاط ، وأنه كتب نحو سنة ٣٧٠ هـ إلى سنة ٣٨٠ هـ وأنه فوق ذلك يرجع ترجيحاً كبيراً أنه بخط مؤلفه الحسن بن زولاق ، (راجع هذا البحث مع وثائقه في ملحق جريدة السياسة لعدد ٢٧٨٥ الصادر في ٢٩ أبريل سنة ١٩٣٢) هذا وقد قام بتحقیق هذا المخطوط ونشره الأدیبان محمد إبراهيم سعد وحسين الديب (القاهرة سنة ١٩٣٣) .

الأدب في مصر الفسطاط ، وعلائق الأدباء بعضهم ببعض ، وكذلك على بعض نواح من الحياة الاجتماعية المصرية في هذا العصر .

* * *

وهكذا يجتمع تراث ابن زولاق بين التاريخ وشيء من الأدب . وقد رأينا فيما استعرضناه من آثار هذا التراث ، أن ابن زولاق يتجه بمجهوده إلى نوع من التخصص ، وأنه يتناول من تاريخ مصر ، دول العصر الذي عاش فيه في توسع وإفاضة . فهو بذلك أول مؤرخ مصرى أثر التخصص على التعميم ، وآثر حوادث عصره ورجال عصره بأكثر قسط من مجهوده ، لأن مجهود ابن عبد الحكم والكندى ، يتجه كلاهما إلى التعميم ، وإن لم يخل من بعض نواح خاصة . بيد أن مجهود ابن زولاق يصل مع ذلك بمجهود سلفيه ويتمه ، بحيث نجد في مجهود المؤرخين الثلاثة سلسلة متصلة في تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية وعصر المعز لدين الله . ولكن مجهود ابن زولاق يمتاز أولاً بالتححرر من كثير من قيود الرواية والإسناد التي تطبع بمجهود ابن عبد الحكم والكندى ، وإذا كان يلجأ إليها في كثير من المواطن ، فأكثر ما يكون ذلك للنقل عن أساتذته وبعض معاصريه ، ممن شهدوا حوادث أو تفاصيل تتعلق بموضوعه . والملاحظة والتحقيقات الخاصة هي أعظم مصادر ابن زولاق . وقد رأيت أنه كان ذا صلة وعلائق ، بالدول والأشخاص الذين كتب تاريخهم ، وأنه كان مؤرخ دولة أو مؤرخاً رسمياً في معنى من المعاني . ولكن هذه الصفة لم تجن على مجهوده فيما نعتقد ، لأنه لم يد فيه شيئاً من عوامل التشيع أو التحامل الواضحة ، ولأنه فوق ذلك يعرض الحوادث والتفاصيل مجردة ، ومعظمها من حروب وثورات وضروب بطش وتقمع ، لم تكن تناقض روح عصره أو مبادئه . ولم تكن مما يتأذى منه المتغلب أو الفاتح الذي تسبغ القوة على تصرفاته لوناً من الحق والشرعية . فابن زولاق راوية ينقل ما سمع وشاهد وحقق ، من طريق صلاته وعلاقته بأكابر عصره ، وروايته لذلك جديرة بالاعتماد والثقة ، بل هي أنفس

ما انتهى إلينا من تواريخ هذا العصر ووثائقه ، وفي وسع البحث الحديث أن يتخذ منها مادة غزيرة للتحليل والنقد . هذا كله إلى أن ابن زولاق يقدم إلينا مجهوده ، في عرض ممتع ، يشهد بقوة بيانه ، ويدلل بوضوح على أن الرواية التاريخية قد بدأت في عصره تنزع عنها كثيراً من عوامل الجفاء والملل التي تطبعها في القرنين الثاني والثالث ، وتدخل في مرحلة جديدة من البسط والدقة ، وحسن العرض^(١) .

(١) لفتت نظرنا إشارة وردت في كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلاني هذا نصها : « وقال ابن زولاق في سيرة جواهر » (القسم الأول من رفع الإصر ص ٧٤) مما يدل على أنه كان ضمن آثار ابن زولاق كتاب في سيرة جواهر الصقل ولم نمثر في أي مصدر آخر على أي إشارة مماثلة أو على أية تفاصيل أخرى . ومن المعلوم أن يضع ابن زولاق مثل هذا الكتاب ، إذ كانت تربطه بجواهر الصقل صلة وثيقة .

الفصل الرابع

عز الملك المسيحي

جندى ومؤرخ وسياسى

(٣٦٦ - ٤٢٠ هـ) : (٩٧٧ - ١٠٢٩ م)

كان المسيحي رجل حرب ورجل قلم ؛ وكان سليل أسرة حرانية^(١) نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ؛ وكان إحدى هاته الشخصيات القوية البارزة ، التى كانت الدولة الفاطمية إبان قوتها وفتوتها تحشدها من حولها ، وتوليها ثقنها وعطفها ، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين . بيد أن المسيحي كان مصرياً بمولده ، مصرياً بتربيته وببشته ، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها ؛ ولولم يذهب الزمن بآثاره ، ولا سيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر ، لكان بين أيدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها فى المرحلة الأولى من الحكم الفاطمى ، أعنى مرحلة العظمة والبهاء .

ولد المسيحي بمصر - حسبما ذكر فى تاريخه ، ونقل إلينا الرواة المتأخرون - فى العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٧ م)^(٢) . وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل المعروف بالمسيحي ؛ ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا عن تربيته وتكوينه ، ولكن يبدو لنا من آثاره التى نسبت إليه ، والتى انتهت إلينا شلور منها ، أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحي ، كذلك يظهر أن المسيحي بدأ حياته العامة جندياً ورجل إدارة ، لأنه كان يرتدى زى الجندي ، ولأنه تقلد بعض المناصب الإدارية الهامة ؛ وقد ذكر لنا المسيحي فى تاريخه أيضاً ، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ بيد أنه تقلب قبل ذلك فى بعض الوظائف

(١) نسبة إلى حران ، وهى مدينة قديمة كانت تقع بين الموصل والشام على مقربة من الرها .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٤ .

المهمة ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب^(١) وهو يومئذ من مناصب الوزارة المهمة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله ، وعينه في بطاقته الشخصية في سنة ٣٩٨ هـ . وكان الحاكم يومئذ فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان في ذروة القوة والسلطان والبطش ، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه ، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة ٣٩٥ — ٤٠٠ هـ) . ويروى لنا المسيحي نفسه في تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التي شهدناها في هذا العهد^(٢) ؛ وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والكبراء ، لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره ، ولكن المسيحي نبأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة ، لا تتناول إليه الشكوك والريب ، ولا تتجه إليه النقرة الغادرة ، بل يظهر أن المسيحي كان من أخص خواص الحاكم ، حسبما تدل به الواقعة الآتية التي يرويها لنا في تاريخه ، قال :

« قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعاني والدي قبل موته ، وهو عارى الجسم ، وعليه الحرق والضهاد ، قال فاستدعاني وقبلني وضمني إليه وقال : وانعمي عليك يا حبيب قلبي ! ودمعت عيناه ، ثم قال : امض يا سيدي فإنا في عافية . قال الحاكم : فضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله تعالى العزيز إليه »^(٣) .

ويقول لنا ابن خلكان إن المسيحي نال لدى الحاكم حظوة وسعادة ، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات ، حسبما يشهد بها تاريخه الكبير^(٤) ، وتبدو دلائل هذه الصداقة التي توثقت عراها بين الحاكم والمسيحي ، في كثير مما يرويهِ المؤرخ في تاريخه ، وينقله عنه الكتاب المتأخرون مثل المقرئ وابن تغري بردي عن عصر الحاكم بأمر الله ، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية ، ففي كثير من هذه المواطن يبدو المسيحي الصديق الخالص والمستشار الأمين . وهذه حقيقة تلفت النظر ، فإن الحاكم كان أميراً خطر النزعات ، عنيف

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) نقله المقرئ عن المسيحي في المنطق (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ٣٢ و ٣٣ .

(٣) نقله ابن تغري بردي في نجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ .

الأهواء ، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه . بيد أن الذهبي يقدم إلينا في تاريخه تعليلاً لهذه الظاهرة ، هو أن المسيحي كان رافضياً^(١) . والروافض فرقة من غلاة الشيعة ، تغلو في حب علي بن أبي طالب ، وفي بغض أبي بكر وعثمان ومعاوية ومن إليهم ، وقد اختلف في سبب تسميتهم بالروافض . وهنا نلمس سر هذه الصداقة التي توثقت بين المؤرخ وأميره ، فقد كان الحاكم ، جرياً على سنة آبائه ، يصطفي غلاة الشيعة أبناء مذهب ، ويوليهم مناصب النفوذ والثقة ، وكان المسيحي يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته ، فقد كان عارفاً بعلوم عصره ، وكان راوية ومحدثاً ساحراً ، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذي يشغف به الحاكم بأمر الله ، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف^(٢) ، وهذه كلها عوامل وظروف تليق أكبر الضياء على طبيعة هذه الخطوة التي نالها المؤرخ في بلاط الحاكم بأمر الله .

وقد استطلت هذه الخطوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ ، ولا نعرف ماذا كانت صلة المسيحي بالبلاط الفاطمي في الأعوام التالية ، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة ، وانقطع للبحث والكتابة ، ووضع كثيراً من مؤلفاته في هذه الفترة ، التي استطلت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته في شهر ربيع الثاني سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) .

يقدم إلينا ابن خلكان ثبناً حافلاً من مصنفات المسيحي ، وفي هذا الثبوت القوى المتباين معاً ، ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحي التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف المسيحي في التاريخ والجغرافية والأدب والاجتماع والفلك ، كتباً بل موسوعات ضخمة . وإليك مفردات هذا الثبوت الذي يقدمه إلينا ابن خلكان : كتاب التاريخ الكبير في ثلاث عشرة ألف ورقة ، كتاب التلويع والتصريح في معاني الشعر وغيره في ألف ورقة ، كتاب الراح والارتياح في ألف وخمسة ورقة ، كتاب الفرق والشرق في ذكر من مات غرقاً وشرقاً في مائتي ورقة ، كتاب الطعام والإدام في ألف ورقة ،

(١) راجع السيوطي - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٥٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

كتاب درك البغية في وصف الأديار والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة ، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب المفاتيح والمناكحة في أصناف الجراح ألف ومثنا ورقة ، كتاب الأمثلة للدول المقبلة ، وهو في النجوم والحساب خمسمائة ورقة ، كتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم ثلاث آلاف ورقة ، كتاب جونة الماشطة في غرائب الأخبار والأشعار والنودار ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الشجن في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة ؛ كتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة ؛ وكتاب مختار الأغاني ومعانيها ؛ وغير ذلك من الكتب ؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسيحي بلغت نحو الثلاثين^(١) .

وهو تراث حافل ضخيم ينم عن غزارة مدهشة ، ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها في آداب هذا العصر ؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر ، ولا نكاد نظفر في عصرنا للمسيحي بأثر تام أو فصل تام . وقد اشتهر المسيحي بالأخص بتاريخه الكبير ، الذي يصف لنا محتوياته في مقدمته فيما يلي : « هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نبيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذي كتب فيه ، وأشعار الشعراء » . وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعلمين والأدباء والمتغزلين وغيرهم^(٢) ، وإذن فقد كان تاريخ المسيحي ، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته ، موسوعة قوية شاسعة ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذي يلقي بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول ، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله ، وشخصيته الغريبة القذة ، التي درسها المسيحي عن كثب ؛ ولكن الشئور القوية الممتعة التي وصلتنا منه على يد المقرئ وغيره من المؤرخين المتأخرين ، عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها وبذخها وبهاثها ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومبانيها في كثير من الإفاضة .

وقد لبث تاريخ المسيحي مستقى خصباً لمؤرخي مصر الإسلامية حتى عصر

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٣ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٣ .

متأخر جداً ؛ فالمقرئى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ؛ وكذلك يذكره حاجى خليفة فى « كشف الظنون » بما يأتى : « ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسيحى الحرانى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو كبير فى اثنى عشر مجلداً ؛ واختصره تقى الدين القاسى والذليل عليه لابن ميسر »^(١) ؛ وفى ذلك ما يدل بأن تاريخ المسيحى كان موجوداً حتى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) . بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثانى عشر (الثامن عشر) ؛ فقد ورد فى معجم مخطوطات الإسكوريال الذى وضعه الغزيرى اللبناى (Casiri) فى سنة ١٧٧٠ بأنه يوجد فى مكتبة الإسكوريال (أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحى (كذا) (Almisibi) (معجم الإسكوريال رقم ٥٣١ فقرة ٢))^(٢) ، وليس من شك فى أن المقصود هو تاريخ مصر للمسيحى ، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الإسكوريال الحديث الذى وضعه ديرنبورج ، ثم ليثى بروفسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد فى كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسيحى ، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر الإسكوريال فى القرن الثامن عشر ، قد ضاع شأن كثير من الآثار التى أثبت الغزيرى وجودها فى معجمه .

ولكننا وجدنا ضمن المخطوط رقم ٥٣٤ الغزيرى فصلاً من تاريخ المسيحى عنوانه « الجزء الأربعون من أخبار مصر وفصائلها وطرائقها وغرايبها وما بها من البقاع والآثار ، وسير من حل بها وحل غيرها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين » ويلى ذلك ، تصنيف الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المسيحى وأوله : بقية سنة أربع عشر وأربعائة . ويشمل هذا الفصل فى المجموعة المخطوطة المشار إليها من لوحة ١٣٢ إلى ٢٨٩ ، وذلك من قطع متوسط ، وفى اللوحة ١٣ سطرأ . وقد ذيلت اللوحة الختامية منه بما يأتى : تم الجزء

(١) رابع كشف الظنون (طبعة فليجل) ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis

الأربعون من أخبار مصر وفضائلها ... إلخ ، يتلوه إنشاء الله الجزء الحادى والأربعون سنة ستة عشر وأربعائة . ويحتوى هذا الفصل فضلاً عن الحوادث التاريخية ، على ذكر كثير من الشعراء المعاصرين وكثير من قصائدهم . وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابة هذا الفصل ، ولكن الفصل السابق له من نفس المجموعة وعنوانه : « كتاب التعازى » يحمل فى نهايته تاريخ الفراغ من كتابته وهو حادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة .

ويبدو من هذا الوصف المتقدم للمخطوطة المتقدمة ، أن المسيحي استمر فى تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٦ هـ ، وربما استمر إلى ما قبل وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ . هذا وقد كتب ابن ميسر المصرى المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ذيلًا لتاريخ المسيحي ، يبدأ فيه من حيث انتهى المسيحي ، ويسمى « أخبار مصر » ، وانتهى إلينا منه قسم يبدأ فى سنة ٤٣٩ هـ وينتهى سنة ٥٥٣ هـ ، وهذا الدليل هو الذى أشار إليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم^(١).

هذا وقد كان المسيحي شاعراً رقيقاً . وله شعر جيد نقل إلينا ابن خلكان شيئاً منه ، ومن قوله يرثى أم ولده :

ألا فى سبيل الله قلب تقطعا	وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده	فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتنى للموت قد مت قبلها	ولإفليت الموت أذهبنسا معا

وقوله من قصيدة يرثى بها والده :

بأبى فجعت فأبى ثكل مثله	ثكل الأبوة فى الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الردى	أو يعسريه من الزمان هموم

وقد رأينا أن المسيحي كتب فيما كتب كتاب « التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره » مما يدل على أنه كان راسخ القدم فى فنون الشعر رسوخه فى النثر .

(١) وقد نشر هذا القسم المستشرق الفرنسى هنرى ماسيه (راجع مقدمته الفرنسية فى شرح الصلة بين الكتابين) .

الفصل الخامس

أبو عبد الله القضاعى

فقيه ومؤرخ وسياسى

توفى سنة ٤٥٤ هـ : ١٠٦٣ م

رأينا فيما تقدم أن واضعى الأسس الأولى للرواية المصرية ، هم ابن عبدالحكم المصرى ، وأبو عمر الكندى ، والحسن ابن زولاى . وقد أخذت هذه المدرسة ، التى اعتمدت فى معظم تراثها على الرواية المسندة ، تتحول منذ القرن الرابع الهجرى شيئاً فشيئاً إلى نوع من المنهج التاريخى ، الذى يتميز بخصائص الاستيعاب والحوليات ، وكان الأمير عز الملك المسبحى فى مقدمة أساتذة هذه المدرسة التاريخية الجديدة .

والآن نستأنف الحديث على ضوء هذا التحول ، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية المتطورة ، هو أبو عبد الله القضاعى ، وهو مؤرخ وفقيه وسياسى معاً ، عاش فى فترة من أدق الفترات التى جازتها مصر الإسلامية ، وشهد الدولة الفاطمية فى ذروة القوة والعظمة ، ثم شهدتها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بدهابها ، وشهد محنة من أشنع المحن التى عانتها مصر الإسلامية ، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته فى طلب العون والغوث ؛ وكتب عن مصر الإسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة ، لم تصل للأسف إلينا ، ولكن ما انتهى إلينا منها عن يد المؤرخين اللاحقين يدل على أهميتها وقيمتها .

وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى ؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فى عصر الحاكم بأمر الله ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الشافعى ، وبرع فيه ، وبرز فى التاريخ والأدب ؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء ، ولبت يليه حيناً بالنبابة كلما خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أو العزل ، ثم تولى التوقيع (أو العلامة)

لأبي القاسم الجرجرائي المعروف بالأقطع^(١) وزير الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده . ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاء في عدة وظائف ومهام رسمية ؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصرفه للأمور . وتجول القضاء ودرس في بغداد ومكة والشام ، ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ ، ومجى السياسة في القصور المختلفة ، وتبوأ في البلاط المصري ذروة الثقة والنفوذ . ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاء بمهمة سياسية دقيقة . ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التي توالى على مصر في عهد المستنصر بالله ، لبست تنافقاً حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط ؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة . وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر الإسلامية « بالشدة العظمى » . وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات ، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة ، فأرسل المستنصر بالله في سنة ٤٤٦ هـ إلى إمبراطور قسطنطينية ، وهو يومئذ قسطنطين السابع ، أن يمدّه بالغلل والمؤن ؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حلودها الشرقية وعاثوا في آسيا الصغرى ؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر ، التي كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر ؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر ، وتم الاتفاق على أن تُرسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر ، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال ، تقدّرها الرواية الإسلامية بأربعائة ألف أردب^(٢) . ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وخلفته على عرش قسطنطينية الإمبراطورة تيودورا ، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباه المستنصر ، ومنها أن يمدّها بالجند لمحاربة السلاجقة ؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين ، وسير المستنصر جيوشه إلى الحلود الشمالية ، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذي بدء . ولكن الأسطول البيزنطي غزا مياه الشام ، وهزم المصريين في عدة مواقع ؛ فكف المستنصر من متابعة الحرب ، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة ،

(١) سمى كذلك لأنه كان أقطع اليدين ، قطعاً بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ .

(٢) خطط المقرئى . بولاق . ج ١ ص ٣٢٥ .

وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح ، وتنظيم العلائق بين الفريقين .

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة ، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثفته وتقديره . فقصده القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام ؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الإمبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الإمبراطورة تيودورا . وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما فى كنيسة القيامة ^(١) » ؛ وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغربك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ؛ فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم ؛ فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة ؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم ^(٢) . بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعى إليها لم يكن الإمبراطورة تيودورا ، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الإمبراطور ميخائيل السادس (ستراتيوتيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ فقد نقل المقرئى فى كتابه « المقتنى » فى ترجمة القضاعى ما يأتى : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى ، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى يقول : لما دخلت على ملك الروم إليون ، رسولا من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى ، ففعل ؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ؛ فقلت أنا والله مستكف ؛ فقال لى لم أكلت الفتات ؟ فقلت : بلغنى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقط ما سقط من المائدة برئ من الحرق والفقر ؛

(١) هى كنيسة بيت المقدس العظمى التى تعرف عند النصارى « بالقبر المقدس » أو قبر المسيح .

(٢) ابن ميسر فى « أخبار مصر » فى حوادث سنة ٤٧٧ هـ - وخطط المقرئى ج ١ ص ٣٣٥ .

فأمر الخازن في الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنيت وريت من الحمق»^(١) ؛ وذكر المقرئ في الخطوط أيضاً ما يؤيد هذه الرواية^(٢) . على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعى وصل إلى قسطنطينية في أواخر عهد الإمبراطورة تيودورا ؛ واستمر في أداء مهمته بعد وفاتها لدى الإمبراطور ميخائيل السادس ؛ ومكث حيناً بقسطنطينية ؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عني هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها^(٣) . أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الإسلامية تحديداً واضحاً ، ولكننا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث ، أنها كانت تقوم على السعى في إقناع البلاط البيزنطى بالتخالف مع مصر ضد السلاجقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، تنفيذاً للعهد الذى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر ، وتوفى قبل الوفاء بها .

ولكن القضاعى أخفق في مهمته . ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرل بك ؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر . فرد المستنصر بالقبض على أحبار قزاقية ومصادرة نفائسها ، واضطربت العلاقات بين مصر وبيزنطية كرة أخرى ؛ وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل . ونستطيع أن نضع تاريخ عودته في سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين في رحلته . ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام ، في ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤ (١٠٦٣ م) .

كتب القضاعى عدة مصنفات في الفقه والتاريخ ، منها كتاب « الشهاب » وكتاب « مناقب الإمام الشافعى وأخباره » وكتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار في ذكر الخطوط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ،

(١) نقل ترجمة القضاعى هذه من القطعة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « المغنى » للمستشرق كينج في مقدمته الجزء الذي نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للكندى (ص ٢٢ و ٢٣) .

(٢) راجع الخطوط ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكي في ترجمة القضاعى - ج ٣ ص ٦٣ .

وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو « مسند الصحاب » وهما في الحديث ، وكلاهما بمكتبة الإسكوريال^(١) ؛ وانتهى إلينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته « موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء ، وولايات الملوك والخلفاء ، إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية^(٢) ، ولكننا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاى » وهو الذى يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما إسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار إليها .

بيد أن أهم آثار القضاى هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط ، وهو المسمى « المختار في ذكر الخطط والآثار » . ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت إلينا منه ، على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندى ، والمقرئى ، وابن تغرى بردى ، والسيوطى ، شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاى في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التى نزلت بمصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها وصروحها ، وهى حقيقة ينوه بها المقرئى في مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاى « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أى القضاى) في سنة سبع وخمسين وأربعمائة^(٣) قبل سنَى الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلعب وموضع بلقع »^(٤) والظاهر مما نُقل إلينا من كتاب القضاى أنه أثر ضخم ، تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الإسلامى بإفاضة ، وأضاف إليه ما انتهت إليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس . والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار »

(١) راجع فهرس مخطوطات الإسكوريال للأستاذ لى بروفنسال (ج ٢ رقم ٧٣٦ و ٧٦٧ كتاب الشهاب) ورقم ٧٥٢ (مسند الشهاب) .

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطات رقم (١٧٧٩ تاريخ) .

(٣) وهى رواية خاطئة ، لأن القضاى توفى سنة ٤٤٤ هـ كما قدمنا

(٤) الخطط - ج ١ ص ٥ .

إنما هو المنعوت « بتاريخ القضاة » لأن ما نقل إلينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة ، ولا وجود له في الموجز المسمى « عيون المعارف » .
وقد كان القضاة ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الإسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ، وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصرى حتى أواخر القرن التاسع ، حيث نرى السيوطى ينقل فى حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاة مكتوباً بخطه (١) ، وفى ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت « بتاريخ القضاة » إنما هو كتاب « المختار فى الخطط والآثار » ، ومن بواعث الأسف أن يجتنب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصرى ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمى الأول ، الذى احتجت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتى غدت كالحلقة المفقودة فى مصادر تاريخ مصر الإسلامية (٢) .

(١) حسن الهاضرة - ج ١ ص ٧٠ .

(٢) راجع فى ترجمة القضاة : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ - والسبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ - والمقرئى فى المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كينج ص ٢٢ و ٢٣) وفى الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٥٥ - والسيوطى فى حسن الهاضرة ج ١ ص ١٨٨ - وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنق ٤٤٧ و ٤٥٤ .

الكتاب الثاني
المؤرخون المصريون
في العصر المملوكي حتى العصر الحديث

الفصل الأول

شهاب الدين النويرى

وموسوعته نهاية الأرب

حوالى (٦٦٠ - ٧٣٢ هـ) : (١٢٦٢ - ١٣٣٢ م)

كان النويرى الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل رأس هذه المدرسة ، وأول هذا الثبت من كتاب الموسوعات المصرية . وهو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد المعروف بالنويرى ، ولم نعر على تاريخ مولده . ولكن الظاهر أنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ هـ وتوفى سنة ٧٣٢ هـ أو ٧٣٣ هـ^(١) . ودرس النويرى بالقاهرة وأزهرها ، والظاهر أنه تخصص نوعاً فى دراسة الحديث والتاريخ والأدب ، واشتغل فى شبابه مدى حين بنسخ الكتب الجليلة ، وكان أتيق الخط ، يكتب النسخة من صحيح البخارى ويبيعها بألف دينار^(٢) . وظهر النويرى بكفائاته الأدبية واتصل ببلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية (٦٩٣ - ٧٠٨ هـ) ثم الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) ونال عطفه وحظوته ، وتقلب فى عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً كفايته وتفوقه . ويعدد النويرى لنا بعض هذه الوظائف فى مقدمته . فيقول إنه مارس الكتابة وبسط الخرائط ، وتولى أعمال الحسبة ، والمقاييسات ، والمحاسبة والتحصيلات ، والنظر على الغلات والاعتصار ، والعلوفات والمبيعات وغيرها^(٣) . ويقول لنا ابن حجر فى « الدرر الكامنة » إن الملك الناصر وكل النويرى فى بعض أموره ، وإنه باشر نظر الجيش

(١) يقول بالرواية الأولى ابن تفرى بردى فى المنهل الساقى (مخطوط) . ويقول بالثانية ابن حجر فى « الدرر الكامنة » (طبعة حيدر آباد ١٣٢٦ هـ) (ج ١ ص ١٩٧) ، ويقول السيوطى إنه توفى سنة ٧٣٠ هـ ، وهو خطأ ظاهر لأن النويرى يصل فى تاريخه إلى سنة ٧٣١ هـ حسبما تبين بعد .

(٢) ابن حجر فى الدرر الكامنة .

(٣) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ج ١ ص ٣ .

بطرابلس وهى وظيفة عسكرية هامة . ولا ريب أن هذا المزج والتباين فى نواحي الحياة الأدبية والعملية معاً كان له أثر كبير فى تكوين النورى وتوسيع معارفه العامة وثقافته النظامية والإدارية والمالية ، التى يبرهن على متانتها فى مواضع كثيرة من موسوعته .

ثم عاف النورى هذه الحياة الإدارية الجافة ، فنبذها وتطلع إلى الأدب والانقطاع له . وعكف على الدرس والمطالعة الواسعة حتى ارتوى من مناهلها . وخطرت له عندئذ فكرة لإخراج موسوعته الضخمة . ويحدثنا النورى فى مقدمته عن نشأة مشروعه فيقول : « فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل لى مركبها وصفا لى مشربها ، آثرت أن أجرد منها كتاباً أستأنس به وأرجع إليه ، وأعول فيما يعرض لى من المهمات عليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب بينة التقسيم والتبويب » . ونستطيع أن نضع الفترة التى شغلها النورى بالدرس والتنقيب ما بين سنة ٧١٠ و ٧٢٠ هـ . والظاهر أنه قطع حياته فى الوظائف العامة فى الأعوام العشرة التى سبقت هذه الفترة ، أعنى فى عهد سلطنة الملك الناصر الثانية ، ثم انقطع إلى البحث والدرس بعد ذلك . وعلى أى حال فقد أخرج لنا النورى أول جزء من موسوعته الكبرى فى ذى القعدة سنة ٧٢١ هـ حسبما يقرر ذلك فى خاتمة هذا الجزء^(١) . ولكن يبدو أيضاً من نظام هذا المؤلف الضخم وتبويبه ، أن النورى قد وضع تصميمه وهيكله جميعاً قبل أن يبدأ فى كتابته ، وأنه استوعب من قبل جميع مواد ومراجعته . ومن المحقق أن النورى اعتمد فى مجهوده على مادة غزيرة من المراجع فى جميع فنون الأدب العربى . ذلك أن ما يقدمه إلينا النورى فى ثوب « كتاب يستأنس به ويرجع إليه » إنما هو موسوعة ضخمة جمعت طائفة عظيمة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية الحافلة ، التى لم يجمعها من قبل ولا من بعد كتاب فى الأدب العربى .

والآن لى ماذا تحتويه تلك الموسوعة المدهشة ، التى شغلت حياة أدبية حافلة بأسرها . ويسمى النورى موسوعته : « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وهو

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٠ المنقولة عن إحدى نسخ استانبول .

بذلك يعطيها طابعها الأدبي . فالنورى لم يعالج فى موسوعته إلا ما كان « الأدب » يسيغه ، ولكن بأوسع المعانى . فالأدب المحض ، والتاريخ والجغرافية ، والسياسة الملكية ، والبيان والبديع ، والأمثال والأوصاف ، مما يفيض فيه النورى ، ولكنه لا يتناول الكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب والرياضة والكيمياء وغيرها ، وإذا كان يفيض فى الكلام على فروع يطبعها الطابع العلمى مثل أنواع الحيوان والنبات ، فإنه يعالجها من الناحية الوصفية والأدبية أيضاً . وتشغل موسوعة « نهاية الأرب » واحداً وثلاثين مجلداً ضخماً كل مجلد يشغل جزئين . ونستطيع أن نتصور من تأمل هذا القدر ، أى مجهود شاق اضطلع به النورى واستطاع أن يخرج منه بمفرده .

وقد وضع النورى لموسوعته تصميماً روائياً مذهشاً يقوم على خمسة « فنون » ، وكل فن ينقسم إلى خمسة أقسام ، وكل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب . وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين : الأولى تشمل من الفن الأول إلى الفن الرابع ، وتشغل عشرة مجلدات من الطبعة التى أصدرتها دار الكتب ، وتشمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط ، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً . وهذا بيان الفنون الأربعة الأولى :

الأول — فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والعوالم السفلية . وهذا القسم جغرافى ويتناول الكلام على خلق السماء والملائكة والكواكب ، والظواهر الطبيعية ، من سحب ومطر ورعد وبرق وغيرها ، ثم الليالى والأيام والشهور والأعياد والمواسم ، ثم الكلام عن الأرض والجبال والبحار والأنهر ، وطبائع البلاد والسكان والمباني والآثار وغيرها .

الثانى — وعنوانه الإنسان وما يتعلق به — يتناول الكلام على الإنسان وخلقته وأعضائه ، وعن النساء وخلقه وما ورد فيهن من المديح والغزل ، ثم الكلام على الصور الوصفية من مدح وهجاء ومجون ، ومن النوادر والملح ، والكلام عن القيان والندماء والسقا ، وعن الغناء وأخبار المغنيين . ويتبع هذا الفن أيضاً الكلام على الملك والسياسة الملكية ، وشروط الإمامة . والخلال التى يجب أن

(١) مرجعنا فى هذا الوصف نسخة دار الكتب الفتوغرافية المنقولة عن إحدى نسخ استانبول .

يتحلى بها الملوك والوزراء والقادة وغيرهم ، ثم القضاء والحسبة وغيرهما ، من الوظائف العامة ، وعن الكتابة وشروطها وما يتعلق بها من علم المعاني ، والبيان والبديع .

الثالث — وعنوانه الحيوان الصامت — يتناول الكلام على الحيوانات الضارية والأنيسة ، وأوصافها وعاداتها ، ثم على الهوام ، ثم الطيور وأنواعها من برية وداجنة ، ثم الأسماك والحشرات بأنواعها .

الرابع — النبات ، وفيه يتحدث المؤلف عن الشجر والنبات وأنواعها وثمارها ، وعن الفواكه والأزهار ، ثم أنواع الطيب والعطور وكل ما يتعلق بها .

وفي الفن الخامس وهو التاريخ ينقلب النورى مؤرخاً عظيماً . والواقع أن هذا الفن الذى يشمل واحداً وعشرين مجلداً بأكملها ، هو قوام هذه الموسوعة العظيمة ، وقد وصف المعاصرون بحق « نهاية الأرب » بأنه « تاريخ » ، ووضع النورى دائماً بين المؤرخين . ولم يسبق النورى من المؤرخين المسلمين إلى وضع موسوعة تاريخية بهذه الضخامة سوى قلائل جداً ، مثل ابن عساكر والذهبي وابن الأثير . ويرجع النورى فى كتابة التاريخ إلى أصل الخليفة ، ويخصص له ولأخبار الأنبياء نحو مجلدين ، ثم يبدأ بالكلام على تاريخ اليهود وأنبياء اليهودية ، ويخص تاريخ سليمان وقصصه بإفاضة ممتعة ، ثم يتناول تاريخ المسيح ونشأة النصرانية . وبعده يبدأ حديثه عن التاريخ القديم بالإسكندر المقدوني وتاريخ مصر الغابرة ، ثم تاريخ الفرس القديم ، ومن المحقق أن النورى لم يخرج فى ذلك عما كتبه الأوائل من الأساطير والقصص المتداولة ، ولكنه يبدى فى استيعابها جلداً مدهشاً . ومنذ أواخر المجلد الثالث عشر يبدأ النورى تاريخ العرب قبل الإسلام وأيام العرب ووقائعها ، ثم تاريخ الإسلام والنبي العربى ، أو تاريخ الملة الإسلامية كما يسميه ، منذ الرسالة النبوية ، وأخبار النبي ، وخصومة قریش ثم الغزوات النبوية وأخبار الوفود ، وأخبار الصحابة والموالى ، وما أثر النبي وآثاره . ويشغل هذا القسم وحده ثلاثة مجلدات كبيرة . ويلي ذلك تاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ على وخصومته مع معاوية بإسهاب . ثم أخبار الدول الإسلامية مبتدئاً بالدولة الأموية منذ المجلد الثامن عشر ، وتشغل أخبار الدولة

الأموية مجلدين كبيرين ، ثم تليها الدولة العباسية منذ قيامها إلى خلافة المستظهر وتشغل أيضاً نحو مجلدين . ويخصص النويرى لتاريخ الدولة الأموية بالأندلس قسماً كبيراً (هو الجزء الثانى من المجلد الحادى والعشرين) . وبعدهذا يأتي تاريخ إفريقية منذ فتحها حتى نهاية الأغالة ، والدول البربرية المختلفة حتى المرابطين والموحدين . ويبدى النويرى اهتماماً خاصاً بتاريخ الشيعة منذ أيام على وبنيه ، ويتحدث عن مختلف الدعوات الشيعية في فارس وخراسان ، وعن ثورة القرامطة وتاريخهم بإسهاب (المجلد الثالث والعشرون) ثم تاريخ الأمم الإسلامية فيما وراء النهرين وتاريخ السلاجقة ، وما تفرع من دويلاتهم في الجزيرة وآسيا الصغرى والشام (المجلدان ٢٤ و ٢٥) ثم تاريخ الدولة الفاطمية (مجلد ٢٦) والدولة الأيوبية (مجلد ٢٧) وتاريخ الشام والصليبيين (مجلد ٢٩) ثم تاريخ مصر منذ دول المماليك مرتباً بالسنين حتى سنة ٧٣١ هـ . وهذا هو ختام الموسوعة حسبما انتهت إلينا . والظاهر أن النويرى كان يقيد حوادث عصره تبعاً ، وأنه كان ينوى متابعة الكتابة ، لولا أن عاجله الموت ، بدليل ما ورد في ختام المجلد الحادى والثلاثين من الإشارة إلى المجلد القادم وأوله حوادث ٧٣٢ ، وقد توفى النويرى في رمضان من هذا العام أو رمضان من العام التالى أى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) .

هذه هي محتويات نهاية الأرب ، وفي جمعها في صعيد واحد ، وفي تنظيمها على هذا النحو ، ما يشهد بكثير من البراعة والجلد . ومن المحقق أن مجهود النويرى يقوم بالأخص على النقل من المراجع والأسفار المتقدمة . ولكن هذا المجهود يطبعه فن خاص لا شك في قيمته ونفاسته . ومن المحقق أيضاً أن موسوعة النويرى التاريخية تنبؤاً بين المراجع التاريخية الكبرى مقاماً رفيعاً ، وإن لم يظهر منها حتى اليوم سوى القليل . وقد اهتم البحث الأوربي منذ بعيد بمجهود النويرى التاريخي ونشرت بعض أبوابه ، وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية ، وبالأخص تاريخ صقلية وإفريقية .

ومن الواضح أن التاريخ يشغل في موسوعة النويرى ، أكبر أقسامها ، فإن الفنون الأربعة الأولى منها لا تشغل فيها سوى ثلاثة عشر مجلداً من واحد وثلاثين مجلداً من المخطوط (وهى تقابل في المطبوع اثني عشر مجلداً) . فإذا راعينا هذه الحقيقة المادية ، وراعينا في نفس الوقت ، ما يبدو في تقاسيم النويرى للقسم

التاريخي في موسوعته ، من براعته في التنظيم والتبويب ، ثم من سلاسته في العرض التاريخي ، فإنه يحق لنا أن نعتبر النويري مؤرخاً قبل كل شيء . وإذا كان النويري لم يخص مصر بمجهوده التاريخي ، على نحو ما فعل المقرئزي وابن تغري بردي ، فإنه يفرد لتاريخها حيزاً كبيراً يشغل أربعة مجلدات ، أولها يشمل تاريخ الدولة الفاطمية ، والثاني يشمل تاريخ الدولة الأيوبية ، والثالث يشمل تاريخ الشام والصليبيين ، والرابع يشمل تاريخ الدول المملوكية حتى عصره ، مرتباً بحسب السنين . وهو يورد لنا خلال سرده ، كثيراً من الروايات التي لم ترد في مصادر أخرى .

وقد انتفع البحث الحديث بمجهود النويري التاريخي ، منذ عصر مبكر ، فترجمت منه منذ القرن الثامن عشر ، فصول إلى اللاتينية والفرنسية حسباً قدمنا ، واستقى من روايته مؤرخون عظام مثل جيبون . ونشر القسم المتعلق بتاريخ المرابطين والموحدين في نهاية الأرب ، المستشرق الإسباني جيسار ريميرو منذ سنة ١٩١٩ .^(١) وبدأت دار الكتب المصرية بنشر نهاية الأرب كاملاً منذ سنة ١٩٢٩ ، وصدر منه إلى اليوم ، أعني خلال أربعين عاماً ثمانية عشر مجلداً ، صدر آخرها في سنة ١٩٥٥ . وقد بدئ بقسم التاريخ ، أو الفن الخامس في هذه الطبعة منذ المجلد الثالث عشر ، واستغرق تاريخ أصل الخليفة ، وأخبار الأنبياء الأقدمين ، وتاريخ النصرانية ، والتاريخ القديم ، ثم تاريخ العرب قبل الإسلام وأيام العرب ووقائعها ، وتاريخ الملة الإسلامية حتى أخبار الوفود على الرسول . استغرق ذلك حتى اليوم خمسة مجلدات حتى المجلد الثامن عشر ، وما زال على دار الكتب أن تخرج لنا بقية هذه الموسوعة العظيمة ، وهي قد تستغرق خمسة عشر مجلداً أخرى . ورجاؤنا أن يتم ذلك بأسرع ما استطاع ، لكي تأخذ هذه الموسوعة المصرية العظيمة مكانتها الحقة ، بين المراجع الجلييلة المتداولة في ميدان الأدب العربي والتاريخ الإسلامي .

(١) نشر هذا القسم ضمن أعداد مجلة *Revista del Centro de Estudios Historicos* de Granada y su Reino (Tomo VIII—ano 1919)

الفضل الثاني

ابن فضل الله العمرى

وموسوعته مسالك الأبصار

(٧٠٠ - ٧٤٩ هـ) : (١٣٠٠ - ١٣٤٨ م)

فى سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم ، هو كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، وذلك بإشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكى باشا وبتمحيقه . ثم وقف مشروع إخراج الكتاب فى مستهله لأسباب نجعلها ، وقد وعدت دار الكتب غير مرة بأنها سوف تعمل على استئناف العمل فى إخراج « مسالك الأبصار » ولكنها لم تفعل حتى اليوم شيئاً فى ذلك السبيل .

وهو أمر يدعو إلى أشد الأسف . ذلك أن « مسالك الأبصار » من الآثار الإسلامية الضخمة ، التى تمتاز بغزارة مادتها ، وتنوع موضوعاتها ونفاضة معلوماتها ، وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة ، التى كتبت فى عصور متقاربة ، وامتازت على جميع الآثار الإسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها ، وهى : نهاية الأرب للنورى ، ومسالك الأبصار ، وصبح الأعشى للقلقشندي . وقد أخرجت لنا دار الكتب « صبح الأعشى » كاملاً فى أربعة عشر مجلداً ، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو نصفه فى ثمانية عشر مجلداً ، وما زالت ماضية فى إخراجها ، وبقي عليها أن تستأنف العمل فى ثلاثة هذه الموسوعات الكبرى ، ونعنى « مسالك الأبصار » .

كان القرن الثامن الهجرى فى مصر ، عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة ؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة فى الأدب العربى مصرية محضة ، فقد بلغت ذروتها على الأقل فى مصر ، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها ، وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النورى حسباً قدمنا هو أول كتاب الموسوعات ، ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ - ٧٣٢ هـ) ، وقد

وضع لنا موسوعته الفريدة « نهاية الأرب في فنون الأدب » في أوائل القرن الثامن الهجرى في أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً ، فجاءت أثراً ضخماً ، لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل ، في غزارة المادة وتنوع الموضوعات ، وطرافة الأوصاف ؛ ثم تلاه العمري فوضع موسوعة « مسالك الأبصار » ؛ وجاء القلقشندي ليختتم هذا الثبت في أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته « صبح الأعشى » .

كان العمري دمشقي المولد ، ولكن مصري التربية والموطن والتكوين ؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى ، وينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن ثم كان تلقيه بالعمري . ولد في ثالث شوال سنة سبعائة (١٣٠٠ م) ، وتلقى تربيته الأولى في دمشق ؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها ، واتخذها وطناً وموطئاً ، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة ، وبرع بالأخص في الكتابة والإنشاء ، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الإنشاء والرسائل ، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوصاف البديعة ، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور .

وقد كان ديوان الإنشاء من أهم الدواوين في الدول الإسلامية ، ولا سيما في الدول المصرية . ويمكننا أن نقارنه في أعماله واختصاصاته بوزارة الخارجية الحديثة . ذلك أنه كان إلى جانب عنايته بأمر المراسيم السلطانية ، مجمع العلاقات والمحادثات السلطانية ، ومرجع العلاقات والمكاتبات الدبلوماسية . وفي هذا الديوان نشأت نظم « البروتوكول » وتقاليده في الدول الإسلامية ، وزادت أهميته ، واتسعت اختصاصاته ، منذ الحروب الصليبية ، وبلغت هذه النظم والتقاليد في دول السلاطين المصرية أوج الدقة والفخامة ، وقد كان للعمري في تجديددها وصقلها دور هام سوف نتحدث عنه فيما بعد .

ولبت العمري إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة ، رجل البحث والدرس ؛ وعنى عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك وطبائعها وخواصها ؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها ، ولا سيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين . ودرس الفلك أيضاً ، ولم يكتف

في درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة ، ولكنه قرن الدرس النظري بنوع من الدراسة العملية ، فتجول في أنحاء الشام والأناضول والحجاز ، وبعض الممالك الإسلامية الأخرى ، حسبما يبدو ذلك في أكثر من موضع من سياق موسوعته ، وحسبما يشير إجمالاً في مقدمته^(١) . واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم تتح له زيارتها ، بأقوال العارفين والثقاة ، ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة ، حتى اجتمعت له من ذلك مادة غزيرة تمتاز في كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها .

وقد تبوأ العمري إمامة البلاغة والبيان والترسل في عصره ، حتى أن الصفدي معاصره وصديقه يفضله في هذا الفن على القاضي الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية في تلك العبارات : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعاني من ستر رقيق ، ويفوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضي الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهرأً ينجل الروض الذي يأكره الحيا مزهراً ، صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهي سماعات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدي بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أي العمري ، كان آية في النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن چنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فإنه فيها أمام وقته »^(٢) .

ولأقوال الصفدي ، وهو إمام النقد في عصره ، قيمتها في التنويه بخلال

(١) راجع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » (طبع دار الكتب) ص ٢ .

(٢) راجع ترجمة العمري في فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعاً من معجم الصفدي « أعيان النصر وأعوان العصر » وهو ما يزال مخطوطاً .

العمري الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمري نفسه ما زال خير شاهد بعقريته ، ولا سيما في فن الإنشاء والزسل ، وقد كان العمري فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أحبابنا والعذر منا إليكمو إذا ما شغلنا بالنوى أن نودعا
ابشكوا شوقاً أبارى ببعضه حمام العشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبي مثله أقضى به الليل التمام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضي ولا أنه يلقي محباً مفجعاً
ولكنه شوق على القرب والنوى أغص الأماقي مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب في العرساعة كمن فارق الأحباب في العمر أجمعا

وقطع العمري حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفي سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين .

ترك لنا العمري تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صباية المشتاق » وهو في المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دعة الباكي » و « يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر في فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل في الشتاء و « النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود إليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير^(١).

وقد انتهى إلينا من هذا التراث أهمية وأنفسه ؛ فلدينا أولاً كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمري وأضخمها ؛ وهو في الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً^(٢). ويقول لنا العمري إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر

(١) فوات الوفيات - ج ١ ص ٨ .

(٢) في دار الكتب نسخة فتوغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٥٦٨ تاريخ) وتقع في ٤٣ مجلداً أرقماً ، والفضل يرجع في استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكي باشا .

الأيام والليالي» وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ، وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر^(١) ، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ .

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه العظيم النويرى صاحب موسوعة « نهاية الأرب » وهى أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحرف فى تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « فى الأرض » والثانى فى « سكان الأرض » . ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه برأً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها ، وما تحتويه من أنهار وجبال ، ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة ، وما فيها من المدن والجزائر ، وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والأعراض الطبيعية ؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ ، مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ، ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحيش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات إضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدى العمرى هنا دقة فى البحث والتحري ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره ، كلها شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروى . ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره ، وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر ، وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات .

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم ، وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان

(١) راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٦ .

والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يبحى الكلام على التاريخ ، وهو قسبان ، تاريخ الدول التى كانت قبل الإسلام ، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الإسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣ هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام .

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبد متفرقة ، منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » نشره المستشرق أمارى (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ، ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الإيطالية ، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وينسب العمرى ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالى يدعى « بلبان ابلجنوى » عرفه فى بعض رحلاته واستقى منه معلوماته ، وهى معلومات فى منتهى الدقة ، ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الإيطالية فى ذلك العصر^(١) . وعنى العلامة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف إفريقيا والأندلس ، ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول .

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة ، هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الإنشاء والرسائل ، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة ، سواء فى توجيه الرسائل والمحادثات أو صيغتها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الإنشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلاقتى سياسية أو تجارية ، وإذا فقد كان اختصاصه يتناول

(١) وقد نشرنا هذا الفصل فى كتابنا « مصر الإسلامية وتاريخ الخطوط المصرية » (الطبعة الثانية) ص ١٥٨ - ١٦٣ .

ما يسمى اليوم في لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهى عبارة عن الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها الدولة في تنظيم علائقها الخارجية ، سواء في إجراء المفاوضات السياسية ، أو في عقد المعاهدات ، أو مخاطبة الدول الأخرى ، أو استقبال ممثليها ومعاملتهم ، أو في تحرير المكاتبات الدبلوماسية ، وكانت مجموعة الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها دول السلاطين المصرية في هذا الميدان تعرف « بالمصطلح الشريف » أو هى تكون جزءاً منه لأن « المصطلح الشريف » ، كان يشتمل أيضاً ، فضلاً عن رسوم العهود والمفاوضات ورتب المكاتبات السلطانية الداخلية والخارجية ، على إجراءات إصدار المنشائر والتوقيعات . وإذا فالمصطلح الشريف في الدول الإسلامية ، بقابل في عصرنا نظم البروتوكول تقريباً ، ولو أنه أوسع مدى . وكان لهذه النظم في البلاط المصرى في العصور الوسطى ، أصول وتقاليد راسخة ، تثير الدهشة ، والإعجاب معاً ، بدقتها وروعة تنسيقها . ويكفى أن نستعرض طرفاً من المحادثات والمراسلات الدبلوماسية التى كانت تجرى بين البلاط المصرى ، وبين مختلف الدول النصرانية^(١) ، لنرى إلى أى حد كان البلاط المصرى عليماً بنظم هذه الدول ، وتقلباتها السياسية ، وسير علائقها الدبلوماسية . وكانت هذه الدول عديدة ، منذ الدولة البيزنطية إلى الدول والإمارات الإيطالية ، ثم الدول الغربية الأخرى التى ازدادت مصر بها معرفة واتصالاً منذ الحروب الصليبية ، مثل فرنسا وألمانيا وإنجلترا وأرجون . وكان البلاط المصرى يتتبع شئون هذه الدول وأحوالها بمنتهى العناية ، ولها في قلم «المصطلح الشريف» بديوان الإنشاء ، ملفات ووثائق خاصة . وقد كان للعمري أكبر الفضل في تجديد هذه النظم أيام توليه ديوان الإنشاء ، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق والدقة ، وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمري كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »^(٢) وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفويض والمراسيم والمنشائر ، وكذلك نماذج عديدة من الوثائق

(١) أورد لنا القلقشندي في موسوعته « صبح الأعشى » عشرات من هذه الرسائل التى تلقىها مصر من رؤساء الدول النصرانية ، والتي بعثت بها إليهم ، ويراجع في ذلك بالأخص الجزء الثامن من صبح الأعشى .

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال تحفظ برقم ١٦٣٩ الغزيرى ، وهى مكتوبة —

والمكاتبات الرسمية والدبلوماسية ؛ ثم يتحدث عن أوضاع المالك وتقاسيمها الإدارية ، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلات البحرية . ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف في مصر الإسلامية ؛ ويعتبره القلقشندي صاحب « صبح الأعشى » أنفوس الكتب المصنفة في هذا الباب^(١) . وقد انتفع به القلقشندي في موسوعته أعظم انتفاع ، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل ، والمكاتبات السلطانية التي ديجت بقلم العمرى ، في ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمرى من المواهب الإنشائية السامية .
وللعمرى آثار ورسائل أخرى كما قدمنا ، ولكن معظمها لم يصل إلينا ، وما يزال بعضها بعيداً عن التداول في بعض المكتبات الأوربية . على أن « مسالك الأبصار » يبقئ دائماً أعظم آثاره ؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الكتب المصرية لإخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضئ أعوام قلائل حتى تضعه كاملاً بين أبدي الباحثين^(٢) .

« بخط نسخ جميل يحيل إل الفارسي ، ومذهبة الحوافي وتقع في ٢٤١ لوحة مزدوجة من القطع الصغير . وقد طبع « التعريف » مراراً بمدينة القاهرة .

(١) راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٧ .

(٢) نشرت من مسالك الأبصار - غير الجزء الأول - بعض أجزاء صغيرة ، من ذلك القسم الخاص بوصف إفريقية والأندلس نشر بعناية العلامة التونسي الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بعنوان « وصف إفريقية والأندلس في أواسط القرن الثامن للهجرة » ، ونشر أحد المستشرقين الألمان ما ورد فيه خاصاً « بوصف الأناضول » .

الفصل الثالث

أبو العباس القلقشندي

وموسوعته صبح الأعشى

(٧٥٦ - ٨٢١ هـ) : (١٣٥٥ - ١٤١٨ م)

بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين . ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب ، وفيهما تنص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضة الفكرية ، وأزهرها الثالث ، وبلاطها المستنير ، حامى الآداب والعلوم . ويمتاز القرن الثامن في مصر ، بظاهرة فكرية خاصة ، هي أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى . فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الذين توفروا على جمع أشات العلوم والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل ، وكتبت فيه عدة موسوعات جليلة ، ما زالت تتبوأ مقامها القذ في تراث الأدب العربي ، وأقطاب هذه الحركة ، ثلاثة من أكابر العلماء والكتاب المصريين ، هم أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) صاحب كتاب « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، وأحمد بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، صاحب كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، وأبو العباس القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) صاحب كتاب « صبح الأعشى في كتابة الإنشاء »^(١) .

ولأنه لمن التجاوز والمتواضع أن نسمى هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها ، ومن الصعب أن نصف مؤلفيها بأنهم كتاب أو أدباء من نوع معين ، فهم في الواقع علماء موسوعات (إنسيكلوبيديون) ، امتازوا بالتمكن والتوسع في كثير من علوم عصرهم ، واستطاعوا بكثير من الجهد والجلد ، أن يجمعوا أشاتها في

(١) تكررت هذه النبهة في هذا الفصل والفصلين السابقين لأنها كتبت مستقلة وفي أوقات متباعدة .

أسفار منظمة متصلة ، وأن يجعلوا من هذا النوع من الكتابة ، فناً خاصاً لا يستطيع أن يضطلع به سوى القليل من العلماء أو الكتاب الذين يتمتعون بمواهب خاصة . وقد وجدت فكرة الموسوعات العامة في الأدب العربي قبل القرن الثامن ، ولكنها لم تصل من قبل إلى مثل هذا التوسع في النوع ، وهذا التبسط في المادة . ويكفي أن نتصفح أثراً من هذه الآثار الجامعة لنذكر أى جهود مدهشة ، وأى مواهب وكفايات متارة ، اتحدت في شخص بمفرده لتخرج هذا الأثر الضخم ، الذى تشعبت مناحيه وموضوعاته بصورة مدهشة ، وبلغت مع ذلك حداً بعيداً من الاتصال والتنسيق ، يجعل منها وحدة متماسكة وثيقة العرى .

* * *

وسنخص بالحديث في هذا البحث كتاب « صبح الأعشى » أحد هذه الآثار الجامعة . ويحسن بنا أن نبدأ بالتعريف بصاحب هذه الموسوعة ، ففي التعريف به ما يفسر توافره على هذا النوع من التأليف الجامع ، ومن الأسف أن كتب التراجم لم تقدم لنا الكثير عن القلقشندى ، وقد تحدث عنه بمنتهى الإيجاز صاحب النجوم الزاهرة ، وكذلك العماد الحنبلى في شذرات الذهب ، كل منهما في وفيات سنة ٨٢١ هـ ، ولم يذكرنا لنا تاريخ مولده ، غير أنهما يقولان إنه توفى عن خمسة وستين عاماً ، أعنى أنه قد ولد وفقاً لذلك في سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) . وهذا ما يذكره السخاوى صراحة في الضوء اللامع ، ويزيد عليه بعض تفاصيل يسيرة .

وهو القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ، ولد بقلقشنده إحدى قرى قلوب في العام السالف الذكر ، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر ، وتخصص في الأدب والفقه الشافعى ، وبرع بالأخص في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء ، وتولى بعض الوظائف الإدارية مدى حين . بيد أن براعته في الكتابة والإنشاء لفتت إليه أنظار رجال البلاط ، ومهدت إليه سبل الاضطلاع بالمنصب الذى تؤهله له مواهبه الأدبية والفنية ، وهو العمل في ديوان الإنشاء ، فالتحق بخدمة هذا الديوان حسبما يقول لنا في مقدمته في سنة ٧٩١ هـ ، في عهد السلطان الظاهر برقوق . وقد كانت لديوان الإنشاء في هذا العصر أهمية خاصة ، وكان لا يعمل فيه سوى أقطاب النثر والبلاغة

الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شئون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية ، وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم . ولديوان الإنشاء المصرى ، منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل ، وقد لبث عصوراً مدرسة أدبية زاهرة ، يجتمع فيها أقطاب الكتابة ، وأئمة النثر والبلاغة . وكان قد تولى رياسته قبل ذلك بنصف قرن كاتب ممتاز ، وعلامة جغرافى وسياسى بارع هو أحمد بن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » ووضع عن نظم الكتابة والإنشاء الرسمية كتابه الشهير « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو ما يقابل فى اصطلاح العصر ، مراسيم البروتوكول والمراسلات الدبلوماسية ، فكان ، حسبما يقول لنا القلقشندى فى مقدمته ، هو أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب ، وكان بالرغم من إيجازه ، ونطاقه المحدود ، نواة للموسوعة الشاسعة التى وضعها القلقشندى فى نفس الموضوع . ولبث القلقشندى أعواماً يعمل فى ديوان الإنشاء ، ولعله استمر فيه حتى آخر عهد الظاهر برقوق (أعنى إلى سنة ٨٠١ هـ) أو بعد ذلك بقليل ، وفى تلك الفترة خطرت له فكرة وضع مؤلفه الكبير ، أعنى « صبح الأعشى » .

وقد بدأ القلقشندى فوضع فى هذا الباب رسالة موجزة ، يبين فيها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما تقتضيه من أصول ورسوم وأساليب ، فوقعت موقعاً حسناً ، وأشار إليه ، حسبما يقول لنا فى مقدمته — والظاهر أن الإشارة كانت من مصدر عال ، وربما كانت من السلطان نفسه ، إذ يقول لنا إنه قد امتثل الأمر « بالسمع والطاعة » — أشير إليه أن يبسط الكلام فى هذا الموضوع ، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع فى أصوله وفنونه ، فصدع القلقشندى بالأمر ، واسترشد بما كتبه العمرى من قبل فى «المصطلح الشريف»^(١) وقضى أعواماً طويلة فى البحث والتنقيب ، واستخراج الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية ، وغيرها من مختلف أصناف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية ، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة لم يسبق أن اجتمعت من قبل لكاتب فى موضوعه ، ورتب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات . ولنا

(١) راجع صبح الأعشى (المقدمة) ج ١ ص ٩ و ١٠

لندهش حقاً ، إذا علمنا أن هذه المقدمة ، وهذه المقالات العشر ، تملأ أربعة عشر مجلداً ضخماً ، وهي محتويات الموسوعة العظيمة ، التي سماها القلقشندي في مقدمته بكتاب « صبح الأعشى في كتابة الإنشاء » . وقد يسمى أحياناً « صبح الأعشى في فنون الإنشاء » أو « صبح الأعشى في معرفة الإنشاء » أو « صبح الأعشى في قوانين الإنشاء » ، وذلك حسبما يسميه السخاوي في الضوء اللامع . والظاهر أن القلقشندي قد بدأ كتابة مؤلفه الجامع حوالى سنة ٨٠٥ هـ إذا قدرنا أنه استغرق في وضعه عشرة أعوام ، فهو يقول لنا في مقدمته ، إنه فرغ من تأليفه في شوال سنة ٨١٤ هـ .

ومن الصعب علينا أن نتقصى سائر المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي في وضع موسوعته . ومن الواضح ، فيما يتعلق بمجموعة الوثائق والمراسلات الضخمة التي يوردها لنا في كتابه ، أنه اعتمد بنوع خاص على المحفوظات المصرية ، التي كانت تغص في عصره بمختلف الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية ، التي تكدست في ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة . بيد أن القلقشندي يذكر لنا إلى جانب ذلك ، خلال مؤلفه ، بعض الكتب التي رجع إليها ، واقتبس منها في الناحية الفنية من مؤلفه . ومن ذلك كتابا « المصلح الشريف » و « التثقيف » لابن فضل الله العمري ، وكتاب « مواد البيان » لعلي بن خلف من كتاب الدولة الفاطمية ، وكتاب « معالم الكتابة » لابن شيث ، وكتاب الأوائل لأبي هلال العسكري ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ، وذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان ، وصناعة الكتاب لأبي جعفر النحاس ، وكتابين آخرين لم يذكر لنا مؤلفيهما ، هما كتاب حسن التوسل ، وكتاب الدر الملتقط .

وسوف نحاول ، أن نستعرض محتويات صبح الأعشى ، في شيء من الإيجاز ، لأن العرض المفصل يقتضى مجالا شاسعاً لا يتيسر لنا هنا . ففي المقدمة ، يتناول القلقشندي الحديث عن المسائل والتعريفات التمهيدية ، كالتنويه بفضل القلم والكتابة ، ومعنى الإنشاء ، وتطوره خلال العصور ، وترجيح النثر على النظم ، وصفات الكتاب وآدابهم ، وتاريخ ديوان الإنشاء وأصله في الإسلام ، ثم انتظامه بعد ذلك في مختلف الدول الإسلامية ، وقوانين الديوان ومرتبة صاحبه ، ثم التعريف بوظائف الديوان في مصر الإسلامية ،

واختصاص كل منها في مختلف العصور والدول ، وهذه المقدمة البديعة تصلح أن تكون وحدها مؤلفاً مستقلاً .

وفي المقالة الأولى ، يحدّثنا المؤلف عما يجب أن يستوعبه الكاتب من مواد الإنشاء ، والمعارف اللغوية والأدبية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، لكي يستطيع أن يؤدي مهمته في وضع الوثائق ، والمراسلات السياسية والإدارية على الوجه المرغوب ، وما يحتاج إليه الكاتب من أنواع الأقلام والورق والحبر وغيرها ، ويتبع ذلك نبذة شائقة في الخط العربي وتاريخه .

وتتناول المقالة الثانية الحديث عن المسالك والممالك ، وهي استعراض جغرافي ونظامي للدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام . وفيه تفصيل خاص لشئون الديار المصرية والشامية التي تتبعها ، وما يحيط بها أو يجاورها من الأمم الأخرى ، إسلامية وغيرها .

وفي المقالة الثالثة تفصيل واف لترتيب المكاتبات ، وما يناسب أنواعها من الأقلام وأحجام الورق قديماً وحديثاً ، وأنواع المراسم ومصادرها ، وأقلام الترجمة واختصاصها ، وفي فواتح الرسائل وخواتمها ، مع تفصيل خاص لما يتعلق بذلك كله في ديوان الإنشاء المصري . وهذه مزية من أجل مزايا الكتاب . فإذا كان المؤلف يتحدث بصفة عامة عما يتعلق بموضوعه في مختلف الدول الإسلامية والعصور المختلفة ، فإنه ينحصر مصر دائماً بالتصويب الأوفى من الشرح والبيان .

وأما المقالة الرابعة فإنها حسبما يبدو من محتوياتها وحجمها ، أهم مقالات الكتاب وأضخمها . ويستهلها المؤلف بأن يقدم لنا فهرساً مطولاً لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة مرتبة على حروف المعجم ، وقد وردت به شروح لسائر الصفات والألقاب التي تراها مدونة في مختلف الرسائل الخلافية والسلطانية والوزارية ، والموجهة إلى أكابر رجال الدولة وأقطاب العلم والأدب ، ومن ذلك ألقاب الخلفاء وولاة العهد والألقاب الملوكية والسلطانية ، وأرباب السيوف والعلماء وأهل الصلاح ومشايخ الصوفية ، ومن ذلك أيضاً ألقاب أكابر النصارى من البطارقة والملوك والملكات .

ثم يشرح لنا أساليب الكتابة من استفتاح ومقدمات ودعاءات وصلوات وغيرها مما اصطلاح عليه .

ومن أهم فصول هذه المقالة ، فصل يعالج فيه القلقشندي مصطلحات المكاتبات الدائرة بين ملوك أهل الشرق والغرب من جهة ، وكتاب الديار المصرية في مختلف العصور ، منذ صدر الإسلام إلى عصره ، وهو الفصل الذي يفتحه بذكر الكتب الصادرة من النبي العربي إلى زعماء الجزيرة وغيرهم من أهل الكفر ، مثل كسرى وقيصر والنجاشي .

وبلى ذلك استعراض للمكاتبات الصادرة من الملوك إلى الخلفاء ، ويقدم إلينا القلقشندي منها نماذج ، ومن ذلك رسالة صادرة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، بفتح بيت المقدس ، وفيها ينعت نفسه بالخادم والمملوك .

ويعنى القلقشندي عناية خاصة بالكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، ويورد لنا الكثير منها . من ذلك ما هو موجه إلى نواب السلطنة ، وإلى العمال والقضاة ، ورجال الدولة ، في مصر والشام . ومنها ما هو موجه إلى ملوك التتار وإيران وأرمينية وإذربيجان وأرزن وما وراء النهر .

وإلى ملوك المغرب في تونس وبجاية وقسنطينة وتلمسان والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

وإلى ملوك السودان والبرنو ، وملوك الروم والترك العثمانيين ، ثم المكاتبات الصادرة من ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر من الروم والفرنجة والحبيشة ، وإلى ملوك الغرب من جزيرة الأندلس ، والأرض الكبيرة (أى فرنسا) وقشتالة وأشبونة وأراجون ونبرة . ثم إلى البابا وقيصر قسطنطينية وحكام جنوة مثل البودسطا والكبطان ، ثم إلى دوج البندقية .

وأخيراً المكاتبات الصادرة إلى ملك منفرد (مونفراتو) وإلى الملكة جوانا ملكة نابلي .

ويعنى القلقشندي من جهة أخرى ، بالمكاتبات الواردة إلى البلاط المصري . ومن ذلك المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل

المملكة ، ثم الكتب الواردة من أهل الشرق من القنات العظام والملوك والحكام وولاية العهد ، والكتب الواردة من الغرب ، من المرابطين والموحدين ، ثم من ملوك بني مَرِين وبني عبد الواد ، والكتب الواردة من السودان ، من مالى وصاحب البرنو (نيچيريا) ، والكتب الواردة من ملوك الروم ، من قسطنطينية وبلاد الكرج وغيرها ، وأخيراً الكتب الواردة من ملوك الأندلس النصرارى ، ومن الجهات الشمالية مثل البندقية وغيرها .

ويقدم إلينا القلقشندي نماذج من معظم المكاتب المذكورة ، سواء الصادرة منها من البلاط المصرى ، أو الواردة عليه ، ومن ذلك نماذج فريدة ، مما ورد على ملوك مصر ، من مختلف الملوك النصرارى ، وفي مختلف العصور .

وتتناول المقالة الخامسة ، مسألة الولايات ، وطبقاتها من الخلافة والسلطنة ، وولايات أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ثم الألقاب من خلافة ومملوكية ، والألقاب الصادرة إلى ذوى الولايات المختلفة ، ثم البيعات وما يكتب فيها بالنسبة للخلفاء والملوك . ثم العهود ، وأنواعها ، من خلافة ، ومملوكية ، ولأولياء العهد ، وغيرها . وهنا يقدم إلينا القلقشندي أيضاً نماذج من مختلف المراسيم والعهود الصادرة بما تقدم ، وفي مختلف العصور .

وتشغل المقالتان الرابعة والخامسة من « صبح الأعشى » نحو ثلاثة مجلدات من منتصف المجلد السادس إلى أواخر المجلد الثامن . وفي رأينا أن هذا القسم هو أهم أقسام الكتاب وأنفسها . فهو يشتمل على مئات الوثائق والنصوص الرسمية والدبلوماسية ، ويلقى أعظم الضياء على تاريخ مصر النظامى والإدارى في عصور الخلفاء والسلاطين ، وعلى السياسة الخارجية المصرية ، وعلائق مصر بالأمم الإسلامية والنصرانية في تلك العصور ، وهى مادة نفيسة من الوثائق والمحفوظات الجليلية ، التى لا يمكن أن نظفر بها فى مؤلف آخر ، وإن كان العمرى قد أورد فى « المصطلح الشريف » شيئاً منها .

وفى المقالة السادسة يتحدث المؤلف عن الوصايا الدينية والمساحات وتصاريح الخدمة السلطانية (الطرخانيات) ، وعن التواريخ ومقابلاتها . ويتحدث فى السابعة عن الإقطاعات وأصلها ، ونشأتها ، وأحكامها ، وأنواعها ، ويقدم إلينا نماذج من المراسيم الصادرة بها فى مختلف الدول والعصور . ويتحدث فى

المقالة الثامنة عن الإيمان وأنواعها منذ الجاهلية ، وفي عصور الإسلام ، والإيمان الملوكية والأميرية في الدول الإسلامية وغيرها . وفي التاسعة يتحدثنا عن عهود الأمان وعقدها لأهل الإسلام والكفر ، وما يكتب منها لأهل الذمة ، ثم الهدن وأنواعها وصيغها ، وعقود الصلح ونماذجها . وفي المقالة العاشرة والأخيرة ، يعرض القلقشندي نماذج مختلفة من الرسائل الملوكية في المديح والفخر والصيد ، ثم يتحدثنا عما يتعلق بديوان الإنشاء في غير شئون الكتابة ، مثل البريد وتاريخه في مصر والشام ، وهو فصل بديع جامع ، ثم الحمام الزاجل وأبراجه ومطاراته ، ثم المناور والمحركات التي كانت تستعمل في استطلاع حركات العدو . وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

هذا هو ملخص موجز لمحتويات «صبح الأعشى» . وفي مواد الكتاب وفي تنظيمه وروحه وأسلوبه ، ما يشهد لمؤلفه برفيع فنه وقوة بيبانه ، وغزارة علمه ، وواسع ثقافته .

وقد عني القلقشندي بنواح أخرى من التاريخ والأدب ، فوضع كتاباً في أنساب العرب عنوانه «نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب» ، وتوجد منه نسخة خطية في برلين ، يستفاد منها أنه كتب في سنة ٨١٢ هـ (١) . وكتاباً آخر في الأنساب أيضاً عنوانه «قلائد الجمان في قبائل العربان» . ووضع مختصراً لصبح الأعشى عنوانه «ضوء الصبح المسفر ، وجنى الدوح المثمر» . ووضع كتاباً في الفقه الشافعي عنوانه «الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع» . وأنشأ القلقشندي كثيراً من النظم الجيد . والظاهر أنه قضى أعوامه الأخيرة في عزلة ، بعيداً عن الأعمال والوظائف الرسمية ، ولم يتول بعد ديوان الإنشاء ، منصباً آخر ، بيد أنه ظل كما يتحدثنا صاحب شذرات الذهب ، محتفظاً بمكانته الرفيعة في البلاط وفي الدولة ، وفي الدوائر العلمية . هذا ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعتبر القلقشندي مؤرخاً بالمعنى الحقيقي ، وإذا كنا لا نستطيع في نفس الوقت أن نعتبر موسوعة «صبح الأعشى» مؤلفاً

(١) وقد طبع في بغداد كتاب في هذا الموضوع ينسب للقلقشندي ، وظهرت منه طبعات أخرى بصور مختلفة . ولكن هناك شك في نسبته لصاحب صبح الأعشى . ويرى بعض الباحثين أنه من تأليف ابنه الذي وضع مختصراً لكتاب صبح الأعشى ، ومختصراً آخر لكتاب أنساب العرب .

تاريخياً محضاً ، فإنه لا شك أنها تقدم إلينا بالنسبة لتاريخ مصر بنوع خاص ، مجموعة عظيمة من الوثائق الإدارية والسياسية ، التي تلقى أعظم أضوء على مختلف النظم التي قامت عليها الدول الإسلامية المصرية المتعاقبة ، ومختلف العلاقات الدبلوماسية التي كانت تعقد خلال العصور الوسطى بين هذه الدول المصرية ، ومختلف الدول الإسلامية والنصرانية . وهذا وحده يكفي لأن نسبغ صفة تاريخية قوية على كتاب «صبح الأعشى» ، وأن نسبغ على مؤلفه صفة المؤرخ السياسي والإداري ، وهي صفة لها قيمتها الخاصة عند المؤرخ الحديث .

وقد سبقنا البحث الغربي كعادته إلى العناية بهذا الأثر النفيس ، فترجمت منه إلى الفرنسية مجموعة هامة من الوثائق الدبلوماسية التي تبودلت بين مصر والدول النصرانية ، وترجمت منه مختارات أخرى إلى الفرنسية والألمانية^(١) . وكان لدار الكتب المصرية فضل إخراجه كاملاً في أربعة عشر مجلداً ، وذلك ما بين سنتي ١٩٠٣ ، ١٩١٩ . بيد أنه أخرج مع الأسف خلواً من فهرس حديث شامل ، يدل على نفائسه ودقائقه ، ويوفر على الباحث مشقة التنقيب المضمنى ...

(١) صدرت من «صبح الأعشى» بعناية المشرق فستفلد Wuestenfeld قطعة بالألمانية من جغرافية مصر ونظمها الإدارية عنوانها : *Die Geographie und Verwaltung von Aegypten nach dem Arbeit des Abul - Abbas al - Calcachandi* ونشرت في مجلة الجمعية الملكية للعلوم بمونتيجن . ونشرت قطعة بالفرنسية مترجمة بعناية المشرق سواير Sauvare بعنوان : *Extrait de l'ouvrage de Kalkachandi intitulé "Lumièrc de l'Aurore. pour l'écriture des hommes"*

ونشر المشرق البلجيكي لامانن Lammenس الترجمة الفرنسية لعدة رسائل متبادلة بين سلاطين مصر والدول النصرانية بعنوان :

Correspondances diplomatiques entre les Sultans d'Egypte et les Pnissances Chrétiennes ونشرت بمجلة : *Revue de l'Orient Chrétien* (الشرق النصرانية)

الفصل الرابع

تقى الدين المقرئ

مؤرخ مصر السياسى والاجتماعى

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) : (١٣٦٤ - ١٤٤١ م)

لم تشغل النظم السياسية والاجتماعية فراغاً كبيراً فى الآداب التاريخية العربية . فقد لبثت الروايات العربية مدى قرون تقتصر على سرد الحوادث المجردة ، وتعنى بسير الخلفاء والملوك ، والقادة ، وغزواتهم ، وتقلب طوائفهم ، وحياتهم الخاصة ، دون أن تعرض بكثير من التعريف والشرح إلى حياة الشعوب التى دانت لهم ، وإلى النظم السياسية والاجتماعية ، التى عاشت فى ظلها هذه الشعوب ، وإلى الأخلاق العامة ، وصور الحياة الخاصة ، والعادات الفردية ، وإلى ما تميزت به منها كل طبقة من طبقات المجتمع . ولكن نزعة إلى معالجة السياسة والاجتماع أخذت تبدو فى الرواية العربية منذ القرن السابع الهجرى ، وتميل بادئ بدء إلى ناحية السياسة الملوكية وإلى تحليلها ونقدها ، فترى ابن الطقطقى مثلاً يحاول فى كتاب « الفخرى »^(١) أن يقدم إلينا صورة من المثل الأخلاقية الملوكية ، ومن النظم والأساليب التى يجب أن يتبعها الملك فى سياسة الدولة ، ورعاية الشؤون العامة ، وأن ينقد ويدحض ما يراه منها مخالفاً لما يقرره من المثل العليا . ثم نرى هذه النزعة العلمية النقاد تبلى ذروة الافتتان والبراعة عند ابن خلدون شيخ الاجتماع والفقه التاريخى ، فنراه يعرض فى مقدمته الخالدة إلى قوانين العمران ، وإلى نظم الدولة ومبادئ السياسة ، وإلى أطوار الحياة الشعبية ، وعوامل قيام الدول والحضارات وانحلالها ، وإلى مقومات الخلافة والملك ، ونظمها الدستورية ، وإلى العلوم والفنون والصناعات ، فى إسهاب ودقة ومتانة لم تعرفها الآداب التاريخية العربية من قبله ، ولم تعرفها كذلك من بعده . وظهرت فى نفس الوقت إلى

(١) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية . (طبعة جريفرز ١٨٥٨) .

جانب هذا الروح العلمى الناقد ، نزعة إلى العناية بأحوال الشعب ذاته ، وسير الطبقات الاجتماعية ومميزاتها الأخلاقية ، وحياة الأفراد وعاداتهم ومشاعرهم وعواطفهم فى مختلف العصور والأوساط ، فزى الرواية العربية تعنى مذك ذلك الحين بتدوين الكثير من هذه الظواهر بعد ما كانت تغفلها ، وزى أخبار الأفراد والدهماء تتخلل سير الملوك والأمراء ؛ والحياة الاجتماعية العامة ، تعرض إلى جانب حياة القصور .

وقد أصابت مصر الإسلامية من هذا التراث أعظم قسط . فقلما يظفر مؤرخ الدول الإسلامية بصور عن النظم السياسية والاجتماعية ، والأخلاق العامة ، والحياة الخاصة ، أقوى وأوضح من تلك التى دونت عن مجتمعات مصر الإسلامية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أربعة من أعلامها المؤرخين أنجبهم تبعاً فى القرنين الثامن والتاسع ، هم : المقرئى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس . وقد عاش الأربعة فى عصور متعاقبة ، واجتمع الثلاثة الأوائل فى عصر واحد ، فى أواسط القرن التاسع ، وعنوا جميعاً بتدوين تاريخ مصر الاجتماعى ، والإمام بأحوال شعبها ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ، الظاهرة والمستترة . ولكن صاحب هذه الفكرة السعيدة ، والمبدع فى عرضها ، هو أولهم وشيخهم تقي الدين المقرئى ؛ بل هو أول من ألهم هذه الفكرة من مؤرخى الإسلام جميعاً ، وليس فيما أخرجه الآداب التاريخية العربية عن مصر أثر فى طرافته ونفاسه ، كالآثر الذى خلفه المقرئى عن حياة المجتمع المصرى فى عهد الدول الإسلامية المتعاقبة ، فهو المرجع الفريد فى نواح من تاريخنا لولاه لحجبتها ظلمات الماضى إلى الأبد ، وهو أنفس الحلقات التى تصل فيما بين الأطوار المختلفة للتقاليد والعادات التى تقلب فيها أباؤنا عدة قرون .

نشأ المقرئى وعاش فى عصر سرى الانحلال فيه إلى الأمم الإسلامية ؛ وأخذت مصر تتردد بين النهوض والعتار ، ويسطع مجتمعا آونة ويخبو أخرى ، فشاقه الماضى الباهر إلى التنقيب فى خفاياه . وكانت مصر يومئذ تسير فى الواقع إلى اختتام عصورها الجيدة واستقبال عصورها السود ، فكانت ذكريات الماضى أشد ما يثير التأمل . ولكن المقرئى لم يعن من هذا التراث بحروبه وغزواته وتقلباته السياسية ، قدر ما عنى بنظمه وظواهره وأخلاقه وتقاليد ، ورأى الآثار

الماضية ، تغفل من حياة المجتمع ، جوانب لاح لها أنها بنحست حقها من التعريف والشرح ، وأن سير الحروب والثورات إذا كانت كل شئ في حياة الغزاة والمتغلبين ، فإنها ليست كل شئ في حياة الشعب والمجتمع ، فعمد إلى مادة جديدة بالمرّة يستخرجها من ظلمات الماضي ، ويعرض ما استطاع أن يظفر به من صورها الشائقة ، فكان بذلك مؤرخ مصر السياسى والاجتماعى .

* * *

ولد تقى الدين المقرئى فى القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ، وتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ - ١٤٤١ م) . وهو أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد بن تميم التقى أبو العباس بن العلاء بن المحيوى الحسينى العبيدى . وقد سجلنا هذه النسبة الطويلة ، إذ عرف عن المقرئى أنه كان ينتسب إلى آل عبيد الفاطميين . ويقول لنا السخاوى إن جده كان أصله من بعلبك الشام ، وكان من كبار المحدثين بها ، فتحول ولده على إلى القاهرة ، وولى بها بعض الوظائف القضائية ، وكتب التوقيع بديوان الإنشاء ، ورزق بولده أحمد صاحب هذه الترجمة .

ونشأ المقرئى فى تلك المدينة التى طوت قبله أجيالا من السلاطين والدول ، والتى كانت تشوق دائماً بماضيها الخافل وآثارها الإسلامية الباهرة ، طلعة كل مفكر وراوية ، وأنفق مدى حياته بين هاتيك الربوع والصروح الخالدة ، التى أوحى إليه أن يكون فيما بعد مؤرخها ومحى ذكرياتها ، ودرس فى الأزهر موئل التفكير يومئذ ، على أساتذة هذا العصر وشيوخه ، وكان من شيوخه جده لأمه ، الشمس بن الصايغ الحنفى ، والنجم بن رزين ، والبرهان الآمدى ، وأبو إسحاق التنوخى ، وزين الدين العراقى ، وابن أبى الحجد ، وسراج الدين البلقينى ، والهيثمى وغيرهم من أعلام العصر . وتخصص فى دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين ، ومهر فى الأدب ، وأجاد النثر والنظم ، وعين مراراً فى وظائف الوعظ وقراءة الحديث بالمساجد الجامعة ، وولى الحسبة بالقاهرة غير مرة ، وهى من وظائف القضاء الهامة ، أولها فى سنة إحدى وثمانمائة . وولى الخطابة بجامع عمرو ، وبمدرسة السلطان حسن ، والإمامة بجامع الحاكم ، وقراءة الحديث بالمدرسة

المؤيدية وغيرها . وتقلب في عدة وظائف قضائية وإدارية ، في القاهرة ودمشق ، وقد زارها مراراً . وحج غير مرة ، وسمع بمكة والمدينة . وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ؛ ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده . وتوثقت صلته بالأمير يشيك الدوادار وقتاً ، ونال في ظله جاهاً ومالاً^(١) . ثم زهد في الوظائف العامة واستقر في القاهرة ، وتفرغ إلى الكتابة وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره .

بيد أنه كان يضطرم شغفاً إلى البحث والكتابة قبل ذلك بأعوام طويلة . والظاهر أنه أنفق كثيراً من أعوامه الأولى في التنقيب في مختلف المصادر التي استطاع أن يصل إليها ، في مكاتب دمشق ومكة والقاهرة ، وهي يومئذ ملاذ المراجعة والتنقيب ، ومستودع أجل آثار التفكير الإسلامي . وهو ما يشير إليه في فاتحة كتاب « المواعظ والاعتيار » بقوله : « فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لغزتها وغرابتها إهاب » . والظاهر أيضاً أنه لم يكن يجمع أشنات هذه المواد الغزيرة ، تنفيذاً لفكرة وضعها من قبل ، أو لتكون مادة لموضوع بعينه ، ولكن المحقق أن المقرئ كان توجهه في درسه وبحته عاطفة قومية ، ظهر أثرها فيما بعد فيما اختاره ميداناً أساسياً لنشاطه . وهي عاطفة نلمح أثرها في جهود معاصريه السخاوي وابن تغري بردي ، وكذلك في جهود ابن إياس ، فقد عنوا جميعاً بتدوين تاريخ مصر قبل غيره ، ولا سيما حوادث عصرهم . ولكن أثر هذه العاطفة القومية في جهود المقرئ أشد وأقوى ، وهي ظاهرة كل في الظهور في شغفه باستقصاء ما استقصى عن تاريخ مصر ومجتمعاتها من الحقائق الفريدة ، ثم هو يفصح عنها بجلاء في ديباجة « المواعظ » بقوله : « وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملعب أترابي ومجمع ناسي ، ومنغني عشيرتي وحامتي ، وموطن خاصتي وعامتي ، وجؤجؤي الذي ربي جناحي في وكره ، وعش مأربي فلاتهوى الأنفس غير ذكره ، لا زلت منذ شنوت العلم وآتاني ربي الفطانة والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ... » . اختار المقرئ تاريخ مصر ميداناً لخبر جهوده وأعظمها . وقد كتب عدة

(١) السخاوي في ترجمة المقرئ في الفهرء اللامع ج ٢ ص ٢٢ .

مؤلفات في نواح أخرى من تاريخ الإسلام^(١) ، وكتب عدة مؤلفات في غير التاريخ^(٢) ، ولكنها جميعاً في المحل الثاني . أما تاريخ مصر وتاريخ نظمها ، ومجتمعاتها ، وتاريخ شعبها ، فقد خصه المقرئ بطائفة من أنفس الآثار التي وصلتنا عن مصر الإسلامية . وهذه هي : أولاً كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » الذي سنعود إليه بعد ، والسلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو تاريخ دول الماليك في مصر ، وكتاب المقفى وهو سير الأمراء والكبراء الذين عاشوا في مصر ، وهو مؤلف ضخيم لم ينجز منه سوى قسم في عدة مجلدات ، ودرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة وهو تراجم مشاهير عصره ، واتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء^(٣) ، وهو تاريخ الدولة الفاطمية والخلفاء الفاطميين ، والبيان والإعراب عما في مصر من الأعراب ، ثم عقد جواهر الأسفاط في أخبار القسطنطينية ، ذكره السخاوى ولم يصلنا خبره . ويقول السخاوى وهو معاصره تقريباً إن مجلداته بلغت مائة ، وأنه قرأ بخطه أى بخط المقرئ أن تصانيفه زادت على مائتي مجلد^(٤) ، ويذكر منها عدة مؤلفات لم تصلنا أو لا نعرف خبرها . ولكن الظاهر أننا نملك كل أو على الأقل أهم ما كتبه المقرئ عن مصر ، وهو تراث حافل كما رأيت .

تراث حافل من حيث مداه . ولكنه حافل بالأخص من حيث نوعه وطرافته . فقد رأيت أن المقرئ عني بنواح من تاريخ المجتمعات المصرية المتعاقبة لم يفتن إليها أسلافه ، أو على الأقل لم يتناولوها بمثل ما تناولها هو به من دقة واستقصاء وبسطة . ولا ريب أنه قد اعتمد كثيراً على جهود أسلافه ، ولكنك لا تكاد تظفر في هذه الجهود إلا بلمحات ضئيلة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى

(١) فعرّف منها « الدرر المضيئة » وهو تاريخ الخلفاء حتى نهاية الدولة العباسية ، « إمتاع الأسماع في ما قبل من الحقة والاتباع » « والإمام بن في أرض الحبشة من ملوك الإسلام » ، وكتاب الخبر عن البشر ، وتراجم ملوك العرب ، والطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة .
(٢) أى مثل رسالته في تاريخ العقود العربية ، ورسالته في الغناء ، والبيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد ، والأخبار عن الأعداء ، ونحل عبر النحل . والمقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية . وتجريد التوحيد . ونوع الفوائد . والأوزان والأكيال الشرعية وغيرها .
(٣) وقد عثر البحث أخيراً منه بنسخة أوفى وأكبر حجماً من النسخة المتداولة ، وتتناول تاريخ الخلفاء الفاطميين حتى أواخر الدولة الفاطمية بتفصيل وإفاضة .
(٤) الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٣ .

أعنى مما يخرج لنا المقرئ عنه صوراً واضحة شافية ، وفضل المقرئ هو أنه قيد شوارد هذه الأشتات ، وأدرك قيمتها وأهميتها في تاريخ مصر الإسلامية ، فاستخرج منها مادة للدراسة مستفيضة . وقد تقرأ فيها نبذاً نفيسة عديدة نقلها عن مؤرخين ضاعت آثارهم وكانت موجودة في عصره ، وأنفس ما في هذه النبذ أنها دونت بأقلام المعاصرين لما تعرض من شئون وحوادث . وهي مزينة للمصادفة وصروف الزمن . ولكن المقرئ دون سير عصره ، وصور مجتمعه أيضاً . وهي صفحة حافلة أيضاً من تاريخ مصر الإسلامية ، لأن المقرئ عاصر من ملوك مصر عشرة متعاقبين . وكان المجتمع المصرى في عهده يقدم إلى المتأمل كثيراً من الظواهر النفسية والاجتماعية الجديدة .

وأشهر آثار المقرئ وأهمها بلا ريب كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » . وهو الذى يعرف باسم أقصر وأشهر هو « الخطط » وهو أثر فريد في نوعه ، طريف في موضوعه ، غزير في مادته ، وافر الطلاوة والإمتاع . ونستطيع أن نصفه بتاريخ مصر القاهرة ومجتمعاتها أيام الدول الإسلامية . والواقع أن القاهرة ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية ، وشوارعها ، بل أرضها وأسواقها ، وأحياءها ، ومساجدها ، ورياضها ، ومدارسها ، وكل ما احتوت من معاهد وصروح ، ودور عامة ، تشغل فراغاً كبيراً في الخطط . فها حى ، وما شارع ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقرئ حق من الوصف ، وألم بمنشئه وتاريخه . وفي وسعك وأنت تقرأ الخطط ، أن تضع في الحال مواقع « مصر — القاهرة » ومعالمها وحلودها المختلفة ، مذ قامت فسطاط عمرو ، وقطائع ابن طولون ، وقاهرة جوهر أو القاهرة المعز . وفي وسعك أن تتصور تخطيط « مصر — القاهرة » وتقسيمها الجغرافى في مختلف الدول الإسلامية ، بل تستطيع في كثير من الأحيان أن ترجع ما تعرف اليوم من أحياء القاهرة وشوارعها القديمة ، إلى ما يقدمه إليك المقرئ عنها من وصف وتخطيط . أليس فخر القاهرة وتراثها الخالد آثارها الإسلامية ؟ أليس فخرها تلك المساجد الشاحنة التى تصور لنا فن الهندسة والعمارة الإسلامية في مختلف العصور والدول ؟ والقاهرة ، ومساجدها ، وكل ما فيها من روعة أثرية وعمرانية ، ثمرة من ثمرات المدنية الإسلامية .

لقد كانت « الخطط » إذاً ثمرة هذه العاطفة الوطنية المضطربة التي ملأت جوانح المقریزی ، وما أوحى إليه من مثابة وعناية وجلد . والظاهر أن المقریزی قضى أعواماً طويلة في البحث والدرس ، وجمع المذكرات والأخبار ، قبل أن تستقر في ذهنه فكرة تدوين « الخطط » ؛ فهو يقول في مقدمته : « فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لغزتها وغرابتها إهاب ؛ إلا أنها ليست بمرتبة على مثال ، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال ؛ فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم والقرون الخالية ؛ وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد ، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يحور رسمها الفناء والعدم ؛ وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ؛ وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المباني البسدية والأوضاع ؛ مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأمثال ، والتنويه بذكر الذي شاهدها من سراء الأعظم والأفاضل » . وهكذا استخرجت « الخطط » من مادة غزيرة متباينة ، جمعت شواردها خلال أعوام طويلة ، وصيغت محتوياتها على هذا النحو الذي يصفه المؤرخ . ومن الصعب أن نعين تاريخ كتابة « الخطط » بالضبط . ولكن هنالك ما يدل على أن البدء في كتابتها وتنظيمها كان بين سنتي ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ .

ويشير المقریزی إلى ذلك عرضاً في موضعين :

الأول - في كلامه عن « موضع الفسطاط قبل الإسلام إلى أن اختطه المسلمون » مدينة » حيث يقول :

« قال ابن المتوَّج : وعمود المقياس موجود في زقاق مسجد ابن النعمان . قلت : وهو باق إلى يومنا هذا أعنى سنة عشرين وثمانمائة » (١) .

الثاني - في كلامه عن « مدينة مدّين » حيث يقول :

« . . . وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقي منها إلى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة . » (٢)

(١) الخطط (بولاق) - ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) ج ١ ص ١٨٨ . وقد ذكر المستشرق جست في مقال له في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (J. R.A.S.) (سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣) عن المصادر التي اعتمد عليها المقریزی في وضع خططه ، أن =

كذلك هنالك ما يدل على أن المقرئى لبث في تدوين الخطط والزيادة فيها تبعاً إلى سنة ٨٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو عامين . وإليك بعض الشواهد على ذلك :
(١) في تاريخ « الجامع المؤيدى » حيث يسوق المؤلف أخباره حتى وفاة السلطان المؤيد سنة ٨٢٤هـ^(١) .

(٢) في تاريخ « المارستان المؤيدى » حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٥هـ^(٢) .
(٣) فيما كتبه عن سلاطين عصره حيث يسوق الكلام إلى ولاية السلطان الأشرف برسبای في ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ^(٣) .
(٤) في تاريخ « الجامع الأشرفى » حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٧هـ^(٤) .
(٥) في تاريخ بعض المساجد الصغيرة حيث يسوق تاريخها إلى سنة ٨٣٠هـ ؛
وسنة ٨٣١ وسنة ٨٣٢هـ^(٥) .

(٦) في كلامه عن قبر الليث بن سعد حيث يسوق الكلام عنه إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠هـ^(٦) .

أما الدليل على أن المقرئى استمر في كتابة الخطط حتى آخر سنة ٨٤٣هـ ، وليس إلى سنة ٨٤٠ فقط كما يقول المستشرق جست ، فهو قول المقرئى في أخبار بعض مساجد القاهرة التي أنشئت أو جددت في عصره :
« وتجدد في آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمري ، وأقيمت به الجمعة في يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل »^(٧) .

== الخطط كتبت بين سنتي ٨٢٠ و ٨٤٠هـ مبتدأ فيما يتعلق بالبده على الإشارة الأولى ، وفيما يتعلق بالانتهاء على أن المقرئى يسوق ما كتبه من قبر الليث بن سعد ، إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠هـ (ج ٢ ص ٤٦٣) . ولكن سنرى أن المقرئى يسوق الكتابة إلى ما بعد ذلك التاريخ .

(١) ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٣) ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٤) ج ٢ ص ٣٣١ .

(٥) ج ٢ ص ٣٣١ .

(٦) ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٧) ج ٢ ص ٣٣١ .

كذلك هنالك ما يدل على أن أجزاء كثيرة من « الخطط » قد كتبت قبل سنة ٨٢٠ هـ ، بعد فترة المحن والفلاء التي وقعت سنة ٨٠٦ حسبما تشير إلى ذلك مقدمة « الخطط » وكثير من فقراتها^(١) . والظاهر أيضاً أن معظم المباحث التي تتعلق بتاريخ مصر القديمة ، والفتح الإسلامى ، وأخبار القسطنطين وملوكها ، وغير ذلك مما لا يرتبط بمجرى الحوادث في عصر المؤلف ، قد كتب في تاريخ سابق . أما ما تعلق بعصر المؤلف كما هو الشأن في القسم الذى يشتمل على أحوال القاهرة في عصره ، فلا ريب أن كتابته أو الزيادة فيه قد لبثت إلى ما قبيل وفاة المؤلف في سنة ٨٤٥ هـ ، على نحو ما قدمنا . بل هنالك ما يدل على أن « الخطط » كما وصلتنا تنقص عما رسمه لها المؤلف في المبدأ ؛ وذلك أن المؤلف يقرر في مقدمته ، أنه رتب مؤلفه على سبعة أجزاء : « أولها يشتمل على جل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار . وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر » . ولنتلاحظ أولاً أن الجزء السادس يتوسط الجزء الخامس في الكتابة ، وأن المؤلف يستطرد في تناول ما بمصر والقاهرة من المساجد والمنشآت ، بعد تناول الجزء السادس تكميلاً للجزء الخامس ، ثم يختم بفصول عن تاريخ اليهود والقبط والأديار والكنائس . أما الجزء السابع ، الذى يقول المقرئى ، إنه يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر ، فليس له وجود في نسخ الخطط التي وصلت إلينا ، مع أن المؤلف يشير إلى المحن التي نشأ منها خراب مصر في مواطن كثيرة^(٢) ؛ ويتناولها من آن لآخر في شذور موجزة . وقد يرجع

(١) الخطط ج ١ ص ٥ .

(٢) راجع المقدمة ج ١ ص ٥ وج ٢ ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها ، حيث يشير المقرئى إلى خراب كثير من أحياء مصر والقاهرة ، على أثر « الحوادث والمحن » التي وقعت في سنة ٨٠٦ هـ .

ذلك إلى أن المقرئ قد عدل عن كتابة هذا القسم ، أو لعل الموت فاجأه قبل إنجازها (١) .

على أن محتويات « خطط » المقرئ ، أعظم وأغزر بكثير مما يدلى به هذا التقسيم . فهذا الأثر فوق كونه عرضاً مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة ، وسيرها منذ الفتح الإسلامى ، هو مجمع فريد من صور مصر العمرانية والاجتماعية والفنية في العصور الوسطى ، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى ، وأحوال المجتمع المصرى ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ، وهو بذلك أثر وافر الابتكار والطرافة ، بما يفيض فيه من نواح في التاريخ المصرى لم تلق حقها قبل من الإفاضة . وإذا لم يكن المقرئ أول مبتدع لتاريخ الخطط ، فهو بلا ريب أعظم مؤرخها جميعاً ، وأغزرهم مادة ، وأقوام عرضاً ، وأوفرهم جلدًا ومثابة في الاستقصاء . فهذه المدينة الإسلامية العظيمة « مصر القاهرة » ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، وأحيائها وآثارها ، ومساجدها ومدارسها ، وقصورها ورياضها ، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، تشغل فراغاً عظيماً في « الخطط » ؛ وما حى فيها وما شارع أو سوق ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقرئ حقه من الوصف والتاريخ . وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد ، تراث المدينة الإسلامية في مصر ، يعرضه لنا المقرئ في صور قوية باهرة ممتعة . وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث ؛ فإذا ملك أو أمير أو كبير يفتن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة ، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها ، فلانه يستقصى كل ما تعلق به أو بها من الأخبار ، فينتقل بقارئة من المسجد والقصر ، إلى الأمير ، ومن الأمير إلى الحرب ، ومن الحرب إلى المآدب والرياض وغيرها ، ثم هو لا ينسى أن يدون لنا في نفس الوقت أخبار باقى الأقاليم والمدن المصرية التاريخية مثل الإسكندرية والفرما ودمياط والمنصورة ، وقفط وقوص والأشمونين والفيوم وغيرها ،

(١) يقتض المستشرق جست في مقاله المشار إليه ، أن المقرئ قد عدل عن حزمه في معالجة هذا القسم بعد الإشارة إليه في المقدمة . بيد أننا نستطيع أن نفترض أن المقرئ استعاض عنه بكتابة رسالته المسماة « إغاثة الأمة بكشف الغمة » التى نشير إليها فيما بعد . وقد نشرت هذه الرسالة بمنايا المرحومين الدكتورين مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال .

وما تحتويه من آثار وذكريات ، ثم لا ينسى بعد هذا كله أن يخصص للنيل عدة فصول ونبد تتعلق بجغرافيته وخواصه وأحواله كما عرفت وأثرت حتى عصره .

على أن هذا القسم الذى يشغل أكبر حيز فى خطط المقرئى ، ليس أنفس ما فيها ، ذلك أن المقرئى يذهب فى الابتكار إلى الذروة ، فبعض بتدوين التاريخ السياسى والاقتصادى والفكرى والاجتماعى لمصر الإسلامية . وهى أبداع فكرة خطرت لمؤرخ مسلم . ولنا نعرف أنها خطرت لمؤرخ قبل المقرئى . وقد خطر لابن خلدون قبل المقرئى أن يكتب خواص السياسة والتفكير والاقتصاد فى الدول الإسلامية ؛ ولكنه بحثها من الناحية العامة ليرتب عليها مبادئ وقوانين عامة ، ولم يعن أن يبحث منها ما تعلق بمجتمع إسلامى بعينه إلا للتشيل والاستشهاد . وقد التقى المقرئى بشيخ الفقه التاريخى فى القاهرة حيث لبث حيناً قطب التفكير والبحث ، وتعرف به ، وأعجب بنظرياته ومباحثه ؛ ودرس مقدمته ، وكان ذلك بلا ريب قبل أن يبدأ فى كتابة الخطط ، فى ختام المائة الثامنة وأوائل المائة التاسعة . وكان المقرئى يومئذ فى مضطرب شغفاً بالتنقيب والبحث ، وكان لآراء ابن خلدون ونظرياته التاريخية أثر كبير فى تطور الرواية التاريخية ، ومن المرجح أنها كانت ذات أثر فى لفت المقرئى إلى العناية بناحية السياسة والاجتماع فيما يدون من تاريخ مصر . بيد أنه لم يكن فى ذلك ناقداً ولا محللاً ، وإنما كان مصوراً مبدعاً فقط فيما أخرج من صور المجتمع المصرى .

ومما يجدر ذكره أن أثر تفكير ابن خلدون يبدو واضحاً فى رسالة كتبها المقرئى عنوانها « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وفيها يعالج الظواهر والعوامل التى أدت إلى خراب مصر وإفقار المجتمع المصرى ، وفيها ينحو نحو ابن خلدون تقريباً فى الشرح والتعليل .

وهذه الصور آية فى الطرافة ، ومحتوياتها وتفصيلها آية فى الابتكار . والمادة نفسها هى التى أوحى إلى المقرئى طرافته وابتكاره . فقد شهدت القاهرة أيام الخلفاء والسلطين مجتمعات زاهرة شائقة ، وشهدت ضروباً شتى من الحكومات والنظم ، وتقلب المجتمع القاهرى ، وهو ذلك المجتمع الطروب الضاحك المرح ، فى أطوار متباينة من الأفراح والحنن ، فكثيراً ما نراه يحتال بالفخار والزهو إذا كلل جبينه فتح جديد أو هبت عليه ريح النعماء ، وكثيراً ما نراه عبوساً فى الحنة ،

يستكين وحشة وألماً إذا ألم به رزء أو نزل به وباء أو ضائقة . ويقدم إلينا المقرئى هذا المجتمع فى أثوابه المختلفة ، زاهية وقاتمة . ويعنى بادئ بدء بشرح النظم السياسية والاقتصادية التى توالى على مصر ، وما يتعلق بتطبيقها من تفاصيل عملية . ويحدثنا خلال ذلك عن الخراج وديوان الأموال والقطائع . ثم يحدثنا كيف تصدر القوانين ، وينظر الخليفة فى شئون الدولة وكيف يعين وزراءه وقواده وبأى الأساليب يقوم الوزراء والقواد بتنفيذ الأوامر والقوانين ومعالجة الشؤون العامة ، وكيف يعاملهم الخليفة ، ويحاسبهم ويحادثهم ، وكيف تقام المآدب الرسمية وترتب الحفلات العامة ؛ وكيف يعيش الخليفة فى داخل قصره ، وكيف ينظم موكبته إذا خرج للصلاة أو للرياضة ، أو للحرب ، وعلى العموم كيف تدار الشئون العامة ، من تشريعية ، وحربية ، ومالية ، سواء فى عهد الخلفاء أو السلاطين من بعدهم : كل ذلك يشرحه المقرئى بدقة شافية ووضوح ممتع . ويشرح إلى جانب ذلك أحوال المنشآت العامة كالككنات ، ومصانع السلاح ، والسجون ، والمستشفيات ، والمعاهد ، والمدارس والتكايا ، والزوايا وما إليها جميعاً ، ويورد فى ذلك من الحقائق الغربية ما لا نظفر به فى أثر آخر .

أما حياة الشعب الخاصة ، وعادات الأفراد ، وتقاليدهم ، وأحوالهم فى المعاملات ، والملبس والمأكل ، والأفراح والأتراح ، واللهو والرياضة ، والحد والمزل ، فقد عنى بها المقرئى عناية تثير الإعجاب . فهو يصور هذه الأطوار المتعاقبة من الحياة الاجتماعية المصرية أقوى تصوير وأبدعه . وفى وسعك أن تعرف من صوره كثيراً من خواص الشعب المصرى ، ونفسيته ، وعواطفه ، وطبقاته الاجتماعية ، وسائر عاداته وتقاليده فى هاتيك العصور . وقد نلاحظ أن المقرئى يورد بعض الروايات والوثائق التى يلقى عليها البحث الحديث كثيراً من الريب ، خصوصاً ما يتعلق منها بعصور الإسلام الأولى . ولكن المقرئى ليس بناقد كما قدمنا ، ولم يرتب على هذه الروايات أو الوثائق نتائج معينة . كذلك نلاحظ أنه يعنى عناية خاصة بأخبار الفاطميين ، وأحوال المجتمع القاهرى فى عهدهم ، وربما تفوق فى عرض هذا القسم عليه فى الأقسام الأخرى من مؤلفه ، وهو ما يرجع على ما يلوح إلى أنه ينتسب إلى آل البيت وإلى بنى عبيد أبناء فاطمة ؟ وإلى أنه كان يجيش على ما يروى بنزعة شيعية .

هذا وصف موجز لما تعرضه « خطط » المقریزی . وقد لبث هذا الأثر الخالد على كثر العصور موضع التقدير والإعجاب من كل مؤرخ ومفكر ، وما يزال إلى يومنا من أنفس المصادر في تاريخ مصر الإسلامية . ولكن مجهود المقریزی عُرض للانتقاص من أحد أعلام عصره ، بل انكر عليه فضل وضعه وابتكاره ، ونسب إلى النقل والتزييف . والقائل بهذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السخاوی^(١) ، نسبها إلى المقریزی في مؤلفاته أكثر من مرة ، وحمل عليه بشدة ، ورماه بالادعاء والضعف والسقط . والسخاوی من أقطاب التفكير والنقد في القرن التاسع . ولكن سنرى أن هذه الحملة القاسية التي وجهها إلى المقریزی ، أبعد ما تكون عن النزاهة والحق ، وأنها بالعكس يطبعها التحامل والتناقض ، ويدحضها المنطق والحقائق المادية .

قال السخاوی في ترجمته للمقریزی^(٢) ما يأتي :

« واشتغل كثيراً ، وطاف على الشيوخ ، ولقي الكبار ، وجالس الأئمة فأخذ عنهم ... ، ونظر في عدة فنون ، وشارك في الفضائل ، وخط بخطه الكثير ، وانتهى ، وانتقى ، وقال الشعر والنثر وأفاد » .
وقال بعد أن عدّ مؤلفاته : « بلغت مجلداته نحو المائة ، وقد قرأت بخطه ، أن تصانيفه زادت على مائتي مجلد كبار ، وأن شيوخه بلغت ستائة نفس . وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ... وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو ، وإطلاع على أقوال السلف ، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب ، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ... كل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، إما مداراة له خوفاً من قلمه ، أو لحسن مذاكرته .

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة في الجاهلية وغيرها . وأما الوقائع

(١) ولد السخاوی سنة ٨٣١ هـ . وتوفي سنة ٩٠٢ هـ . (١٤٢٧ - ١٤٩٧ م) .

(٢) أورد السخاوی هذه الترجمة في كتابه : « الفهرست اللامع في أعيان القرن التاسع »

(نسخة دار الكتب الفتوغرافية ، المجلد الأول - القسم الثالث ص ٥٣٣) . وفي المطبوع ج ٢

ص ٢١ - ٢٥) . والتبر المسبوك في ذيل السلوك » (طبع بولاق) ص ٢١ .

الإسلامية ، ومعرفة الرجال وأسمائهم ، والجرح والتعديل ، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ، ففني ماهر فيه ... » (١) .

هكذا يتردد السخاوى في ترجمته للمقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص ، على أنه لا يقف عند هذا التحميم بل يذهب إلى صوغ التهم المعينة فيقول في سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعد فيه صيته ، وصارت له فيه حنله تصانيف كالخطوط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدي ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

ثم يكرر السخاوى هذه التهمة في كتاب وضعه في أواخر حياته سنة ٨٩٧ هـ . بمكة هو : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ » فيقول : « وكذا جمع خططها (أى مصر القاهرة) المقريزى ، وهو مفيد . قال لنا شيخنا : إنه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي ، بل كان يبتص بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه » (٢) .

فن هو الأوحدي هذا الذى نُسب المقريزى إلى اختلاس أثره ؟

لقد ذكرنا أنه من كتاب القرن الثامن (٧٦١ - ٨١١ هـ) ، وأنه ألف كتاباً في « الخطط » لا نعرف عنه سوى الاسم . ونزيد هنا ما ذكره السخاوى في ترجمته حيث يقول : « وبرع (أى الأوحدي) في القرآن والأدب ، وجمع مجاميع ، واعتنى بالتاريخ وكان لهجاً به ، وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأجاد وبيض بعضها ، فبيضاها التقي المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات ... وفى ترجمته في عقود المقريزى (٣) فوائد ، واعترف بانتفاعه بمسوداته في الخطط ، وأنه ناوله ديوان شعره » (٤) .

وذكره السيوطى ضمن مؤرخى مصر ، وقال : إنه « كان لهجاً بالتاريخ ،

(١) وردت هذه الفقرة الأخيرة في « الفهرست اللامع » فقط ، ولم ترد في « التبر المسبوك » .

(٢) الإعلان بالتوبيخ - نسخة دار الكتب المخطوطة من ١٥٧ ، والمطبوع من ١٣١ .

(٣) أى كتاب المقريزى المسمى « درر العقود الفريدة » التى سبقنا الإشارة إليه .

(٤) الفهرست اللامع - القسم الثانى من ٢٦٨ و ٢٦٩ .

ألف كتاباً كبيراً في خطط مصر والقاهرة ، وكان مقرئاً أدبياً ، ومات في جمادى الأولى سنة ٨١١ هـ ^(١) .

وهكذا ينسب السخاوى تهمة الاختلاس إلى المقرئى أينما سنحت له فرصة الكتابة ، وأينما جاء ذكر الخطط .

ويجب أولاً لتحريض هذه التهمة ، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقرئى فى كتابه « خططه » ، لأنه لم ينس أن يشير إلى هذه المصادر فى مقدمته حيث يقول : « وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فلانى سلكت فيه ثلاثة أنحاء : وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم . والرواية عن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما عاينته ورأيت . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم ، فلانى أعز و كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهده ، وأبرأ من جريرته ؛ فكثيراً من ضمنى وإياه العصر ، واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم ، وقصور بابه فى معرفة علوم التاريخ ، وجهل مقالات الناس ، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه ؛ ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله ، وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة إليه ، وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عن أدركت من الجلة والمشايخ ، فلانى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى ، إلا أن لا يُحتاج إلى تعيينه ، أو أسكون نسبه ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فلانى أرجو أن أسكون ، والله الحمد ، غير متهم ولا ظنين » ^(٢) .

ثم يتبع المقرئى ذلك بكلمة عن كتاب « الخطط » ، يشير فيها إلى جهود الكندى والقضاعى وابن بركات النحوى والجوأنى وابن عبد الظاهر وابن المتوج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه إلى ذكر أحوال مصر وخططها ، إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقرئى لا يقف عند هذا التعميم فى ذكر مصادرهِ ، بل يعود فى سياق كتابه ، فيذكرها بأدق تخصيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفاً ،

(١) حسن المحاضرة - ج ٢ ص ٢٦٦ - وظاهر أن السيوطى يلخص من أقوال السخاوى .

(٢) الخطط ج ١ ص ٦ .

إلا أسنده إلى مصدره ومؤلفه . فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الإسلام ، فيرجع في معظمها إلى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودي ، وابن وصيف شاه . ويرجع في أخبار الفسطاط الأولى ، إلى الكندي ، وابن زولاقي . وفي وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية إلى المسعودي . وفي عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبداع أقسام الخطط ، يرجع المقرئى بالأخص إلى ابن زولاقي والمسبحي وابن المأمون والجواني ؛ وقد عاشوا جميعاً في عصر الفاطميين ، وكتبوا عن مشاهدة ومعرفة وثيقة . وفيما يلي ذلك من أخبار مصر والقاهرة ، يرجع المقرئى إلى القاضي الفاضل ، وابن عبد الظاهر ، ثم ابن المتوج . وهكذا يستقى المقرئى مادته تبعاً من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى في سنة ٢٥٧ هـ ، وتنتهى بابن المتوج المتوفى في سنة ٧٣٠ هـ ؛ مستنداً كل اقتباس إلى مؤلفه بمنتهى الصراحة والدقة^(١) .

على أنه إذا كان من الصعب أن نجد في هذه الأقسام المسندة إلى مصادرهما الوثيقة ، أراً أو لمحّة مما يؤيد اتهام السخاوى لمؤلف الخطط ، فإنه يصعب أيضاً أن نجد ما يؤيد هذا الاتهام في بقية الخطط ، أعني ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، في العصر الذي أدرك المقرئى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقرئى صريح في أنه اعتمد على من أدرك « من شيخة العلم وجلة الناس » . وأما العصر الذي عاش فيه المقرئى فهو يمتد من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع ، ويشغل في الخطط حيزاً كبيراً . وقد عاصر المقرئى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين في تطور مصر القاهرة والمجتمع المصري ؛ الأولى : في أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة بعد ما أصابها من وباء وعفاء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ؛ والثانية : بعد المحن التي توالى عليها بين سنتي ٨٠٦ و ٨١٢ هـ . من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبنائها . وقد أفاض المقرئى في أخبار هذين العصرين وأحوالهما وآثارهما . وكان المقرئى بحكم الوظائف التي تولّاها ، وحظوته لدى بعض الملوك الذين عاصروهم ،

(١) راجع مقال المستشرق جست المشار إليه ، فهو يستعرض مراجع المقرئى ومصادره بإسهاب ، ويقرنها بتعليقات مفيدة (J. R. A. S) سنة ١٩٠٢ - ص ١٠٢ .

متمكناً من سبل البحث والتحري ، والاستطلاع والمعاينة . ونفس الوقائع المادية هنا ، تهدم تهمة السخاوى من أساسها . ذلك أن الأوحدي الذي نسب المقریزی إلى اختلاس أثره ، قد توفي كما رأينا في أوائل سنة ٨١١ هـ ، وقد بدأ المقریزی كما رأينا بكتابة « خططه » بين سنتي ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ واستمر في كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعني قبل وفاته بنحو عامين ، فليس من الممكن عقلاً أن يكون المقریزی قد نقل عن الأوحدي شيئاً يتعلق بأحوال هذه المرحلة ، والأوحدي قد توفي قبلها ولم يدرك شيئاً منها .

وما كتبه المقریزی عن خطط مصر والقاهرة منذ أوائل القرن الثامن إلى قبيل وفاته ، يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فلذا أضفنا إلى ذلك أن المقریزی يقتبس من أسلافه كتاب الخطط وغيرهم ، بطريق الإسناد ، شلوراً تعدّ بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام جزءاً يسيراً جداً ، يصعب علينا أن نعتقد أن المقریزی ، وهو إمام عصره في التاريخ والرواية ، كان بحاجة إلى اختلاسه ، خصوصاً وقد استعرض تاريخ مصر من قبل في عدة مؤلفات جليلة تشهد بفائق مقدرته وبراعته .

وقد رأينا أن السخاوى يُرجع الرواية في اتهام المقریزی إلى شيخه في كتاب « الإعلان بالتوبيخ » ، وإن كان يوردها من عنده في « الضوء اللامع » ، فيقول في إسناد التهمة : « قال لنا شيخنا إنه (أي المقریزی) ظفر به (أي الخطط) مسوّد لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه » . وشيخ السخاوى المراد هنا هو القاضي ابن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ الكبير^(١) ، معاصر المقریزی وصديقه^(٢) ؛ وإذا فصدر الإتهام الحقيقي طبقاً لهذا القول هو ابن حجر شيخ السخاوى ، وعنه ينقل السخاوى التهمة ، ويردها في مختلف المواطن . ولكن إليك ما يقوله ابن حجر عن المقریزی ، ومجهوده التاريخي ، وهو مما أورده السخاوى في ترجمته أيضاً :

(١) راجع مقدمة السخاوى في « الضوء اللامع » حيث يوضح أن المراد بشيخه دائماً هو الحافظ ابن حجر .

(٢) ولد ابن حجر سنة ٧٧٣ هـ وتوفي سنة ٨٥٢ هـ .

« وقد ذكره شيخنا في القسم الأخير من معجمه ، الذي وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقرئى) النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصاً في تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

ويذكر ابن حجر أيضاً في ديباجة كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » المقرئى ضمن مصادره ، ويصفه بقوله : « رفيق الإمام الأوحى المطلع تقي الدين المقرئى ... »^(١) .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره ، وانتقاصه لأقذارهم ، ونقده لجهودهم ، لم تقف عند المقرئى ولم تقتصر عليه ؛ فزاه في « الضوء اللامع » بهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه ، بل لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعريضه^(٢) . وقد أثار السخاوى بجملاته هذه دوائر التفكير في عصره ، ونشبت بينه وبين غير واحد من أعلام العصر ، مغارك قلمية ملتهبة ، ولا سيما جلال الدين السيوطى ؛ فقد اضطرم الجدل بينهما حيناً ، وتبادلا مر الحملات والنهم ، ونسب كل منهما الآخر إلى الاختلاس والنقل ؛ ووصف السيوطى معجم السخاوى في مقامة شديدة كتبها للرد عليه في قوله : « ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصّب لأكل لحومهم خيواناً ، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعراض هي الأغراض »^(٣) .

وهكذا يبدو اتهام السخاوى للمقرئى وانتقاصه لجهوده التاريخى باطلا ، يطبعه التحامل والتناقض ، وتدحضه الحقائق والوقائع المادية ؛ بل يبدو السخاوى أشد تحاملاً وتناقضاً إذا علمنا أنه ، وهو ينتقص مجهود المقرئى ويزيفه ، لا يرى بأساً من الاعتماد عليه والتنويه به في مقدمة « الضوء اللامع » .

ولم يلق هذا الاتهام كبير اهتمام في دوائر البحث الحديث ، غير أن الأستاذ

(١) راجع ديباجة رفع الإصر (المنشور بناية وزارة التربية ١٩٥٧) القسم الأول ص ٢ .

(٢) تراجع في الضوء اللامع تراجم ابن خلدون ، وأبي المحاسن بن تقي بركى ، وأبقاض ، ففيها أمثلة واضحة من تحامل السخاوى .

(٣) أسمى السيوطى هذه المقامة : « الكاوى على تاريخ السخاوى » وهي مخطوط بدار الكتب (رقم ١٥١٠ أدب) . وسنعود إلى ذلك في ترجمة السيوطى .

بروكلمان Brockelmann قد أشار إليه في ترجمته للمقریزی في دائرة المعارف الإسلامية^(١)، حيث وصف «الخطط» بأنها أهم آثار المقریزی، ثم قال: «ولكن الظاهر أنه نقل معظم ما لم ينسب النقل فيه، عن كتاب للأوحدی، ظفر به على قول السخاوی، وهو قول حسن التأیید». ويعتقد المستشرق جيسٲ من جهة أخرى، أن المقریزی قد نقل في خططه شذوراً من الأوحدی دون الإسناد إليه^(٢). على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلاً لتأیید هذا الرأي، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقریزی ومجهوده. وبالعكس فإن البحث الحديث يكبر مجهود المقریزی ويحله المقام الأول في تراث التاريخ الإسلامي. بقي فرض واحد يمكن الأخذ به، وهو أن المقریزی ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدی؛ وهو ما يشير إليه السخاوی في ترجمة الأوحدی حيث يقول: «وفي ترجمته في عقود المقریزی فوائد، واعترف (أى المقریزی) بانتفاعه بمسوداته في الخطط». هذا إذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للمقریزی، لأنه لم يصل إلینا من عقود المقریزی - أو درر العقود الفريدة - سوى قطعة ضئيلة. وقد نميل إلى التسليم بهذا الفرض، بل هو في رأينا يقوى الریة في اتهام السخاوی، لأن هذا الاعتراف، إن صح، فلنما يشهد لصاحبه بالأمانة والصرامة. وشتان ما بين الاختلاس والانتفاع.

ومن جهة أخرى فإن ما لعل المقریزی قد انتفع به من «مسودات» الأوحدی لا يعدو اليسير التافه بالنسبة لمجموع الخطط. فقد رأينا في استعراض مصادر المقریزی أن ما كتبه عن الخطط عصره، وما اقتبسه بطريق الإسناد، يستغرق معظم مجهوده في الخطط، وأن الباقي المرسل مما لا نسبة فيه يشغل فيها قسماً صغيراً جداً، ومع ذلك ففي وسعنا أن نتعرف في هذا القسم أيضاً، على كثير كثير من المصادر التي نقل عنها المقریزی بطريق التلخيص والاقتباس، ومعظمها يرجع إلى مجهود ابن عبد الحكم والكندی وابن زولاق.

والخلاصة أن هذا الإتهام الذى يلح السخاوی في نسبته لمؤرخ الخطط، لا يثير

Ency. de L'Islam-Art. Makrizi (١)

(٢) المستشرق جيسٲ في مقدمته لكتاب تسمية الولاة والقضاة الكندی (ص ٤٨)، بيد أنه في مقاله المشار إليه فيما تقدم (J. R. A. S.) سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣ وما بعدها، يبحث مصادر المقریزی في الخطط ويحللها تحليلًا وافياً، ويشيد بمجهوده، وينزه بأهميته ونفاسته.

في نظرنا ذرة من الريب في عظمة المجهود التاريخي الذي تقدمه إلينا « الخطط » ،
وفي روعته وطرافته .

إن السخاوي كاتب ومحدث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع ، قوى البيان
والحجة . ولكن التحامل ، وربما الافتراء ، يشوب هنا نقده ؛ والظواهر
والأدلة تنهض كلها لتهدم زعمه .

يقول العلامة المستشرق الروسي إجناتىوس كرانسكوفسكى ، معلقاً على هذه
المسألة الشائكة : « هذا وقد وجد رأي السخاوي عن المقرئى بعض التعصيد لدى
جولدميهر ، وبروكلمان . بيد أن هذا لا يعنى بأى حال اعتبار كتاب « الخطط »
اختلاساً لكتاب الأوحدي . وقد أنضج تلك المسألة كلها لتحليل دقيق وفريد ،
العلامة المصري المعاصر محمد عبد الله عنان ، وخرج من ذلك بنتائج حازت
القبول لدى الجميع » (١) .

(١) « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » المترجم إلى العربية بقلم الأستاذ صلاح الدين عثمان
هاشم - القسم الثاني - ص ٤٨٥ .

الفصل الخامس

الحافظ ابن حجر العسقلاني

(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) : (١٣٦١ - ١٤٤٨ م)

كان الحافظ ابن حجر قطباً من أقطاب الحديث والعلوم الدينية ، وهو أجدر بأن يوضع في ثبوت أكابر الحفاظ والمحدثين منه في ثبوت المؤرخين . ومع ذلك فقد كان ابن حجر مؤرخاً في نفس الوقت ، وله تراث تاريخي قيم . ومن المحقق أنه اشتق صفات المؤرخ الثبت من براعته كمحدث ، بلغ النروة في شئون الجرح والتعديل ، وفي تحقيق الرواية ونسبة الحديث .

ونود أن نقول بهذه المناسبة ، إن الحديث والتاريخ علمان متلازمان في الرواية الإسلامية ، وإن كثيراً من أكابر المؤرخين المسلمين ، هم في نفس الوقت من أكابر المحدثين ، ويكفي أن نذكر على سبيل التمثيل ابن جرير الطبري ، وابن الأثير الجزري ، والذهبي ، وابن عساكر ، وابن خلدون ، وابن حجر ، والمقرئزي ، والسخاوي ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً من علماء الحديث ، ومنهم من ينظم في سلك أكابر الحفاظ ، ومن ثم فقد كانت صفة الحفاظ التي توجت بها براعة ابن حجر في الحديث ، تضاف في نفس الوقت على صفته كمؤرخ ، براعة خاصة في الثبوت والتحقيق .

وهو قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن أحمد المسقلاني الأصل ، ثم المصري المولد والنشأة ، القاهري الدار ، ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آباءه^(١) . ولد بمصر العتيقة (القسطنطية) في ١٢ شعبان سنة ٧٧٣ هـ (١٣٦٢ م) ، ونشأ يتيماً ، حيث مات أبواه بالتعاقب وهو طفل ، فكفله وصى والده زكي الدين الخروبي كبير التجار بمصر ؛ وحينما رحل هذا الوصي إلى الحج سنة أربع وثمانين ، استصحب معه

(١) الفهرست اللامع ، في ترجمة ابن حجر ج ٢ ص ٣٦ .

الصبي ، وهو في نحو الثانية عشرة من عمره . ودرس ابن حجر بمكة وهو في هذه السن المبكرة الحديث على بعض علمائها . ولما عاد إلى القاهرة درس على جماعة كبيرة من علماء عصره ، وفي مقدمتهم شمس الدين القطان ، وبرهان الدين الإبناسي ، وسراج الدين بن الملقن ، ونور الدين الآدمي ، وسراج الدين البلقيني ، وشمس الدين الغماري ، والعز بن جماعة ، وأبو إسحاق التنوخي ، وأبو الفرج ابن الشعنة ، وزين الدين العراقي ، والبدر البشتكي ، والشهاب البوصيري ، وغيرهم من أعلام العصر .

ودرس ابن حجر الفقه واللغة وعلوم القرآن . وشغف بالأخص بالحديث « وأقبل عليه بكلية وطلبه من سنة ثلاث وتسعين » (١) . وتحول من منزله القديم إلى مدينة القاهرة وسكنها قبل نهاية القرن (٢) . وقام بعدة رحلات دراسية في البلاد المصرية والشامية والحجازية ، وفي اليمن ، وأخذ كثيراً . واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم والمعول في المشكلات عليهم ، ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره . وكان أخص أساتذته « التنوخي في معرفة القراءات ، والعراقي في معرفة علوم الحديث ومتعلقاته ، والميشي في حفظ المتن ، واستحضارها ، والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع ، وابن الملقن في كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزآبادي في حفظ اللغة واطلاعه عليها ، والغماري في معرفة العربية ومتعلقاتها ، والعز بن جماعة في تفتنه في علوم كثيرة » (٣) .

والنكب ابن حجر على الحديث ، وخصه بجهوده « مطالعة وقراءة ، وإقراء ، وتصنيفاً وإفتاء » . وبلغت مصنفاته في الحديث والفقه والتفسير ، نحو مائة وخمسين مصنفًا . وكان من ألمعها كتاب « فتح الباري بشرح البخاري » وهو مؤلف يصفه السخاوي بأنه لم يكن له نظير ، حتى أنه انتشر في الآفاق وتساوق إلى طلبه سائر ملوك الأطراف (٤) . ويقول التالسيوطي بهذه المناسبة إن ابن حجر قد انتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها ، فلم يكن في عصره حافظ سواه (٥) . ووضع ابن حجر كتباً عديدة أخرى في الفقه والحديث

(١) السخاوي في الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) كانت دار ابن حجر الجديدة تقع بالقرب من المدرسة المنكوتيرية بجارة بهاء الدين .

(٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٤) الضوء اللامع ص ٣٨ . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٧٠ .

وعلم القرآن ، ومن ذلك كتاب « الإتيان في فضائل القرآن » . وتعليق التعليق ، وتهذيب التهذيب ، والآيات النيرات في معرفة الخوارق والمعجزات ، وبلوغ المرام بأدلة الأحكام ، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، ولسان الميزان ، واختصار المكفرة للذنوب ، وشفاء الغلل في بيان العلل ، وغيرها مما يضيق المقام بسرده . وقد نشر معظم هذه الكتب .

وتولى ابن حجر منصب القضاء ، كمعظم فقهاء عصره ، وكان غير راغب في توليه حينما ندب للنيابة فيه ، ولكنه قبل أخيراً حينما ندب لرياسته والاستقلال به . وكان ذلك في سنة ٨٢٧ هـ . وقد حدث لابن حجر خلال توليه ، ما حدث لسلفه ابن خلدون من قبل ، حين ندب لتولى قضاء المملوكية ، من توالى التعيين والعزل . وهكذا عين ابن حجر لمنصب القضاء ، وصرف عنه أو استقال منه غير مرة . ومن الغريب أن يرجع ذلك ، إلى نفس البواحي والظروف ، إلى منافسة الأقران ، ودسائس الحاشية السلطانية من جهة ، وإلى تدخل الأكابر وشفاعاتهم من جهة أخرى . وكان ابن حجر يتبرم بالقضاء ، حسبما يقول لنا السخاوي ، لما اشتد عليه عتب الأكابر بعدم إجابة شفاعاتهم ، واحتياجه للمدبرة صغيرهم وكبيرهم . واستمر ابن حجر في ولايته للقضاء إحدى وعشرين سنة ، ثم زهد فيه « بعد ما توالى عليه فيه من الإنكار والحن » ، وصرف عنه نهائياً في أوائل سنة ٨٥٢ هـ أعنى قبل وفاته بأشهر قلائل (١) .

وكان ابن حجر يشغل في نفس الوقت عدة من مناصب التدريس الهامة ، فقد درس في الحسينية والمنصورية والجلالية والشيخونية والصالحية والمؤيدية والصلاحية وغيرها من المدارس الشهيرة ، وولى مشيخة البيرونية ، وولى الإفتاء بدار العدل ، والخطابة بالجامع الأزهر ، ثم بجامع عمرو .

واشتهر ذكر ابن حجر ، وبعد صيته ، وكثرت طلبته وارتحل الأئمة إليه ، وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى ، قال السخاوي : « وطارت فتواه التي لا يمكن دخولها تحت الحصر في الآفاق ، وحُدث بأكثر مروياته خصوصاً المطولات منها . كل ذلك مع شدة تواضعه وحلمه وبهائه ، وتحريه في مأكله ومشربه وملبسه وصيامه وقيامه ، وبذله وحسن عشيرته ، ومزيد مداراته ، ولذيذ محاضراته ،

ورضى أخلاقه ، وميله لأهل الفضائل ، وإنصافه في البحث ، ورجوعه إلى الحق ، وخصاله التي لم تجتمع لأحد من أهل عصره ^(١) .
وكان ابن حجر إلى جانب تفضله في الحديث والفقه ، أديباً كبيراً ، وشاعراً ينظم الجيد من الشعر ، وقد أورد لنا تلميذه السخاوي من نظمه قوله :

خليلي وليّ العمر منا ولم تنب وننوي فعال الصالحات ولكننا
فحقي متى نبني بيوتاً مشيدة وأعمارنا منها تهد وما تبني
وقوله :

لقد آن أن نتق خالقاً إليه المآب ومنه النشور
فنحن لصرف الردي ما لنا جميعاً من الموت واق نصير
ومن نظمه قوله من قصيدة طويلة في المديح النبوى :

إن كنت تنكر حباً زادني كلفاً حسبي الذي قد جرى من مدمع وكفا
وإن شككت فسل عاذلي شجني هل بت أشكو الأسى والبث والأسفا
كدرت عيشاً تقضى في بعادكم وراق مني نسيب فيكم وصفا
سرتم وخلفتموني الحى ميت هوى لولا رجاء تلافيكم لقد تلفا
وبلغ ابن حجر في أواخر حياته أوج مجده العلمى ، وتوفى عن سن عالية في أواخر شهر ذى الحجة سنة ٨٥٢ هـ . وكانت جنازته حافلة ، وشهد الصلاة عليه السلطان والخليفة وجمهرة من الأكابر والعظماء .

- ٢ -

هذا عن ابن حجر المحدث والفقير . ويبقى أن نتحدث عن ابن حجر المؤرخ . لقد ترك لنا ابن حجر ، تراثاً تاريخياً هاماً ، يضعه في صف الأعلام من مؤرخى مصر الإسلامية ، وقد وضعه السيوطى بالفعل في ثبت المؤرخين ، بعد ما وضعه في ثبت الحفاظ ^(٢) .

ويحتوى هذا التراث على ثلاثة مؤلفات هامة :
أولها ، كتاب « إنباء الغمر بأنباء العمر » ، وهو مؤلف ضمهم يقع في

(١) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٦ .

مجلدين كبيرين ، يضمنان نحو ألف صفحة كبيرة ، ويقدم إلينا ابن حجر في مقدمته ، مؤلفه ، وبرناجه في تأليفه ، ومصادره التي اعتمد عليها ، على النحو الآتي :

« هذا تعليق جمعت [فيه] حوادث الزمان الذي أدركته منذ مولدى سنة ثلاث وسبعين وسبع مائة وهلم جراً ، مفصلاً في كل سنة ، عن وفيات الأعيان ، مستوعباً لرواة الحديث ، خصوصاً من لقيته وأجازنى . وغالب ما أورد فيه ما شاهدته أو تلقفته ممن أرجع إليه ، أو وجدته بخط من أثق به من مشايخي ورفقتى ، كالتاريخ الكبير للشيخ ناصر الدين ابن الفرات ، وقد سمعت عليه جملة من الحديث ، وصارم الدين ابن دقاق ، وقد اجتمعت به كثيراً ، وغالب ما أنقله من خطه ومن خط ابن الفرات ، عن الحافظ العلامة شهاب الدين أحمد ابن علاء الدين حجبى الدمشقى ، وقد سمعت منه وسمع منى ، والفاضل البارع الملقب تقي الدين أحمد بن على المقرئى ، والحافظ العالم شيخ الحرم تقي الدين بن محمد بن أحمد بن على الفاسى القاضى المالكى بمكة . والحافظ المكثّر صلاح الدين خليل بن محمد الإقفهسى وغيرهم . وطالعت عليه تاريخ القاضى بدر الدين محمود العيى . وذكر أن الحافظ عماد الدين ابن كثير عمدته في تاريخه ، وهو كما قال . لكن منذ قطع ابن كثير ، صارت عمدته على تاريخ ابن دقاق حتى كان يكتب منه الورقة الكاملة متوالية ، وربما قلده ، وفيما يتهم منه حتى اللحن الظاهر . وأعجب منه أن ابن دقاق يذكر في بعض الحوادث ما يدل أنه شاهدها ، فيكتب البدر كلامه بعينه بما تضمنه ، وتكون تلك الحادثة وقعت بمصر وهو بعد في عنتاب . ولم أتشغل بتتبع عثراته ، بل كتبت منه ما ليس عندى ، بما أظن أنه اطلع عليه من الأمور التي كنا نغيب عنها ويحضرها .

« وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث ، أن يكون ذيلًا على تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير ، فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة . ومن حيث الوفيات ، أن يكون ذيلًا على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين بن رافع ، فلئن انتهت إلى أوائل هذه السنة » (١).

(١) من ديباجة كتاب « إنباء النسر بأنباء العمر » من نسخته المخطوطة المحفوظة بمكتبة الجامع الأزهر (برقم ١٠٦٦٦ عمومية) . وهي نسخة تقع في مجلدين كبيرين يحتوى أولهما على ٣٠٨ =

وقد كان المفروض من مشروع الكتاب ، وهو تدوين حوادث العمر المشاهدة أو المعاصرة ، أن يقتصر على تاريخ مصر ، ولكن الواقع أنه ، وإن كان يحيط إحاطة تامة بحوادث التاريخ المصرى فى الحقبة التى يتناولها (٧٧٣ - ٨٥٠ هـ) ، فإنه مع ذلك يتعدى إلى تدوين ما يقع فى الأمم الإسلامية الأخرى ، من التركستان إلى المغرب ، فيذكر لنا تاريخ التتار فى سمرقند وخراسان وفارس ، ويتبسط فى ذكر تاريخ تيمورلنك وفتوحاته ، وتاريخ ممالك الجزيرة وآسيا الصغرى مثل مملكة الروم «الترك العثمانيين» وإمارات أرزن ، وماردين ، ونصيبين ، وحصن كيفا ، ومملكة العراق . ثم يذكر لنا تاريخ أُم الغرب الإسلامى ، مثل مملكة بنى مرين فى المغرب ، ومملكة بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبنى الأحمر فى الأندلس وهكذا ، هذا عدا ما يذكره من حوادث مكة والمدينة واليمن . وهو يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام فى تدوين الحوادث . ثم يُتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات . وتراجم الوفيات قصيرة ، والمطول منها قليل . بيد أنه من الواضح أن ابن حجر يضمن على حوادث التاريخ المصرى عناية خاصة ، ويفضض فى ذكرها لإفاضة شافية ، ولا سيما ما تعلق منها بحوادث مصر الداخلية وحوادث السلطنة وانتقالاتها بنوع خاص ؛ فهو مثلاً يقدم إلينا رواية مسهبه ضافية ، عن حوادث الفتنة التى اضطربت فى سنة ٧٩١ هـ بخروج الأمير بلبغا الناصرى فى الشام ، ضد السلطان الظاهر برقوق ، وما ترتب على ذلك من خلع الظاهر ، واضطراب أمر السلطنة بعض الوقت . ثم هو فى ثبت الوفيات يذكر أحياناً وفيات الأعيان من غير المصرين ، مثل الترك والمغاربة وغيرهم ، وقد يذكر وفيات النساء أحياناً .

ويعتبر كتاب « إنباء القمير » مصدراً قيماً من مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى الحقبة التى يتناولها ؛ وقد كان ابن حجر بمركزه العلمى الرفيع ، وصلاته

= لوحة مزدوجة من القطع الكبير . وينتهى بحوادث سنة ٨١١ هـ . ويحتوى الثانى حل ٢٢١ لوحة كبيرة مزدوجة وينتهى بحوادث سنة ٨٥٠ هـ ووفياتها . والنسخة جيدة الحفظ بالرغم من أنها كثبتت حسبما سجل فى نهاية المجلد الثانى فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثمانمائة . وقد كتب هذا المجلد فيما يبدو بخط آخر غير خط المجلد الأول . وقد نقلت داو الكتب المصرية من هذه النسخة نسخة حديثة بتاريخ ١٣٢٩ هـ . وتحفظ بها بوقم ٢٤٧٦ تاريخ . هذا وقد بدى بإخراج « إنباء القمير » بمدينة حيدر أباد بالهند ، وصدر منه حتى اليوم مجلداً .

العديدة مع أكابر رجال الدولة ، في مركز يمكنه من تتبع الحوادث العامة ، ولا سيما حوادث السلطنة ، بكثير من الدقة والتحقيق .

وثانيها ، كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، وهو معجم كبير ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري ، من سنة إحدى وسبعائة إلى آخر سنة ثمان مائة « من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء » ، وذلك سواء من مصر أو مختلف البلاد الإسلامية الأخرى ، وعنى فيه مؤلفه عناية خاصة برواة الحديث . ويعدد لنا ابن حجر مصادره في ديباجته ، وفي مقدمتها « أعيان النصر » للصفدي و « مجاني العصر » لأبي حيان ، و « ذيل النبلاء » للمحافظ الذهبي ، و « الوفيات » للعلامة تقي الدين بن رافع ، ومما جمعه « صاحبنا » تقي الدين المقرئ في أخبار الدولة المصرية وخططها إلى غير ذلك (١) .

وثالثها ، كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » ، وهو معجم لقضاة مصر ، الذين تولوا قضاءها منذ الفتح الإسلامي إلى آخر القرن الثامن الهجري . وقد اعتمد ابن حجر في تأليفه على من سبقه في معالجة هذا الموضوع ، وبالأخص على كتاب أبي عمر الكندي « تسمية قضاة مصر » ، وذيله لأبي الحسن بن زولاق ، ثم على سلسلة من التواريخ المتعاقبة ، ذكرها ابن حجر في مقدمته . وقد استفاد ابن حجر بنوع خاص من الإطلاع على كتاب المقرئ « المقتى » في تاريخ علماء مصر . واسترشد في وضع كتابه بأرجوزة وضعها شمس الدين محمد بن دانيال الكحال فيمن ولي القضاء بمصر ، فوضع كتابه لترجمة من ورد « ذكرهم في الرجز المذكور » (٢) . وقد رتب ابن حجر كتابه أولاً على نظام الطبقات والسنين ، ولكن تلميذه العز الحنبلي رتب بعد وفاته على حروف المعجم ، وأصلح كثيراً من أخطائه .

وقد كتب السخاوي ذيلًا على كتاب شيخه « رفع الإصر » ، تناول فيه

(١) وقد صدر كتاب « الدرر الكامنة » عن مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد بالهند في أربعة مجلدات كبيرة (سنة ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ) . ونشر به ذلك بمدينة القاهرة .

(٢) ابن حجر في مقدمة كتاب رفع الإصر المطبوع ص ١ .

تراجم القضاة المصريين حيث وقف ابن حجر وسماه « ذيل رفع الإصر » .
ولابن حجر عدة تصانيف أخرى في التاريخ منها كتابه « الإصابة في
تمييز الصحابة » ، وهو كتاب يدل اسمه على موضوعه . وقد رتب ابن حجر على
أربعة أقسام في تصنيف الصحابة منذ المخضرمين منهم ، الذين حضروا الجاهلية
والإسلام ، وتتبع فيه من تنطبق عليهم صفة الصحابة الحقيقية ، ومنها « الإعلام
بمن ولى مصر في الإسلام » ، و « طبقات الحفاظ » ، ومختصر « البداية والنهاية »
لابن كثير .

ويكتب ابن حجر التاريخ بطريقة عادية غير ناقدة ، متبعاً على الأغلب
طريقة الرواية المجردة . بيد أنه يتخذ من الترجمة أحياناً سبيلاً إلى النقد والمهاجمة
على النحو الذى توسع فيه فيما بعد تلميذه السخاوى . ونستطيع أن نقدم مثلاً
على ذلك ترجمته للفيلسوف المؤرخ ابن خلدون^(١) ، فهو يهاجمه ويحاول أن
ينتقص من قدر مقدمته ، وينقل في حقه أقوالاً لاذعة للجمال البشيشى وغيره ،
وهى التى نقلها تلميذه السخاوى فيما بعد في ترجمة ابن خلدون في « الضوء اللامع » .
كما أنه ، بالرغم من ثنائه على المقرئى في مقدمة كتابه « رفع الإصر » ، يحاول
أن ينتقص من مجهوده التاريخى ، ويرميه بأنه قام باختلاس أثره عن « الخطط »
من مسودة ظفر بها للشهاب الأوحدى ، وهى التهمة التى يكررها ويبالغ في
تصويرها السخاوى ، ويسندها إلى شيخه ابن حجر ، وذلك حسبما سبق أن
فصلناه في موضعه .

وقد كتب لنا ابن حجر عن نفسه ترجمة موجزة في كتابه « رفع الإصر »^(٢) وقدم
لنا السخاوى عنه ترجمة حسنة في « الضوء اللامع »^(٣) . ثم عاد بعد ذلك وخصه
بترجمة مطولة وافية في مؤلف خاص أسماه « الجواهر والدرر في ترجمة شيخ
الإسلام ابن حجر » . وهى ترجمة حافلة ، كما يصفها مؤلفها السخاوى ، وتقع
في مجلدين كبيرين^(٤) .

(١) راجع هذه الترجمة في رفع الإصر القسم الثانى ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٢) رفع الإصر ، القسم الأول ، ص ٥٨ - ٨٨ .

(٣) الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٦ - ٤٠ .

(٤) وتوجد منها نسخة خطية مصورة بدار الكتب المصرية ، منقولة عن نسخة مكتبة

باريس الوطنية ، وتحفظ برقم ٤٧٦٨ تاريخ .

وقد أورد لنا السخاوى فى هذه الترجمة وصفاً ممتعاً لشخص شيخه ابن حجر يقول فيه : « وأما شيء من أوصافه : فكان - رحمه الله - فوق الرتبة ، أبيض اللون ، منور الصورة ، كث اللحية ، مليح الشكل ، صحيح السمع والبصر ، ثابت الأسنان نقيها ، صغير الفم ، قوى البنية ، على الهمة ، خفيف المشية ، ولو عند إقباله على الملوك ، خفيف الوضوء فى تمام سريع ، سريع عقد النية ، بل يعيب على من يتردد فيها ، وكذا من يبالغ فى إخراج الحروف بتقطيع الكلمة ، لا يتأنق فى مأكله ومشربه ولا فى آئنته ، ويأكل اليسير من الغذاء ، لكن كان يتقوت بالسكر ، ويميل إلى قصب السكر ميلاً قوياً ، ويكثر النقل ، لا يزال بجانبه علبة فيها شيء كثير منه ، وكان لا يتأنق فى الرفيع من الثياب ، قصير الثياب ، حسن العمة ، ظريف العذبة ، وكذا لا يتأنق فى ألفاظه ، بل يعيب على من تقعّر فى كلامه » .

وهو نموذج جميل لشيوخ هذا العصر .

الفصل السادس

أبو المحاسن بن تغرى بردى

مؤرخ مصر ومؤرخ النيل

(٨١٢ - ٨٧٤ هـ) : (١٤٠٩ - ١٤٦٩ م)

- ١ -

كان القرن التاسع الهجرى عصرًا ذهبياً لتدوين تاريخ مصر القومى ؛ فقيه أزهت الرواية التاريخية أيما إزهار ، وأسبغت على تاريخ مصر الإسلامية قوة وحياة وبهاء لم يعرفها من قبل ، وسلكت فى البحث مناهج جديدة ، وعينت بتعريف جوانب من المجتمع وأطواره وعواطفه وخلاله ، عناية لم تبدها من قبل ، وأشربت روحاً جديدة من النقد ، وامتازت بالتوسع والإفاضة والغزارة . بيد أن أهم ما تمتاز به هذه المدرسة التاريخية الزاهرة بنوع خاص ، هو مصريتها الواضحة ، فإن أقطابها جميعاً ، مصريون ولدوا وعاشوا فى مصر ؛ وقد خلفت أجل آثارها عن تاريخ مصر وشعبها ونيلها وخطوطها . وهو أثر من آثار النزعة القومية التى كانت قد غلبت يومئذ على التفكير المصرى . وكانت مصر قد انتهت إلى نوع من الرياسة فى التفكير الإسلامى كنتيجة لتفوقها السياسى والاجتماعى على غيرها من الدول الإسلامية . وكانت القاهرة فى الواقع آخر وأزهر حمى لهذا التفكير بعد أن عفت رياسة بغداد ، وتضاءلت رياسة غرناطة . ولكن مصر كانت تطبع التفكير والآداب الإسلامية يومئذ بطابعها الخاص . وأشد ما يبدو هذا اللون المصرى فى جهود هذه الرسالة التاريخية الباهرة ، التى افتتحت بالمقرئى واختتمت بابن إياس ؛ ولبت مدى قرن بأسره تفيض على تاريخ مصر الإسلامية أغزر وأنفس الآثار والوثائق .

وقد عرضنا فى فصل سابق بالتحليل والنقد إلى مجهود المقرئى أستاذ هذه المدرسة التاريخية الجليلة . ونريد أن نعى فى هذا الفصل بمجهود علم آخر من أعلامها ، وقف حياته على التنقيب فى تاريخ مصر الإسلامية ، واختص بالتأريخ

لنيلها ، ووهبنا قلمه الخصب ، تراثاً حافلاً من الآثار الجليلية ، هي وحدها ثروة عظيمة في مصادر تاريخنا القومى . هذا المؤرخ الكبير هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى ، تلميذ المقرئى ، وأعظم أساتيد مدرسته من بعده ، وهو الذى ورث دونهم غزائره وشاسع بحثه ، وإن لم يرث كل بيانه وقوة عرضه ، وبهر روايته . كان المقرئى مؤرخاً عظيماً مبتدعاً ، جم الطرافة والابتكار ، يقرأ في نفسية المجتمع الذى عاش فيه ، وفي حركاته وسكناته وأحواله وعاداته ، معظم الصور الاجتماعية ، التى تزين روايته ، وترفعها إلى صف النقد التاريخى الممتع ، وكان له من عواصف حياته الحكومية والفكرية ، قوة الحكم على الأشخاص والأشياء ، وجرأة التقدير . ولكن نشأة ابن تغرى بردى ، والحياة الهادئة الناعمة التى هيئت له منذ طفولته ، لم تكن تتسع إلا إلى التنقيب الهادئ ، أو بالحرى إلى الرواية المسندة ، فكان مؤرخاً بهواه وفطرته ، وكان رواية عظيماً يغلب لديه شغف الاطلاع والبحث على الابتكار والطرافة ، وتغلب الرواية في عرضه على التحليل والنقد .

ولد جمال الدين أبو المحاسن يوسف في القاهرة في حى الأمراء ، على مقربة من القلعة ، في أواخر سنة ٨١٢ هـ (١) (١٤٠٨ م) ، في عهد الملك الظاهر برقوق . وكان أبوه مملوكاً ، روى المجلس على قوله (٢) ، اشتراه الملك الظاهر وأعتقه ، وقربه لذكائه ، ورفع تباعاً إلى أرق المناصب ، حتى صار أتابكاً للعسكر (أميراً للسلاح) وهى أرفع مناصب الجيش ، واختاره مع من اختار لوصاية المملكة بعد وفاته . وفي أوائل عهد الملك الناصر ابن الظاهر وخلفه ، ثار نائب الشام ، وحالفه على الثورة جماعة من قادة الجيش منهم تغرى بردى ، فحاربهم الناصر ومزقهم ، وفر تغرى بردى واختفى حيناً في المشرق . وفي أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ ، ثم عفا عنه واستقدمه في

(١) ذكر السخاوى في الفوائد اللامع أن مولد المؤرخ كان في شوال سنة ٨١٣ هـ . وذكر ابن إياس أيضاً أن مولده كان في تلك السنة . ولكن الترجمة التى دونها أحمد بن حسين التركمانى سكرتير المؤرخ نقلت من روايته والى ذيل كتابه (المنهل السافى) صريحة في أن مولده كان في سنة ٨١٢ هـ ، وهى الرواية التى نفضلها .

(٢) ترجم المؤرخ أباه في كتابه (المنهل السافى) أيضاً تحت حرف التاء .

سنة ٨٠٨ ، وأنعم عليه وعينه قائداً للميسرة . وتوفي تغرى بردى فى فاتحة سنة ٨١٥ ، وولده المؤرخ طفلاً لم يبلغ فطامه ، فرباه زوج أخته الثانية قاضى القضاة ناصر الدين بن محمد العديم ، فلما توفى سنة ٨١٥ ، تولى تربيته زوجها الثانى قاضى القضاة جلال الدين البلقينى . وحفظ أبو المحاسن القرآن فى صغره ، ودرس الفقه والكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام هذا العصر منهم ابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين العينى ، وشهاب الدين بن عربشاه مؤرخ تيهورلنك . غير أنه شغف بالتاريخ منذ حداثة . وكان من حسن طالعه أن درس على المقرئى أعظم مؤرخى عصره ، وصداقه ولازمه ، واقتبس من مناهجه وأساليبه فى البحث والرواية . ودرس التاريخ أيضاً على العينى . وبدأ تدوين الحوادث منذ سنة أربعين ، ولبت من بعد المقرئى زهاء ثلث قرن ينهض بأعباء روايته الغزيرة الشاسعة . وكانت حياته الناعمة الهادئة ، ونشأته فى حجر الإمارة والجاه والثراء ، واتصاله بالمصاهرة والصداقة مع رجالات الدولة وكبراء البلاط ، من أهم العوامل التى ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدرس ، والانقطاع إلى التنقيب والكتابة ، وتعرف الشؤون والنظم ، والوقوف على أسرار الدولة والبلاط فى عصره ، الذى تعاقب فيه على عرش مصر أكثر من عشرة سلاطين .

فى هذا الوسط الهادئ تفتحت مواهب أبى المحاسن ، ودرج قلمه ، وأنبع بجهته . وكما أن القاهرة وخططها وآثارها الحبيدة ، ومجمعاتها الزاهرة ، شغفت أستاذه المقرئى حباً ، وكانت أخصب ميدان لروايته وتحقيقه ، فكذلك كانت سيرة مصر ونيهلها أحب غذاء لنشاطه ، وألد مادة لتأملاته ، ومن ثم كان قلمه وقفاً على تحقيق هذه السيرة ، وتدوينها فى مختلف الصور . كان أبو المحاسن يجيش بنفس النزعة القومية التى جاش بها أستاذه من قبل وجعلته إماماً لمدرسة تاريخية ؛ مصرية محضة ، يستغرق تاريخ مصر معظم جهودها . والمقرئى صريح فى الإعراب عن هذه العاطفة الوطنية ، فهو فى ديباجة الخطط يشيد بذكر مصر « مسقط رأسه ، وملعب أترابه ومجمع ناسه ، وجوؤه الذى ربي جناحه فى وكره » . ولكن أبى المحاسن وإن كانت تسوقه نفس العاطفة ، ينظر إليها من طريق آخر ، فصر تمتاز فى نظره على كل بلد « بخدمة الحرمين الشريفين » ، وهو ما يحمله على

تأليف « النجوم الزاهرة »^(١) ، موسوعته الكبرى في تاريخ مصر الإسلامية . وقد رأينا أن هذا المؤرخ المصرى ، الذى ولد وعاش فى القاهرة ، وثنى إلى غيراتها الثواء الأخير ، وشغف بسيرها وأخبارها ، ينتمى من جهة أبيه إلى أصل رومى مجهول ، تركى أو أرمى أو يونانى^(٢) ، ومع ذلك فقد نبغ أبوه وازدهر فى دولة السلاطين ، وأنجب مؤرخاً من أعظم مؤرخى مصر الإسلامية . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان الإسلام يكنه يومئذ ، من حيوية تطبع الأحداث فيه بطابعها القوى ، وما كانت القومية المصرية تحويه من عصبية أثيلة تدمج بها فيها كل العناصر الدخيلة من عرب ، وترك ، وشراكسة وغيرهم . بيد أن المؤلف فخور بأصله ونسبه ، فخور بأبيه ، يترجمه فى معجم تراجمه (المنهل الصافى) ولكن على لسان غيره ، تحاشياً من أن يفيض فى مدحه بنفسه ، وأن يتهم من أجل ذلك بالتحيز ، ويختتم ترجمته بقوله : « ولم أظن فى ذلك خوفاً من قول القائل ، وقد ذكره غالب أهل التاريخ فى أماكن لا تحصر ، وأخبار الناس معروفة والأصول محفوظة ... »^(٣) . وقد استقى أبو المحاسن من هذه النشأة ذاتها ، بعض خلاله ومواهبه ، فقد رعى فى التركية^(٤) ، وهى لغة البلاط والخاصة والقادة يومئذ ، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى دقائق الدولة ، والسياسة ، وأن يفهم نفسية هذا البلاط التركى أو الشركسى ، الذى تبوأ ملك مصر منذ بعيد ، وأدجمته القومية المصرية فى أعماقها ، وأن يتعرف أحوال طوائف الممالك المختلفة ، التى كانت تموج بها مصر يومئذ . وهى معرفة يدلل عليها فى أواخر « النجوم الزاهرة » تدليلاً واضحاً .

وكان أبو المحاسن ، فوق غزارته فى المباحث التاريخية وبراعته فى الرواية ، يأخذ بحظ لا بأس به من بعض العلوم الأخرى ولا سيما الحديث والفقه ، وقد درسهما على أعظم الحفاظ والفقهاء فى عصره ، وكذلك البيان وقد تلقاه على

(١) راجع مقدمة النجوم الزاهرة . (طبع دار الكتب) ج ١ ص ٢ .

(٢) يصعب أن نحدد معنى كلمة (رومى) فى هذا العهد ، فهى أصلاً تطلق على أهل بلاد الروم أو الأناضول . ولكنها قد تطلق بطريق التوسع على سكان البلاد المجاورة مثل ارمينية وربما القوقاز ، وتطلق فى التاريخ القديمة ، أعنى قبل السلاجقة على اليونانيين والبيزنطيين .

(٣) المنهل الصافى تحت حرف التاء ، النسخة الفوتوغرافية بدار الكتب المصرية .

(٤) السخاوى فى النسب واللامع (فى ترجمة أبي المحاسن) . وقد نقلت فى بداية النجوم الزاهرة .

أمرائه يومئذ ولا سيما ابن عريشاه . وكانت له في النظم جولات ، ولا سيما في الغزل ، ومن نظمه الرقيق قوله :

بطرفه الأحور زاه شاقني وبه قد ضاع علمي بالوسن
جوره عدل علينا في الهوى كل فعل منه لي فهو حسن
ونقل السخاوى عنه هذين البيتين :

نجارة الصب غدت في حب نحوود كاسده
ورأسها لي هبة لفرحتي بفسائده

وكان مصقول الخلال ، وصفه السخاوى رغم حيلته عليه ، بأنه « كان حسن العشرة ، تام العقل والسكون ، لطيف المذاكرة » . ووصفه سكرتيره المتقدم ذكره بأنه : « نادرة الزمان ، وعين الأعيان ، وعمدة المؤرخين » لم ير في أحد مثل ما رأى فيه « من لطيف المحاضرة ، وفكاهة المنادامة ، والعقل التام ، وكرامة الأصالة والحرية الوافرة ، وحسن الخلق ، وبشاشة الوجه ، وحسن الملتقى والشكالة » . وكان يمتاز بإتقان الملاحى والفنون الأميرية التي كانت ذائعة في عصره . فكان بارعاً في الفروسية وألعابها ، وكان موسيقياً بارعاً في النغم والضرب والإيقاع ، بل كان من أشهر الفنانين في عصره ، وهو ما يرجع بلا ريب إلى الوسط الرفيع الذى نشأ فيه ، وإلى نعمائه ، وثرائه ، ورفاهته .

لم تحل نعاء العيش ورفاهة الوسط ، اللتان نشأ فيهما أبو المحاسن ، وتفتحت مواهبه وخلاله ، دون خوضه غمار رواية شاسعة شاقة ، بل لقي المؤرخ الأمير في ظلهما فراغاً ونشاطاً وصفاء ، مكنته من الدرس المستفيض والتحقيق الهادئ . وكان لهذا الدرس والتحقيق ميدان واحد تقريباً هو تاريخ مصر الإسلامية ؛ فكان هذا التخصص عاملاً آخر في إتقان الرواية وصقلها ودقتها . وكانت نتيجة هذا العمل المنظم المتواصل ، غزيرة باهرة ؛ ففي آثار ابن تغرى بردى يلتقى تاريخ مصر الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع موسوعة نفيسة ، ويلقى نيل مصر بحمله الأمين ، وبهذه الآثار يرتفع أبو المحاسن إلى صف الأكابر بين مؤرخى الإسلام . وأشهر هذه الآثار وأجلها هو بلا ريب تاريخه العام لمصر الإسلامية ،

المسمى «بالنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» فهو تاج جهوده وهو خاتمتها . وفيه يودع أبو المحاسن ثمار بحثه الناضج ؛ وسيرة عصره حتى أيامه الأخيرة . والظاهر أن فكرة كتابة تاريخ عام لمصر ، لم تخطر للمؤرخ إبان مباحثه الأولى أو أنه لم ينفذها إلا في أواخر أيام حياته ، بعد أن لبث أعواماً طويلة يعني بنواح أخرى من تاريخ الإسلام وتاريخ مصر . وأول آثاره الضخمة فيما يظهر معجم تراجمه المسمى « بالمنهل الصافي ، والمستوفى بعد الوافي » . والوافي هو معجم الصفدى الشهير^(١) ، والمنهل ذيل أو تكملة له . وكما ذيل ابن شاعر وفيات الأعيان ، وهى موسوعة ابن خلكان ، بفوات الوفيات ، فكذلك ذيل أبو المحاسن موسوعة الصفدى بالمنهل الصافي . والمنهل كتاب ضخيم ، يترجم فيه أبو المحاسن أعلام الإسلام ، منذ أوائل الدولة التركية ، ويبدأ بالمعز إبيك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ) أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ويفيض بوجه خاص فى سير أعلام مصر والشام التى كانت يومئذ ولاية مصرية ، من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء ، ويرتبه على حروف المعجم^(٢) . ويتقدم فيه إلى القارئ بفاتحة بليغة يشكر الله فيها على « أن أخرنا عن كل الأمم ، وتلك لعمرى من أجل المن وأتم النعم ، لنشاهد ما تقدم من آثارهم ، ونعاين منازلهم وديارهم ، ونسمع كما وقعت وجرت أخبارهم » . ويقول إنه وضع كتابه « غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب به من الأصدقاء والإخوان ، ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان ، بل أصطفيته لنفسى وجعلت حديقته مختصة بباقيات غرسى ، ليكون لى فى الوحدة جليساً ، وبين الحلساء مسامراً وأنيساً » . والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه المقدمة ظاهر . فهو لم يتأثر فى مباحثه وروايته ، بملق أو هوى أو تحريض ، بل وضع سير العظماء القريبين من عصره والمعاصرين له ، مستقلاً

(١) هو « الوافي فى الوفيات » لصالح الدين الصفدى . وهو أكبر موسوعة عربية للتراجم تبلغ مجلداته نحو الخمسين . غير أنه لا توجد منه - للأسف - نسخة كاملة فى مكتبة واحدة ، بل توجد منه أجزاء مبثوثة ناقصة فى عدة مكاتب فى الشرق والغرب .

(٢) توجد بدار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من المنهل الصافي ، وهى فى ثلاثة مجلدات ضخمة وتحفظ تحت رقم ٣٣٥٥ تاريخ . وقد شرعت دار الكتب فى إخراجها ، وأصدرت منه بالفعل المجلد الأول .

حرراً في التقدير والحكم . وفي تراجم العظماء دائماً موضع للملق والأهواء ، خصوصاً متى كانوا معاصرين .

وكما أن أبا المحاسن ألهم إلى وضع « المنهل » بمعجم الصفدى ، فكذلك ألهمه أستاذه المقرئى بكتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » إلى وضع تاريخ آخر يبدأ فيه حيث انتهى المقرئى . وكتاب السلوك هو تاريخ دول المماليك في مصر إلى سنة ٨٤٤ هـ ؛ أعنى إلى قبيل وفاة مؤلفه بأشهر قلائل . وقد خطر لأبي المحاسن أن يتم رواية أستاذه فوضع كتاب « حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور » مبتدئاً فيه بسنة ٨٤٥ هـ أعنى عام وفاة أستاذه ؛ ودون فيه تاريخ مصر بإسهاب حتى سنة ٨٥٧ هـ ، وهو عصر الملك الظاهر چقتمق العلائى ، ورتبه على السنين والأشهر والأيام . وفي مقدمته يعرب عن عرفانه وإجلاله للمقرئى ، فيسميه « شيخنا الإمام الأستاذ ، العلامة ، المتفنن رأس المحدثين وعمدة المؤرخين » . كما أنه يعرب عن مثل هذا الإجلال في ترجمة أستاذه في المنهل . ويقول إنه أراد بوضع « حوادث الدهور » أن يحى سنة أستاذه . ولما كان المؤرخ يحيل قارئه في هذا الكتاب في تفاصيل التراجم ، إلى المنهل الصافى ، فن الواضح أنه قد كتب هذا قبل ذاك^(١) .

على أن تاريخ مصر العام أو « النجوم الزاهرة » هو كما قدمنا أجل وأنفس ما أخرج المؤرخ . كتبه بعد أن كتب المنهل الصافى وحوادث الدهور ، لأنه إذا كان يحيل في الأخير على الأول ، فإنه في النجوم الزاهرة يحيل على حوادث الدهور^(٢) . ومعنى ذلك أن أبا المحاسن كتب « النجوم الزاهرة » بعد أن ملك ناصية الرواية ، وأينع درسه وبخه . والنجوم الزاهرة موسوعة كبيرة في تاريخ مصر الإسلامية وتقلبات نيلها ، منذ الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) إلى سنة ٨٧٢ هـ .

(١) راجع النسخة الفوتوغرافية من كتاب « حوادث الدهور » المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٩٧ تاريخ ، وهي في مجلدين كبيرين . ويلاحظ أن السخاوى قد وضع كتابه التبر المسبوك ذيلاً أيضاً لكتاب السلوك ، وفيه يتناول حوادث التاريخ المصرى بإسهاب من سنة ٨٤٥ إلى سنة ٨٥٧ هـ وهو نفس العصر الذى يتناول حوادث الدهور .

(٢) راجع مثل هذه الإحالة في النجوم الزاهرة الجزء السابع (القسم الثانى) من طبعة جامعة كاليفورنيا ص ٣٩٦ .

(سنة ١٤٦٨ م) أعنى إلى قبيل وفاة المؤلف بعامين فقط ، وهو أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية . ويلخص المؤرخ ، في مقدمته محتويات مؤلفه وطريقة كتابته في العبارة الآتية : « استفتحت بفتح مصر . وعلى أى وجه فتحت ... وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار ... ثم أذكر من وليها من يوم فتحت ، وما وقع في دولته من العجب ، ثم أذكر أيضاً ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور ، وما جدد من القواعد والولايات في مدى الدهور . ولا اقتصر على ذلك بل استطرذ إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالميادين والجوامع ومقاييس النيل وعمارة القاهرة . على أننى أذكر من توفى من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باقتصار » . هذا ما يصف به أبو المحاسن مادة مؤلفه في المقدمة القصيرة التي يفتتح بها ، والتي يصوغها في نفس المعاني التي صاغ فيها مقدمة « حوادث الدهور » إذ يشكر الله على « أن أخرنا عن كل الأمم ... فنخبر بذلك من تأخر عصره من الأقوام ، بأفواه الحبار والسن الأقلام ، ليقتدى كل ملك يأتي بعدهم بجميل الخصال » . ثم يقول إنه وضع كتابه غير مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان ، « بل ألفتة لنفسى ، وأينعته بباسقات غرسى ، ليكون لى في الوحدة جليسا ، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً ، ولا أنزله من خلل وإن حوى أحسن الخلال ، ولا من زلل وإن مورده الزلال » ، وهو يقصد أن يؤكد أنه لم يكتب النجوم الزاهرة ، وخصوصاً القسم الذى يتعلق منه بعصره ، ليجعل منه وسيلة لتحقيق الأهواء ، أو تدوين ما يراه أن يدونه البلاط أو كبار الزعماء والجنود والولاة ، استجلاباً لنفع أو قصداً إلى تشهير أو أذى . والحقيقة أن أبا المحاسن يقدم إلينا ، في النجوم الزاهرة ، موسوعة حافلة بحوادث التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وتاريخ مصر بوجه خاص ، رتبت على السنين والأشهر والأيام . ويبدو هذا التعميم واضحاً في القسم الأول ، أيام أن كانت مصر ولاية إسلامية ، في عهد الخلفاء الراشدين أو بنى أمية أو بنى العباس ، ولكن المؤرخ يتقدم نحو الاختصاص في تاريخ مصر والتوسع فيه ، حتى إذا بدأت دول مصر الإسلامية المستقلة ، بلغ هذا التوسع حد الإفاضة ، ولا سيما في عصر الدولة الفاطمية ، أول وأعظم الدول المستقلة ، التي تربعت على عرش مصر . وقد خلب

هذا المجتمع الفاطمي الباهر لبّ أبي المحاسن كما خلب لبّ أستاذه المقرئ ، فأفاض في أصل الخلفاء الفاطميين ، وبلاطهم ، ورسومهم في القصر ، وفي الركوب وفي الاحتفالات العامة ، وفي الحكم وفي الخطابة ، إفاضة ممتعة ، تناول فيها كل الروايات المختلفة السالفة ، وأورد عن مقتل الحاكم بأمر الله شذوراً طويلة صيغت في شكل القصة ، وفيها يصف نفسية الحاكم ليلة مقتله ، وكيف تجاذبته العواطف المختلفة بشأن خروجه في تلك الليلة ، وكيف دبرت أخته « ست الملك » مقتله بمهارة مع شيخ كتامة وعبيده ، ثم أوعزت بقتلهم بعد ذلك ، وكيف أتى لها بجثته فدفتها في نفس مجلسها . وعلى الجملة فإن المجتمع الفاطمي وسير الخلفاء الفاطميين ، تجرى قلم المؤرخ بعرض جزل شائق ربما كان أبلغ قطعة في مؤلفه . أما العصر الذي عاش فيه المؤرخ فإنه يبلغ في مؤلفه أوفر حظ من الشرح والإفاضة ، ويتخذ في أواخر كتابه صورة السجل اليومي ، لا تقوته كبيرة أو صغيرة . وقد عاش ابن تغري بردي في عصر حافل بالسلطين وعاصر أكثر من عشرة سلاطين ، من عهد الملك الناصر فرج إلى عهد الملك الأشرف قايتباي ، وشهد أكثر من ثورة سياسية ، وأكثر من محنة عامة . وفي أواخر حياته انقض الوباء على مصر ، فحمل من أهلها مئات الألوف وجدد بذلك عهد الحزن والمصائب السابقة ، وأصيب المؤرخ نفسه بالوباء حسباً يذكر ، ولكنه نجى^(١) . وهو يصف فتك الوباء ، وعدد الموتى ، ومناظر الخراب ، في عبارات تم عن الاستكانة والروع والألم . ومن المحقق أن هذه الرواية المعاصرة هي أنفس ما يحتويه أثر المؤرخ ، خصوصاً إذا ذكرنا ما كان له من وثيق الصلات بالبلاط والكبراء وأهل الرأي - وهم مصادر التحقيق والرواية - وما كان يعنى به من المشاهدة الواقعة في كثير من الحوادث ، وهو ما يذكره في مواضع كثيرة . ولنيل مصر من عناية أبي المحاسن حظ أوفر ، فهو يحصى تقلباته في الوفاء والنقص عاماً فعاماً - من سنة الفتح (٢٠ هـ) إلى سنة ٨٧٢ هـ ، معتمداً فيما تقدم من العصور على طائفة كبيرة من الرواة والمؤرخين وبخاصة ابن عبد الحكم ، وابن زولاق ، وابن إبيك ، والمقرئ ، وبذلك يقدم لنا أتم جدول هن تقلبات النهر العظيم مدى ثمانية قرون ونصف قرن .

(١) التجوم الزاهرة - القسم الثاني من القسم السابع (طبعة جامعة كاليفورنيا) ص ٥٤١ .

ويعرض أبو المحاسن تاريخ مصر في بيان سلس جزل ، يرى ماثلا في أقسامه الأول ، غير أنه في القسم الأخير منه ، أعنى القسم المعاصر ، ينحدر إلى شيء من الركافة . والسر في ذلك لا يرجع إلى ضعف في بيان المؤرخ ، ولكنه يرجع إلى حوادث العصر ذاتها ، وإلى غلبة الأساليب الضعيفة يومئذ في التعبير ، عن شؤون الحرب والسياسة ومهام الدولة . فالمؤرخ إنما يخرج صور عصره بأساليب عصره ولغة عصره ، وهي مزية في الواقع لأنها معيار للحكم على آداب العصر^(١) .

وللمؤرخ غير ما تقدم من هذه الموسوعات الجليلة عدة مؤلفات أخرى ، منها « مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة » ، والدليل الشافي على المنهل الصافي (وهو مختصر المنهل) ، والبحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر ، وكلها في التاريخ وبالأخص تاريخ مصر ، وحلية الصفات في الأسماء والصناعات ،

(١) لاتزال آثار ابن قنرى بردى على نفاسها مخطوطات مفرقة في مكاتب الغرب والشرق . ولم يشهد الضياء من مؤلفاته الكبيرة سوى « النجوم الزاهرة » . ففي منتصف القرن الأخير نشط المستشرقان الهولنديان جوينبل وماتس إلى إحياء هذا الأثر النفيس ؛ فنشرا منه القسم الأول بين سنتي ١٨٥٢ و ٥٣ ، ثم نشر جوينبل وحده قسما آخر في سنة ٥٧ . ويشتمل القسمان على تاريخ مصر من الفتح إلى سنة ٣٦٥ هـ . ثم توفي العلامة جوينبل دون إتمامه . وفي سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كاليفورنيا الأمريكية طبعه ، وعهد بذلك إلى المستشرق الأمريكي وليم بوير ، فبدأ هذا المستشرق مهمته منذ سنة ١٩٠٩ ، واستأنف نشر النجوم الزاهرة حيث وقف جوينبل ، واستمر في هذا العمل الشاق إلى سنة ١٩٣٠ حيث استطاع أن يتم مهمته وأن يخرج النجوم الزاهرة بعد عشرين عاما من المراجعة والتحقيق . وقد اعتمد في نشره على مخطوطات خمسة منها مخطوط بخط المؤلف نفسه محفوظة في مكتبة باريس . واستعان في تصحيحه وتحقيقه بجماعة من أعلام المستشرقين المعاصرين منهم العلامة الألماني الأكبر فيلدكه ، وجوتهيل ، وسيبولد . ويسفرق القسم الذي نشره سبعة أقسام أو أجزاء كبيرة يشتمل كل منها على عدة أقسام فرعية . أما القسم الذي أخرجه العالمان الهولنديان فيستغرق جزعين كبيرين ، وبذلك تكون مجلدات النجوم الزاهرة تسعة تشمل نحو أربعة آلاف صفحة . ويتخلل هذه العلبنة تحقيقات ومقارنات وفهارس عدة تجعل لها قيمة خاصة .

هذا وقد قامت دار الكتب المصرية في نفس الوقت بإخراج كتاب « النجوم الزاهرة » ، وأخرجت منه حتى اليوم اثني عشر مجلدا كبيرا تنتهي حوادثها في سنة ٨٠٨ هـ . وقد صدر آخر مجلدا منها سنة ١٩٥٦ ، ولم ينشر من بعده حتى اليوم مجلد آخر . وهو ما يدعو إلى أشد الأسف ، حيث شرعت دار الكتب في نشر النجوم الزاهرة منذ أربعين عاما ، وقد مضت اثنتا عشر عاما على ظهور آخر مجلد منه . ورجاؤنا أن تعنى دار الكتب بإتمام إخراج هذا المرجع الهام في تاريخ الإسلام في أقرب وقت ممكن ، فتم بذلك مهمتها العلمية الجليلة .

وهو مجموعة أدبية تاريخية . وتوجد هذه الكتب أو أجزاء منها مخطوطة في بعض دور الكتب ، ولم يطبع منها سوى مورد اللطافة ، طبع في كبردج في سنة ١٧٩٢ .

* * *

هذه سيرة المؤرخ الأمير ، وهذه خلالاه الرفيعة ومواهبه البارزة ، وهذا مجهوده التاريخي ، غريز قوى باهر ، يؤثر به تاريخ مصر وطنه . وقد لبث أبو الحسن عماد هذه المباحث التاريخية الشاسعة ، التي أخرجت على يد المقرئ أئنيع ثمارها ، مدى ثلث قرن حتى توفي في شهر ذي الحجة من سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩) بعد أن لبث أشهراً يعاني من المرض أروع الآلام .

على أن هذه الخلال الباهرة وهذه المباحث اليانعة ، كانت موضعاً لحملة مفكر عظيم معاصر للمؤرخ هو شمس الدين السخاوي ، وهو أيضاً من أعلام المدرسة التاريخية المصرية . فإن السخاوي يحمل في كتابه « الضوء اللامع » على ابن تغري بردي حملة قاسية ، وينتقص من خلالاه ومواهبه وفضله ، ويذهب إلى حد رميه بالخماقة ، والادعاء والجهل وتزييف الحوادث^(١) . وفي الضوء اللامع يترجم السخاوي أعيان القرن التاسع الهجري ، أعني القرن الذي عاش فيه ، في صور قوية بارزة ، وهي من أبدع الصور النقدية التي تحتويها الآداب التاريخية العربية . بيد أن الذي يدعو إلى الدهشة هو أن روحاً عامة من النقد اللاذع تغلب على هذه التراجم ، وتذهب في أحيان كثيرة إلى حد الهدم . ويبدو هذا الميل المضطرب إلى هدم الرجال والخلال واضحاً بالنسبة لجماعة معينة من الأشخاص ، هم الجماعة التاريخية التي التفت حول المدرسة المقرئية أو اتصلت بها . فهنا يبدو السخاوي هداماً لا أكثر ولا أقل . ويبدأ السخاوي بهدم إمام هذه المدرسة الزاهرة المقرئ ، فينسبه حسباً قدمنا إلى القصور والضعف والتحريف والسقط ، ويزعم أنه نقل « خطه » الخالدة من مسودة للأوحدى ، مع أن شيخه وأستاذه ابن حجر الذي يشيد بمناقبه الباهرة ، يصور المقرئ وكفاياته ومباحثه في أجل

(١) راجع ترجمة السخاوي لابن تغري بردي في « الضوء اللامع » في أعيان القرن التاسع هـ (نسخة دار الكتب الفوتوغرافية المحفوظة تحت رقم ٣٢٧٠ تاريخ) - وقد أدرجت مع تراجم أخرى في المقدمة التي صدر بها الجزء الأول من النجوم الزاهرة .

الصور^(١) ، بل لم يحجم السخاوى من التعريض بالتجريح لابن خلدون أعظم مؤرخى الإسلام وأعظم فقهاء التاريخ والاجتماع المسلمين . وقد كان ابن خلدون أستاذاً للمقرئى . ثم يحمل السخاوى حملته القاسية ، على ابن تغرى بردى تلميذ المقرئى ، وعلى البقاعى صديق ابن تغرى بردى^(٢) ، ويزعم أن البقاعى ، وهو محدث ومؤرخ بارع ، وفد من دمشق إلى القاهرة واتصل بمفكرها ولازم ابن تغرى بردى ، واستظل بنفوذه وحايته ، وكان يحرك قلم أبى المحاسن بما شاءت أهواؤه . ثم يكرر أمثال هذه الحملات على مؤرخى عصره فى مؤلف آخر هو « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ » . ويحاول السخاوى أن يدغم هذه النزعة الهدامة بإحصاء بعض المآخذ والسقطات لمن يحمل عليهم ، غير أنه لم يوفق فى ذلك ، لأنه لم يستطع أن يحصى للمقرئى أو ابن تغرى بردى غير أخطاء تافهة فى الأنساب والألفاظ . ومن الصعب أن نجد أسباباً معينة لهذه الخصومة الأدبية الشعواء ، سوى أن السخاوى كان يضطرم بروح قوية من الزهو وشغف الهدم ، قد تأخذ لون الحسد اللاذع — بالنسبة لمعاصريه بالأخص . ويبدو هذا الزهو واضحاً فيما ذكره السخاوى فى ترجمته لأبى المحاسن من أنه اجتمع به مراراً « وكان يبالغ فى إجلاله إذا قدم عليه ، ويخصه بتكرمة للجلوس ، والتمس منه اختصار الخطط للمقرئى » ؛ ويبدو حب الهدم واضحاً فى ظاهرة غريبة تشعر بها فى تراجم الضوء اللامع ، هو أن السخاوى ضنين بالمدح ، فإذا اضطر إليه ، ذكره على لسان غيره ، وقلها سطره بلسانه . وقد بلغت هذه الخصومة الأدبية حدّاً عظيماً فى أواخر حياته ، ونشبت بينه وبين جلال الدين السيوطى أعظم مفكرى عصره ، فنقده السيوطى وحمل عليه من أجل ما انتقص به فى « الضوء اللامع » من أقدار أكابر الأعيان والمفكرين ، ورماه بالغرض والتحامل فى مقامة شهيرة له أسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى »^(٣).

-
- (١) راجع التبر المسبوك للسخاوى (طبع بولاق ص ٢١ - ٢٤) . وراجع رفع الإصر من قضاء مصر لابن حجر المئذ ر بناية وزارة التربية القسم الأول ص ١ .
 (٢) راجع ترجمة ابن خلدون فى الضوء اللامع (المجلد الثانى ، القسم الثانى ص ٣٦٧ من النسخة المشار إليها) وراجع فيه ترجمة البقاعى (القسم الأول ص ٦٨) .
 (٣) راجع مقدمة الكاوى على تاريخ السخاوى (مخطوط بدار الكتب نمرة ١٥١٠ أدب) .

وقد امتدت آثار هذه الخصومة إلى ما بعد وفاة السخاوى ، فنرى معاصره ابن إياس مثلاً حين يذكر وفاته يقول بعد مدحه « أنه ألف تاريخاً فيه أشياء كثيرة من المساوىء فى حق الناس »^(١) .

وهكذا نرى آثار هذه العاصفة الأدبية الهائلة التى أثارها السخاوى بحملاته ونقده تتغلغل فى نواحي المجتمع الفكرى القاهرى زهاء نصف قرن . وإذا كانت هذه الحملات الصارمة تثير الإعجاب بما تحتويه من بيان رائع ، ومنطق لاذع ، وروح مضطرم ، فإنها مع ذلك تثير الريب فى أحيان كثيرة فى نزاهة القلم القوى البارع الذى أرسلها كالسهم الماضية لتحط من شأن عبقریات لها المقام الأسمى

(١) تاريخ مصر - ج ٢ ص ٣٢٢ (طبع بولاق) . هذا وسوف نعود إلى استعراض هذه الخصومة الأدبية فى ترجمة السخاوى ، وهى الآتية .

الفضل السباع

شمس الدين السخاوى

(٨٣١ - ٩٠٢ هـ) : (١٤٢٨ - ١٤٩٦ م)

أتيت لي في أوائل الثلاثينات فرصة لدراسة شخصية بارزة ، تنبأ مكانة رفيعة في آداب مصر الإسلامية ، وفي الآداب العربية بوجه عام ، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة ، وتمتد عبقريتها الشاملة إلى عدة نواح وفنون مختلفة ، وما زال تراثها إلى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة ، في تراث الأدب العربي والتفكير الإسلامى .

أريد بتلك الشخصية ، شمس الدين السخاوى ، الذى تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن .

كان السخاوى إحدى هذه العبقریات الأدبية ، التى تفتحت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) واختتمت بها مصر الإسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين ، وكان ظهوره ، فى النصف الأخير من هذا القرن ، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت فى هذا الصرح الباذخ الذى شادته دول السلاطين بمصر ، وأخذت الحركة الأدبية التى كانت فى النصف الأول من القرن التاسع فى أوج عنفها وازدهارها ، تميل إلى الضعف والسقم ، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة ، بألوان سطحية باهتة ؛ فكان ظهور السخاوى وتلميذه ومنافسه السيوطى فى أواخر هذا القرن ، نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية ، التى لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثمانى .

- ١ -

ومن حسن الطالع أننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوى على ضوء حسن ، فلدينا أولاً معظم آثاره ، نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه ؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة ، نتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه .

ولد السخاوى ، كما يحدثنا فى ترجمته لنفسه ، بمدينة القاهرة بحارة بهاء الدين^(١) فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) فى أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية ، واستقرت فى القاهرة قبل ذلك ببجيلين ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، شمس الدين أبو الخير السخاوى ، ولما بلغ الرابعة من عمره تحولت أسرته إلى منزل جديد فى نفس الحي اشتراه أبوه ؛ وكان موقعه بجوار دار علامة العصر الحافظ ابن حجر العسقلانى^(٢) ؛ وكان لهذا الجوار أكبر أثر فى حياة السخاوى ، كما سنرى . وأنفق السخاوى بضعة أعوام فى المكتب وحفظ القرآن ؛ ثم أخذ يطوف بأشياخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون ؛ ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق ؛ وهنا يعدد لنا السخاوى ثبت أساتذته وما أخذه عن كل منهم ، وما درسه فى مختلف الكتب^(٣) ، وتجلت مواهبه ومقدرته بسرعة مذهبه ؛ وأجاز له الكثيرون من شيوخه ، بل أجازوا له الافتاء ولما يبلغ العشرين بعد .

وقد كان ابن حجر فى مقدمة أساتذته ؛ وكان ذلك الجوار الذى رتبته ظروف الحياة ، مبعث هذه الصلة الوثيقة التى استمرت مدى الحياة بين الأستاذ وتلميذه ، والتى بثت غير بعيد إلى نفس الفتى نوعاً من العبادة الروحية ، لهذا الذى كان يعتبر يومئذ إمام الأئمة وقطب العلماء والباحثين . والواقع أن ابن حجر كان يتبوأ يومئذ مركز الزعامة العلمية فى مصر الإسلامية ، وكان فى ذروة نضجه ومجده ، وقد انتهت إليه الرئاسة فى معظم علوم العصر ، ولا سيما الحديث والشرعة . وكان بدء اتصال السخاوى بأستاذه فى سنة ٨٣٨ هـ ، أعنى وهو

(١) كان موقع هذه الحارة على مقربة من باب الفتوح ، وكانت من الأخطاط الجليلية فى ذلك العصر (خطط المقرئى ج ٢ ص ١) .

(٢) كانت دار ابن حجر تقع بالقرب من المدرسة المنكوتيمرية داخل باب القنطرة بحارة بهاء الدين أيضاً (خطط المقرئى ج ٣ ص ٨٤ - والتبر المسبوك للسخاوى ص ٢٢٣) .

(٣) راجع ترجمة السخاوى لنفسه فى كتابه الضوء اللامع - نسخة دار الكتب الفتوة غرافية (رقم ٦٧٥ تاريخ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٧ - وفى المطبوع ج ٨ ص ٥٤ . هذا وقد نشر الضوء اللامع بمدينة القاهرة فى اثني عشر مجلداً (مطبعة القدس سنة ١٣٥٢ - ١٣٥٥ هـ) . وهى الطبعة التى نشير إليها فيما يلى .

طفل لم يجاوز الثامنة ؛ وكان يذهب مع أبيه ليلاً إلى مجالس الشيخ ، فيستمع إلى دروسه في الحديث . ويصف لنا السخاوى علاقته بأستاذه في عبارات مؤثرة تم عما كان لهذه العلاقة من عظيم الأثر في تكوينه ، فيقول متحدثاً عن نفسه : « وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلاً الكثير من الحديث ، على شيخه لإمام الأئمة الشهاب ابن حجر ، فكان أول ما وقف عليه من ذلك في سنة ثمان وثلاثين ، وأوقع الله في قلبه محبته ، فلزم مجلسه ، وعادت عليه بركته في هذا الشأن . وأقبل عليه بكلية إقبالاً يزيد على الوصف ، بحيث تقلل ما عداه ... وداوم الملازمة لشيخه حتى حل عنه علماً جماً ، واختص به كثيراً بحيث ، كان من أكثر الآخذين عنه ؛ وأعانه على ذلك قرب منزله منه ، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر ... وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء . وعلم شدة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله ؛ يأمره بالبحث للقراءة » (١).

وهنا يفيض السخاوى في ذكر الكتب والمتون التي قرأها ودرسها على شيخه ابن حجر ، سواء من تصنيفه أو تصنيف غيره ، ومعظمها في الحديث ؛ ودرس عليه أيضاً التاريخ والتراجم ؛ ودرس في الوقت نفسه على كثير من شيوخ العصر ؛ ويعدد لنا السخاوى كثيراً من شيوخه ، ويقول لنا إنهم بلغوا أكثر من أربعائة ، بيد أن ابن حجر كان دائماً إمامه وشيخه المفضل ، وقد أذن له غير بعيد في الإقراء والإفادة والتصنيف ؛ ويقول لنا السخاوى « إنه لم يتفك عن ملازمة أستاذه ، ولا عدل عنه بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً على نقده ، ولا ارتحل إلى الأماكن النائية ، بل ولا حج إلا بعد وفاته ؛ لكنه حمل عن شيوخ مصر الواردين إليها كثيراً ، وفي الأوقات التي لا تتعارض وأوقاته ، سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه » . وقد لبثت هذه العلاقة الوثيقة بين التلميذ وشيخه حتى توفي ابن حجر في أواخر سنة ٨٥٢ هـ (٢) .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية في حياة السخاوى ؛ وهي مرحلة درس وتحصيل

(١) الضوء اللامع - المطبوع ج ٨ ص ٥ - وكذلك التبر المسبوك ص ٢٣٢ .

(٢) الضوء اللامع . ترجمة السخاوى لنفسه المطبوع ج ٨ ص ٦ - والتبر المسبوك (ص ٢٣٢ و ٢٣٣) .

أيضاً ، ولكن خارج مصر . وكان السخاوى يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان رغم حداثة قد برز فى كثير من العلوم التى تلقاها ؛ وكان قد استأثر فى هذه الأعوام الطويلة التى قضاها إلى جانب ابن حجر . بكثير من علمه ومعارفه ، وتأثر أعظم تأثير بأساليبه ومناهجه ؛ بل نستطيع أن نقول إن السخاوى كان بعد ابن حجر ، مستودع علمه وراثته ؛ وكان أشد تلاميذه تمثيلاً لمدرسته ؛ بل كان بعد شيخه زعيم هذه المدرسة وأستاذها القوى يرفع لواءها ، ويحمل مناهجها حتى خاتمة القرن التاسع ؛ وقد أشار ابن حجر نفسه فى أواخر أيامه إلى تلك الحقيقة ، وكثيراً ما وصف السخاوى بأنه « أمثل جماعته » أو « ممثل جماعته » (١) :

وسافر السخاوى عقب وفاة أستاذه إلى دمياط ودرس على شيوخها حيناً ؛ ثم سافر مع والدته بحراً إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ؛ وانتهز هذه الفرصة فدرس على شيوخ مكة والمدينة ، وطاف بالبقاع والمشاهد المقدسة كلها ؛ ثم عاد إلى مصر ، وسافر إلى الإسكندرية وقرأ بها مدى حين ؛ وزار معظم عواصم الوجه البحرى ، وقرأ على شيوخها الأعلام جميعاً ، وحصل كثيراً من الفوائد والمعارف . ثم رأى أن يقوم برحلة إلى الشام ليزور معاهدها ، ويتعرف بشيوخها ؛ فسافر إلى فلسطين ، وطاف ببیت المقدس والخليل ونابلس ، ثم قصد إلى الشام ، وزار دمشق وحمص وحماة ، ثم استقر حيناً فى حلب ؛ كل ذلك وهو يدرس ويقرأ على أعلام هذه العواصم ؛ ويقول لنا إنه « اجتمع له فى هذه الرحلة من الروايات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف » ؛ ويبدو من تعدادة للكتب التى درسها وقرأها فى هذا الطواف ، أنه كان يعنى بدراسة الحديث والقراءة والنحو والفقه وعلوم البلاغة والتصوف . ولم يعين السخاوى لنا تواريخ تنقلاته فى هذه الرحلة ، ولكن الظاهر أنها استغرقت بضعة أعوام .

ولما عاد السخاوى إلى القاهرة عكف على التدريس ، ولا سيما تدريس الحديث ، أحياناً بمنزله ، وأحياناً بمخايقاه (معهد) الصوفية المعروف بسعيد السعداء

(١) راجع « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة السخاوى - وراجع شذرات الذهب (ج ٨ ص ١٥) .

وكذا انتدب في أوقات مختلفة ، للتدريس والإقراء في أعظم مدارس القاهرة ، كدار الحديث الكاملية والصرغتمشية ، والظاهرية ، والبروقية ، والفاضلية وغيرها ؛ وذاع صيته وأقبل عليه الطلاب من كل صوب . وفي سنة ٨٧٠ هـ سافر مع أسرته - وكان قد تزوج يومئذ ورزق بعض الأولاد كما يفهم ذلك من إشارته إلى مولد ولده أحمد^(١) - ومع والده وأكبر أخويه إلى الحج للمرة الثانية ؛ وصحبه أيضاً في تلك الرحلة صديقه وأستاذه النجم بن فهد الهاشمي - وكان من أعلام العصر - ودرس بمكة مدى حين ، وقرأ بالمسجد الحرام بعض تصانيفه وتصانيف غيره . ولما عاد إلى القاهرة استأنف دروسه وإملاءاته ؛ وتبوأ مركز الزعامة يومئذ في علم الحديث ، وشغل فيه نفس المركز الذي كان يشغله فيه أستاذه ابن حجر قبل ذلك بثلاثين عاماً .

ثم حج السخاوي للمرة الثالثة في سنة ٨٨٥ هـ ، وقضى بمكة عاماً في التدريس والدرس ؛ ثم حج سنة ٨٨٧ هـ وقضى ثمة حيناً في الدرس والإقراء ؛ وحج للمرة الخامسة في سنة ٩٢ هـ ، وقضى ثمة عاماً آخر في الدرس والإقراء ؛ ثم حج في سنة ٩٤ هـ ، وقرأ الكثير من دروسه وتصانيفه ، وغدت مكة وطناً ثانياً له ؛ وكتب فيها كثيراً من مؤلفاته كما سئى .

ولما عاد إلى القاهرة في سنة ثمان وتسعين (٨٩٨ هـ) استقر بمنزله ، وأبى الدرس والإقراء في المعاهد والحلقات العامة « ترفعاً عن مزاحمة الأدعياء » حسب قوله ، وترك الإفتاء أيضاً ، واكتفى بالإقراء في منزله لخاصة تلاميذه ؛ وكان السخاوي قد أشرف يومئذ على السبعين من عمره ، ولكنه استمر منكباً على الدرس والتأليف ؛ وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ في معظم علوم عصره ، ولا سيما الحديث ، حتى قيل إنه فاق شيخه ابن حجر في ميدانه ، وانتهى إليه فن الجرح والتعديل ، حتى قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبي^(٢) ؛ وكانت شهرته قد تعدت حدود مصر منذ بعيد وذاعت في أنحاء العالم الإسلامي ، ولا سيما في الشام والحجاز حيث تلقى عليه مئات العلماء والطلاب . ولبت السخاوي رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه القوي ، بعيداً عن ميدان السياسة ودسائس

(١) الضوء اللامع - المطبوع ج ٨ ص ١٣ .

(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٧ .

البلاط والمناصب الرسمية ؛ واقترح عليه صديقه الأمير يشبك الداوادر أن يقرأ التاريخ بمجلس السلطان الظاهر خشقدم^(١) فأبى ؛ ثم عرض عليه أن يتولى القضاء بعد ذلك ، فاعتذر وأشار بتعيين خصمه ومنافسه السيوطى ، رغم ما كان بينهما من الخصومات الأدبية الشهيرة^(٢) .

وأقام السخاوى حيناً فى القاهرة ؛ ثم سافر إلى مكة ليحج للمرة السابعة ؛ وعكف بعد أداء الفريضة على الإقراء والدرس ، وتردد حيناً بين مكة والمدينة ؛ ثم استقر أخيراً بالمدينة ؛ واستمر فى الإقراء بها حتى توفى فى ١٣ ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م)^(٣) فى الحادية والسبعين من عمره .

ولنستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أثبتنا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمته . ويعنى السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكننا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ .

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى إليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لا يجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبي ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الإسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ، وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها .

(١) الفصول اللامع - ج ٨ ص ٣١ . وقد حكم خشقدم من سنة ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ .

(٢) الفصول اللامع - المطبوع ج ٨ ص ٣٢ .

(٣) هذه هى رواية صاحب الكواكب السائرة ، ولكن صاحب شذرات الذهب يضع وفاته

بمكنة فى ٢٨ شعبان سنة ٩٠٢ هـ (ج ٨ ص ١٧) .

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى لسنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة^(١) ، وإذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة ؛ ولبت مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تبعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة .

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكننا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الأخبار المكملـة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الثمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذبول لبعض كتب الحديث المعتمدة ، يذكرها كلها فى ترجمته ، ولا يتسع هذا المقام لذكرها^(٢) .

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً ، عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجيحها ؛ الرحلة الحلبية وتراجيحها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته إسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى » .

* * *

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى إلى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت إلينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتبع الترتيب الزمنى فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه - فى الضوء اللامع - المطبوع - ٨ ص ١٤ .

(٢) راجع الضوء اللامع - المطبوع ج ٨ ص ١٥ - ١٩ وفيها يمدد السخاوى كتبه وتأليفه .

بوضع كتاب « التبر المسبوك في ذيل السلوك » . والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيل له هو كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » لثقى الدين المقرئى ، وقد تناول فيه تاريخ دول الممالك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ، وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الإسلامية من سنة ٨٤٥ - ٨٥٧ هـ ، وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولاً على رغبة الداوادر يشبك المهدي وزير السلطان الظاهر خشقدم^(١) ، وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بإسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى . وكتب السخاوى أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الإصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الإصر »^(٢) ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر .

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى عدة مجلدات ، ويتم عنوانها عن موضوعها . ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة إحدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء ، والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أم شامياً ، حجازياً أم يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الزمة ... » . وقد هيأت حياة السخاوى نفسه ، وتجوّاله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى إعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ، والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ ، واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ، يدل على ذلك أنه يصل فى

(١) التبر المسبوك (ص ٥) والإعلان بالتاريخ لمن ذم أهل التاريخ (ص ٤٥) .

(٢) حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية لهذا الكتاب منقولة عن نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد .

ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر في خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ^(١) .

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة في التصوير ليس لها نظير في كتب التراجم الإسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى في أعظم خواصه وكفائاته الأدبية نقادة لا يجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً في مواطن كثيرة ، فينزح عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطلع نقده تحامل بين . وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم - إلا شيخه الحافظ ابن حجر - لم ينبج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقرئى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطبق عبقرية بارزة من عبقریات هذا القرن إلا هاجها بشدة ؛ وهو يبدو في أحيان كثيرة في حملاته قوياً صارم الوطأة ، غير أنه يبدو في أحيان أخرى سقيماً تعوزه الحجة ، فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرى ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوة ومضاء قلمه ؛ وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها في مقدمة الضوء اللامع فيما أتى : « ولكنى لم آل في التحرى جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الإعراض عما ألقيه والتأيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان ابن ظهيرة المعلى يقولان ، إنك منظور إليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للعقول . وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه ، وتمتد إليه الأعناق في سفره ومقامه ، من زكيتته فهو العدل ، ومن مرتضته فالضعيف المعلن ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتبنى الموت في حياتى لأترجمه بما لعله يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه في كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ، ويليلها بنيد عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه في مديحه والإشادة بغزير علمه ، والتنويه بقبوئه مركز الرياسة والزعامة في علم الحديث ، ومنها ما خصه

(١) يراجع الضوء اللامع - ج ١ ص ١٠١ ، في ترجمة إبراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ .

به بعض خصومه كالبقاعي ، قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بإيراد بعض القريض الذى قيل فى مدحيه وتقديره .

وقد كان وضع كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ، تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ، ولا سيما البقاعى والسيوطى^(١) ، واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل . ويتخذ السخاوى كثيراً من تراجم « الضوء اللامع » سبيلاً لحملات عنيفة على كثير من أعلام القرن التاسع ، ولم ينج أعظم مفكرى هذا العصر من حملاته ، وكان فى مقدمة من حل عليه منهم المؤرخ الفيلسوف ولى الدين ابن خلدون ، ثم تقي الدين المقرئى ، وقد اتهمه باختلاس « خططه » الشهيرة من كتاب للشهاب الأوحدى ، وذلك حسبما فصلناه فى ترجمة المقرئى ، وحل كذلك على مؤرخ مصر والنيل أبى المحاسن تغرى بردى . بيد أن خصومة السخاوى مع البقاعى والسيوطى كانت أبرز وأعنف ما فى هذه المعارك الأدبية كلها ، وقد عرض البقاعى فى كتابه « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران »^(٢) بالسخاوى وترجمه بصورة موجزة مهينة . ورد عليه السخاوى فى ترجمته فى الضوء اللامع أعنف رد ، ونعته بأقبح النعوت . وكذلك نشبت بين السخاوى والسيوطى خصومة أدبية مضطربة ، تبادل خلالها كثيراً من أنواع السباب والقذف ، سواء من الناحيتين العلمية أو الشخصية ، ورد السيوطى على مطاعن خصمه بتأليف رسالة عنيفة قاذفة فى حقه عنوانها : « الكاوى على تاريخ السخاوى »^(٣) وفى فاتحتها يقول : « ما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعراض هى الأعراض . جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق فيه بين جليل وحقير ... وامتد حتى إلى العلماء الأعلام » . ثم يأخذ السيوطى فى مقامته هذه على السخاوى بعض أخطاء فى

(١) توفى البقاعى فى ٨٨٥ هـ ، والسيوطى فى سنة ٩١١ هـ .

(٢) ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٠١ تاريخ .

(٣) ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٥١٠ أدب .

رواية الحديث ، وينسب إليه أنه ظفر بمسودة لكتاب أستاذه ابن حجر في الظلال ، وحجبه عن الناس ونسبه لنفسه ، ويرميه بالجهل والحماقة والكذب في عبارات شديدة . وقد استمر صدى هذه الخصومات الأدبية المضطربة يدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، حتى أن ابن إياس الذى كتب تاريخه بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، يشير إليها ، ويقول عند ذكر وفاة السخاوى « إنه ألف تاريخاً فيه أشياء كثيرة من المساوئ في حق الناس »^(١) .

بيد أن الضوء اللامع ، بالرغم من هذه النزعة الهدامة التى تسيطر على معظم تراجمه ، يعتبر أثراً فريداً في بابيه ، لا من حيث موضوعه ، ولكن من حيث فنه وأسلوبه . ففيه يرتفع السخاوى ، رغم ما يحفز به من شغف التجريح والهدم ، إلى أسنى ضروب الابتكار والبراعة في التصوير والتحليل والعرض ، وفيه يستحيل النقد الأدبي من الرواية المجردة إلى فن حقيقي ، ويتخذ الأسلوب النقدي صبغة محدثة شبه علمية . كان السخاوى متقدماً عصره بمراحل ، وكان في القرن التاسع الهجرى أو القرن الخامس عشر الميلادى ، يقوم بنفس الدور الذى قام به سانت بيث Sainte Beuve ، النقادة الفرنسى^(٢) في أواسط القرن التاسع عشر في النقد الأدبي . وكما أن سانت بيث تناول مجهود أقرانه وكتاب عصره ، بالتحليل العميق ، وغالباً بالنقد اللاذع ، وكما أنه في فصوله الشهيرة « حديث الإثنين » *Causeries de Lundi* ، كان فناناً قوى التصوير ، ولكن صارم الوطأة قليل العطف ، كثير التنقيب عن مواضع الضعف ، فكذلك تناول السخاوى في الضوء اللامع مجهود أقرانه ومعاصريه وأساتذته وتلاميذه ، بنوع من التحليل

(١) تناولنا هذه الخصومات الأدبية الشهيرة في فصل جامع عنرائه « مبارك قلمية مصرية في القرن التاسع الهجرى » وقد نشر في كتابنا « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » (الطبعة الثانية) ص ٢٦١ - ٢٧٥ .

(٢) سانت بيث كاتب وشاعر ونقادة فرنسى كبير . ويمتدحه البعض أعظم النقادة الأديبين في العصر الحديث . ولد سنة ١٨٠٤ وتوفى سنة ١٨٦٩ . ودرس الطب ولكنه مال إلى الأدب وظهر منذ حداثة بقوة الجدل والملاحظة ، ودقة التصوير والنقد . وكان صارماً شديد الوطأة . ومعظم كتاباته في النقد الأدبي ، وأعظمها جيمنا فصوله الشهيرة « حديث الإثنين » . وهى نماذج باهرة للنقد الأدبي ، وتقع في خمسة عشر مجلداً .

الدقيق ، والتصوير البارع ، ولكن نزعة الهدم تغلبه في أحيان كثيرة ، فيغدو خبيثاً شديد الوطأة ، لاذع التجريح ، ظاهر التحامل . وكما أن سانت بيث كان أستاذ النقد الأدبي في عصره ، وكان يقود الحركة الأدبية من هذه الناحية ، ويطبّعها بطابعه القوي ، فكذا كان السخاوى محرر النقد الأدبي في عصره ، بل هو في نظرنا أستاذ النقد في الأدب المصرى كله ، وكان مدى نصف قرن يتزعم جناحاً قوياً من الحركة الأدبية يطبعه بطابعه القوي ، ويشحن بقلمه طعنات في معظم أقرانه ومعاصريه . وأخيراً نرى عاطفة الزهو والاعتداد بالنفس تجمع بين الرجلين ، فسانت بيث يقول عن فصوله النقدية ، أعني « حديث الإثنين » ، أنها « كانت إشارة بعود الآداب » كأنه لم تكن ثمة قبل سانت بيث آداب حقيقية ، ولا كان نقد صحيح . وأما السخاوى ، فيجعل نفسه أستاذ عصره ، وحكماً على أكابر عصره ، له الكلمة الأخيرة ، فيما يقضى به من مديح وتركيب ، أو تجريح وانتقاص ، وذلك حسبما يقول لنا فيما تقدم من أقواله التي نقلناها من مقدمته .

* * *

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى في التراجم ، منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم في وفيات الأئمة » وهو ثبت لوفيات الأعيان في القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر في مجلد ضخم أسماه « كتاب الجواهر والدور » وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، وفي خاتمته ما يفيد أن السخاوى كتبه في مكة سنة ٨٧١ هـ ، وفيه يتحدث بإفاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقائه ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ، وما قيل في رثائه من نثر ونظم .

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل إلينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ المدنين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى متنوعة منها :

ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع في بيان المساجد والجوامع ،
عمدة المحتج في حكم الشطرنج ، الكنز المدخر في فتاوى شيخه ابن حجر ، القول
البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ، ومن هذا الأخير نسخة مخطوطة
بدار الكتب المصرية .

* * *

ونجد أخيراً في تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ، أولها كتاب « القول
النام في فضل الرمي بالسهم » وهو كتاب طريف في موضوعه ، وقد وقفنا على
نسخته المخطوطة الوحيدة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٧٦٥ الغزيرى ،
ويقع في ١٢٣ صفحة صغيرة ، ومكتوب بخط نسخ جميل ، وبه أحاديث وحكم
عن فضائل الرمي بالسهم والفروسية والشجاعة في الحروب ، وفي نهاية أنه كتب
سنة ٨٧٥ هـ ، أعنى في حياة المؤلف .

وأما الثانى ، فهو كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وهو رسالة
نقدية قيمة ، يعرف السخاوى فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ، ويتناول طائفة
كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التى تدخل فى حيز التاريخ ، ثم يذيلها
ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الإسلامية التى فى مختلف أبواب التاريخ
وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف فى تواريخ
الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين
والأطباء والأشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ، فهو بذلك فهرس بديع
شامل لأهميات الكتب التى وضعت فى هذه النواحي المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف
نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة .

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوى وآثاره ، ولا ريب أن مجال
البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن ننى شخصية
السخاوى ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ، وقد
كان السخاوى بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الإسلامية والعالم الإسلامى
فى القرن التاسع الهجرى .

هذا ويحلو للسخاوى أن يذيل ترجمته لنفسه بإيراد طائفة كبيرة مما قاله فى

مديحه وتقدير علمه واجتهاده أقرانه ومعاصروه . فن ذلك ما قاله العز الحنبلي :
« الإمام العلامة الحافظ ، الأستاذ الحجة ، التقي ، المحقق ، شيخ السنة ، حافظ
الأمة ، إمام العصر ، أوجد الدهر ، مفتي المسلمين ، محيي سنة سيد الأولين ،
أبقاه الله للمعارف علماً ، وللعالم العلم إماماً مقدماً ، وأحيا بحياته الشريفة ما أثر
شيخه شيخ الإسلام ، وجعله خلفاً عن السلف الأئمة الأعلام » .

وما قاله قاضي القضاة علم الدين البلقيني : « الشيخ الفاضل العلامة الحافظ ،
جمع فأوعى ، واهتم بهذا الفن ولم يزل له يرعى ، وصرح غير مرة بالانفراد » .
وقول السراج العبادي فيه : « هو الذي انعقد على تفرد به بالحديث النبوي
الإجماع ، وأنه في كثرة اطلاعه وتحقيقه لفنونه بلغ ما لا يستطيع ، ودونت
تصانيفه واشتهرت ، وثبتت سيادته في هذا الفن النفيس وتقررت ، ولم يخالف
أحد من العقلاء في جلالته ووفور ثقته وديانته وأمانته ، بل حرصوا بأجمعهم بأنه
هو المرجوع إليه في التعديل والتجريح ، والتحسين والتصحيح ، بعد شيخه شيخ
مشايخ الإسلام ابن حجر » .

وقول الشهاب الحجازي : « الإمام العلامة حافظ عصره ، ومُسند شامه
ومصره ، هو بحر طاب مورداً ، وسيد صار لطالبي اتصال متون الحديث
على الحالين سنداً ، بل هو لعمرى عين في الأثر ، وما رآه أحد ممن سمع به إلا قال ،
قد وافق الخبر الخبر » .

وقول بدر الدين العيني عن بعض مصنفاته : « إنه حوى فوائد كثيرة
غزيرة ، وأبرز مخدرات المعاني بموضحات البيان ، حتى جعل ما خفي كالعيان ،
فدل على أن منشئه ممن يخوض في بحار العلوم ، ويستخرج من دررها المنشور
والمنظوم ، ومن له يد طولى في بدائع التراكيب ، وتصرفات بليغة في صنائع
التراتب ، زاده الله فضلاً يفوق به على أنظاره ، وتسمو به في سماء قريحته قوة
أفكاره » .

ووصفه المحيوى الكافياجي بقوله : « الإمام الهام زين الكرام ، فخر
الأنام ، الصالح الزاهد ، العارف ، العالم العلامة ، النسابة ، العمدة ، الرحلة ،
وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، الموصوف بالمعارف القدسية ، المشهور بالكمالات
السنية الإنسية ، الفرد الفريد الوحيد ، المشهود له بأنه إمام جليل ، أحفظ

زمانه في المنقول والمعقول بالاتفاق ، المقدم على الكل بالاستحقاق ، في جميع البلدان والآفاق .

ومما كتبه في وصفه الرضى أبو حامد بن الضياء : « الإمام العالم المفيد الأوحد الفريد ، قدوة الخدين ، وعمدة العلماء العاملين ، نفع الله به ، وأعاد من بركته ، ووصل الخير بسببه . وقال ، قدم بيت الله الحرام ، وجاور لدى بيت الله المعظم ، وتجرد للعبادة مجتهداً ، وواصل ذلك بالفحص عن رواة الحديث بها مستعداً ، تكميلاً لمراده ، وتحصيلاً لمفاده ، فأقاد واستفاد ، واشتغل وأشغل ، ورام الإحاطة بالتحصيل فحصل » .

وزاد السخاوى على ذلك بأن أورد طائفة من النظم مما مدحه به بعض أقرانه وأصدقائه . ومن ذلك قول الملبجى الخطيب من قصيدة :

أولاك فضلاً في حديث نبيه	تبدى جميل الوصف من أنبائه
تحلى ارتجالاً فيه وصف رجاله	وتذيع ما قد شاع من أسمائه
يا شمس دين الله حسبك ما تجد	من خير خلق الله عند لقائه
فضلاً تميزك وهو أكرم سيد	أغنى الورى بنوالة وحنائه
والفضل فضلك في الحديث وغيره	عجزاً لمقيد الوصف عن إحصائه
وقال ابن الحمصى :	

يا خادماً أخبار أشرف مرسل	وسخا فنسبته إليه سخاوى
وحوى السياسة والرياسة ناجحاً	منهاج خبر للمكارم حساوى
وقال الزين الإشبلى :	

يا سيداً أضحى فريد زمانه	ودليل ما قد قلته الإجماع
عندى حديث مسند ومسلسل	برويه ذو الانتقان لا الوضاع
ما في الزمان سؤال يلقي عالماً	صحت بذاك إجازة وسماع
الخبر فيك تواترت أخباره	وهو الصحيح وليس فيه نزاع ^(١)

وقد أطلال السخاوى في إيراد هذه المدائح . ولعله كان يريد بتسجيلها أن يقدم إلى الخلف رده على خصومه العديدين ، الذين نشبت بينه وبينهم تلك الخصومات الأدبية المضطربة التي أشرنا إليها .

(١) وردت هذه المدائح المنشورة والمنظومة في ترجمة السخاوى لنفسه في الضوء اللامع ج ٢

الفضل الشامي

جلال الدين السيوطي

(٨٤٩ - ٩١١ هـ) : (١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)

يعتبر العلامة جلال الدين السيوطي خاتمة الأئمة والحفاظ من أكابر المحدثين والفقهاء في تاريخ مصر الإسلامية المستقلة .

والسيوطي من أقطاب الموسوعات في العلوم الإسلامية والعربية . ومن الصعب أن نخصه بعلم من علوم الدين أو اللغة أو الأدب . ذلك أنه خلف لنا تراثاً هائلاً من كتب التفسير والحديث ومتعلقاته ، والفقه ومتعلقاته ، وعلوم اللغة ، والتاريخ والأدب ، يبلغ على قوله في ترجمة نفسه زهاء الثلاثمائة كتاب ، ويبلغ على قول من ترجموه بعد وفاته ، زهاء الخمسمائة أو الستائة (١) .

ولكن الذي يهمننا من هذا التراث العريض ، هو القسم المتعلق بالتاريخ ، وتاريخ مصر الإسلامية بنوع خاص . وإن ما تركه لنا السيوطي من المؤلفات التاريخية ، يسمح لنا بأن ننظمه إلى جانب كونه إماماً من أئمة الحديث كذلك في سلك المؤرخين . وهو في ذلك يشبه سلفه الحافظ ابن حجر ، فقد ترك لنا كلاهما تراثاً تاريخياً يختلف في قيمته وأهميته .

وهو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الشيخ همام الدين الخضير الأسويطي الشافعي . وترجم لنا السيوطي نفسه في باب الأئمة المجتهدين ، ويقول لنا إنه يقتدى في ذلك بالمحدثين من قبله ، كالإمام عبد الناصر الفارسي في تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ، والحافظ ابن حجر في قضاة مصر ، ثم يقول لنا إنه لا يعلم

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب الكواكب السائرة ، ويقول بالثانية ابن إياس في تاريخه

بالتحقيق ماهية نسبته بالخضيرى ، ولكنه يظن أنها نسبة إلى الخضيرية وهى محلة ببغداد ، وأن جده الأعلى يكون بذلك أعجيباً أو من الشرق . وقد كانت أسرة السيوطى وفقاً لقوله من أهل الوجاهة والرياسة . منهم من ولى الحكم ، ومن ولى الحسبة ، ومن اشتغل بالتجارة ، وببنى مدرسة بأسيوط ، ووقف عليها أوقافاً جليلة . ولكنها لم تنجب من العلماء ، فيما يظن سوى والده ، الذى يترجمه فيما بعد فى باب الفقهاء الشافعية .

ولد السيوطى فى مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ (أكتوبر سنة ١٤٤٥ م) وتوفى والده وهو دون السادسة ، فأسندت وصايته إلى جماعة من العلماء . وأبدى الصبي ذكاء وتفوقاً فى الحفظ ، وحفظ القرآن فى الثامنة ، ثم حفظ عمدة الأحكام ، ومنهاج الفقه والأصول للنووى ، وألفية ابن مالك . وشرع فى الاشتغال بالعلم منذ بداية سنة ٨٦٤ هـ ، وهو فى نحو الخامسة عشرة ، ودرس الفقه والنحو على جماعة من الشيوخ ، ودرس الفرائض على الشيخ المعمر شهاب الدين الشارمساحى ، وقرأ شرح الكافية لابن الحاجب ومقدمة إيساغوجى فى المنطق على الشيخ سعد الدين المرزبانى ، ولزمه حتى مات فى سنة ٨٦٧ هـ ، ولأزم فى الفقه أستاذه شيخ الإسلام علم الدين البلقينى حتى وفاته ، ثم لازم ولده صالح البلقينى ، ثم لزم شيخ الإسلام شرف الدين المناوى منذ سنة ٨٧٨ هـ ، ولزم فى الحديث والعربية الإمام تقي الدين الشبلى ، ولزم العلامة محيى الدين الكافيجى أربع عشرة سنة ، وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعانى والبديع ، وقرأ فى الطب على محمد بن إبراهيم الدوانى ، وكان قد قدم إلى القاهرة من بلاد الروم . وذكر الداودى تلميذ السيوطى فى ترجمته ، أسماء شيوخه أجازة وقراءة وسماعاً ، وقد بلغوا أحد وخسين شيخاً .

ويقول لنا السيوطى إنه شرع فى التأليف منذ سنة ٨٦٦ هـ ، أعنى قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، وأن مؤلفاته قد بلغت إلى وقت كتابته لترجمته ثلاثمائة كتاب ، وأنه قام برحلات إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور (منطقة تشاد) ، وأدى فريضة الحج ، وأنه شرب من ماء زمزم لكى يصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى ، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر ، وأنه بدأ الإفتاء من مستهل سنة إحدى وسبعين ،

وعقد إملاء الحديث من مستهل سنة اثنين وسبعين ، وأنه رزق النبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ، ثم يقول : « والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة ، سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلاً عن هو دونهم ... ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ، ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله » (١) .

ولما بلغ السيوطي الأربعين من عمره ، لزم التجرد للعبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، وشرع في تحرير مؤلفاته ، وترك وظائف الإفتاء والتدريس ومنها تدريس الحديث بالمدرسة الشيعونية . وكان يقيم في بداية حياته في منزل بجوار جامع ابن طولون ، ثم انتقل منه إلى منزله الجديد بروضة المقياس ، فلبث فيه حتى أدركته منيته ، ويقول لنا صاحب الكواكب السائرة إنه لم يفتح طاقة بيته التي على النيل من سكناه (٢) .

وكان الأمراء والأكابر يأتون لزيارته ، ويقدمون إليه الأموال والهدايا النفيسة فيردها . وما يروى في ذلك أن السلطان الغوري ، أهدى إليه عبداً خصياً وألف دينار ، فرد المال واحتفظ بالخصي ، وقال لقاصد السلطان ألا يأتيه بعد ذلك بهدية قط ، لأن الله أغناه عن ذلك . وكان لا يتردد إلى السلطان ولا إلى غيره ، كما كان يفعل زملاؤه العلماء ، وطلبه السلطان مراراً فلم يستجب إليه ، وألف في ذلك كتاباً سماه « ما وراء الأساطين في عدم التردد إلى السلاطين » وانقطع السيوطي إلى التأليف ، وانهمك فيه . ويقول لنا صاحب الكواكب السائرة ، إن مصنفاته بلغت خمسمائة مؤلف . وقد استقصاها الداودي في ترجمته ، وقد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في البلاد الحجازية والشامية وبلاد الروم والمغرب والتكرور والهند واليمن . ثم يقول « وكان في سرعة الكتابة والتأليف آية كبرى من آيات الله . وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ورجاله ،

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) الكواكب السائرة في مناقب أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (مخطوط) في ترجمة للسيوطي .

وغريبه ، واستنباط الأحكام منه . وأخبر عن نفسه « أنه يحفظ مائتي ألف حديث » .

ويحدثنا صاحب الكواكب السائرة عن كرامات السيوطي ، ويورد منها ما لا يصدق العقل ، ثم يقول لنا إن السيوطي تنبأ بدخول ابن عثمان مصر قبل أن يموت ، وأنه سوف يدخلها في افتتاح سنة ثلاثة وعشرين وتسعمائة ، كما أخبر أيضاً بأمور أخرى . ثم يختتم ترجمته بقوله :

« ومحاسنه ومناقبه كثيرة لا تحصى ، ولو لم يكن له من الكرامات الا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدره . وله شعر كثير ، أكثره متوسط ، وجيده كثير ، وغالبه في الفوائد العلمية والأحكام الشرعية » (١) .

وتوفي السيوطي في فجر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ (أكتوبر ١٥٠٥ م) بمنزله بروضة المقياس ، بعد أن مرض سبعة أيام بورم شديد في ذراعه الأيسر (٢) ، ودفن بمشهد حافل بحوش قوصون خارج باب القرافة ، وكان في نحو الثانية والستين من عمره .

ورثاه العلامة الرحالة عبد الباسط بن خليل الحنفى بقصيدة يقول فيها :

مات جلال الدين غيث الورى	مجتهد العصر لإمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى	ومرشد الضال بنفع يعود
فياعيون أنهملى بعده	ويا قلوب انقطرى بالوقود
واظلمى يادنيا إذا حق ذا	بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق الضوء بأن ينطفى	وحق للقيام فيك القعود (٣)

والآن فلنلق نظرة سريعة على تراث السيوطي ، وهو تراث ضخم متنوع ، وقد أورد لنا السيوطي منه في ترجمته لنفسه جملة كبيرة ، وقسمه إلى عدة أبواب .

(١) الكواكب السائرة في ترجمة السيوطي .

(٢) يبدو من ذلك ، حسبما يفسره لنا الطب الحديث أنه توفي من انسداد في الشريان .

(٣) ترجمة السيوطي في الكواكب السائرة ، مخطوط دار الكتب رقم ١٢٠٦ تاريخ ، المجلد

الأول لوائح ٤٣٠ - ٤٤٠ .

الأول ، فن التفسير والقراءات ، ومنه : الإنقان في علوم القرآن . الدر المنثور في التفسير المأثور . أسرار التنزيل . التبحر في علوم التفسير . شرح الشاطبية في القراءات العشر . والثاني في الحديث ، ومنه : كشف المغطى في شرح الموطأ . التوشيح على الجامع الصحيح . جمع الجوامع أو الجامع الكبير . الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج . عين الإصابة في معرفة الصحابة . الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، وكثير غيرها . والثالث في الفقه ومتعلقاته ، ومنه : تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع . الجامع في الفرائض . مختصر الأحكام السلطانية للماوردي . الأشباه والنظائر ، وغيرها . والرابع في العربية ومتعلقاتها ، ومنه : شرح ألفية ابن مالك . الأخبار المروية في سبب وضع العربية . شرح كافية ابن مالك . السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل . عقود الجمان في المعاني والبيان . وغيرها . والخامس في التاريخ والأدب ، وهو الذي يهمننا هنا . وقد أورد لنا السيوطي منه المؤلفات الآتية :

تاريخ الصحابة وقد مر ذكره . طبقات الحفاظ . طبقات النحاة الكبرى والوسطى والصغرى . طبقات المفسرين . طبقات الأصوليين . طبقات الكتاب . حلية الأولياء . طبقات شعراء العرب . تاريخ الخلفاء . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . تاريخ أسباط ، معجم شيوخي الكبير . الملتقط من الدرر الكامنة . تاريخ العمر وهو ذيل على إنباء الغمر . رفع الباس عن بني العباس . وعدة أخرى من مؤلفات ورسائل مختلفة .

وليس من موضوعنا أن نستعرض تراث السيوطي ومؤلفاته التي تبلغ المئات عدداً ، والتي أوردنا منها فيما تقدم بعض نماذجها ، وإنما يعيننا من هذا التراث كله بعض مؤلفات السيوطي في التاريخ ، وهي التي تتعلق بتاريخ مصر ، أو تتصل به عن قرب .

(١) وأول هذه المؤلفات وأهمها دون شك هو كتاب « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » . وهو مؤلف ضخيم يقع في مجلدين كبيرين . يتحدث في أولها عن ذكر مصر في القرآن والحديث ، ثم تاريخها الغابر حسبما ترويه الأساطير المتداولة ، وعجائبها مثل الأهرام ومنار الإسكندرية ، ثم يتحدث

عن فتحها في الإسلام ، وعن خططها ، وما يتعلق بالجزية والمكوس ، ويقدم لنا بعد ذلك جزءاً من مؤلفه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » يذكر فيه من دخلها منهم من حرف الألف حتى حرف الحيم . ثم يذكر من دخلها من التابعين ، وأتباع التابعين . ثم يحدثنا عن كان بها من الأئمة المجتهدين ، والحفاظ والمحدثين والفقهاء ، على اختلاف مذاهبهم ، وأئمة القراءات ، وأئمة النحو ، وأرباب المعقولات والحكماء ، والوعاظ والقصاص والمؤرخين ، والشعراء ، والأدباء .

ويتحدث في المجلد الثاني عن أمراء مصر ، وسلاطينها في ظل الخلفاء العباسيين ، ثم عن قضاة مصر على مختلف المذاهب ، ثم عن الجوامع والمدارس ، والنيل وأحواله ومواسمه وجزائره . ويختتم بمختارات من الشعر في الأنهار والأشجار والرياحين والأزهار والفواكه والمحاصيل الموجودة بمصر .

ونستطيع أن نقول على ضوء هذه المحتويات ، إن كتاب « حسن المحاضرة » يقدم إلينا صورة مصغرة من محتويات « خطط المقرئ » . ثم هو فوق ذلك يقدم إلينا ثباتاً شاملاً للعلماء والمفكرين من رجالات مصر على اختلاف صفاتهم ، من الأئمة المجتهدين والحفاظ والمحدثين والفقهاء ، إلى أئمة النحو والحكماء والأطباء والوعاظ والمؤرخين والشعراء والأدباء ، كل باب منها منذ القرن الأول للهجرة حتى أواخر القرن التاسع . وهن تراجم صغيرة ، ولكن اجتماعها على هذا النحو الشامل ، يجعل منها قاموساً لتراجم رجالات مصر الإسلامية ، قل أن نجد له مثيلاً ، سواء في شموله أو تبويبه . وبه تراجم قصيرة لرجالات من الصعب أن نجد لهم أية ترجمة في مكان آخر . وهذا القسم في نظرنا هو أهم أقسام كتاب حسن المحاضرة .

(٢) كتاب « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » ، وهو كتاب صغير ينم عنوانه عن موضوعه ، وقد ذكر السيوطي في مقدمته ، أنه جعله تلخيصاً لكتاب الإمام محمد بن الربيع الحيزي ابن صاحب الإمام الشافعي ، حيث ألف كتاباً فيمن دخل مصر من الصحابة ، وأورد فيه أحاديثهم وما رواه أهل مصر عنهم ، وقد فاته جماعة لم يذكرهم . وقد أراد السيوطي أن يلخص هذا

الكتاب ، وأن يضم إليه ما فات مؤلفه من التراجم والمعلومات . وقد نقل منه فصلاً في كتاب حسن المحاضرة ضمنه ذكر الصحابة من حرف الألف إلى حرف الجيم .

(٣) « تاريخ الخلفاء » . وهو مؤلف ضخمة في « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبي بكر الصديق » إلى عهد المؤلف « على ترتيب زمانهم الأول فالأول » وذكر في ترجمة كل منهم « ما وقع في أيامه من الحوادث المستغربة ، ومن كان في أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة » . ويقدم السيوطي لكتابه بتمهيدات في ذكر الأحاديث المنيرة بخلافة بني أمية ، والمنيرة بخلافة بني العباس . ثم يتبسط في الكلام على الخلفاء الراشدين بالتعاقب . ثم يتحدث عن خلفاء بني العباس حتى خلافة المستعصم آخر خلفائهم ببغداد . ويتبع ذلك بالحديث عن خلفاء بني العباس بمصر ، وأولهم المستنصر بالله أحمد . ويختم كتابه بقصيدة من نظمته في ذكر الخلفاء . والكتاب عادي ليس به من المزايا أو الخصائص ما يلفت النظر . وقد طبع مراراً بمصر .

(٤) كتاب « نظم العقيان في أعيان الأعيان » . وضعه السيوطي أسوة بمن تقدمه من علماء قرنه في وضع معاجم للتراجم ، على نحو ما فعل الحافظ ابن حجر في وضع كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، والبقاعي في وضع كتاب « عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران » ، والسخاوي في وضع معجمه الكبير « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » . ويقول لنا السيوطي في ديباجته « هذا تأليف لطيف في تراجم أعيان العصر على طريقة أهل العلم الراغبين ، لا عموم المؤرخين ، قصرته على الأعيان ، وأفراد الزمان ، ولم أَدعِ إليه الجفلى ، ولا حشدت فيه ، بل انتقيت أمثال النبلاء ولم أورد فيه إلا محاسن ، ولا وردت إلا زلال ماء غير آسن » .

ثم يقول لنا بعد ذلك في مقدمة الكتاب ، وهي التي يصفها بأنها مقدمة فيها « فوائد متوفرة تتعلق بالتاريخ » ، إنه يورد ما أثر عن والده من الشروط التي يجب أن تتوافر في المؤرخ ، إذ يشترط فيه الصدق ، وإذا نقل أن يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن يسمى المنقول عنه . ويشترط فيها يترجمه « أن يكون عارفاً

بحال صاحب الترجمة علماً ودينياً وغيرهما من الصفات ، وأن يكون حسن العبارة ، عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور في حالة ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، وألا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواء الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره .

والكتاب متوسط الحجم ، يحتوي على مائتي ترجمة ، لأعلام مصر والشام والجزيرة في القرن التاسع ، من السلاطين والعلماء والحفاظ وغيرهم ، ومنهم أعلام في بلاد أخرى مثل سلاطين التتار ، وسلاطين الترك ، وسلاطين العراق والجزيرة ، ومنهم بعض النساء . والتراجم كلها موجزة ، ولا تشغل المائتا ترجمة فيه أكثر من مائة وستين صفحة من المطبوع . ومن ترجمهم من أقرانه العلماء : البقاعي ، وابن ظهيرة ، وابن حجر ، والدماميني ، والبلقيني ، وابن قاضي شعبة ، والمناوي ، وابن جماعة ، وابن عربشاه ، والسخاوي ، والعيني ، وغيرهم (١) .

ونحن نعرف ما اضطرم بين السيوطي والسخاوي من خصومة أدبية ، تبادلها فيها الحملات المرة . وكما حل السخاوي في ترجمته للسيوطي عليه ، ورماه باختلاس بعض كتبه من تصانيف ابن حجر ، كما رماه « بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه » ، فكذلك ترجم السيوطي للسخاوي في « نظم العقيان » ، واتهمه بأنه سلق في معجمه أعراض الناس ، وملاؤه بمساوئ الخلق . ثم وضع في حقه رسالة عنيفة لاذعة أسماها « الكاوي على تاريخ السخاوي » حمل فيها على كتاب « الضوء اللامع » ومؤلفه حملة مرة ، ورمى السخاوي بالجهل ، والتجرد من أثواب العلم ، والجهل بأحكام الشريعة ، وضعف الرواية في الحديث والتفسير إلى غير ذلك من الهنات والسيئات ، وقد سبق أن تناولنا هذه الخصومة وهذه الحملات الأدبية تفصيلاً في كتابنا « مصر الإسلامية » ، كما أشرنا إليها فيما تقدم في ترجمة السخاوي (٢) .

(١) نشر كتاب « نظم العقيان » عن مخطوطة المكتبة التيمورية ، ومخطوطة ليدن محققاً بنياتة الدكتور فطيم حق ، نيويورك سنة ١٩٢٧) في مجلد متوسط الحجم يضم نحو مائتي صفحة .

(٢) راجع كتابي مصر الإسلامية وتاريخ الخلط المصرية (الطبعة الثانية) ص ٢٧٢ و ٢٧٣ وراجع هذا الكتاب ص ١٢٥ و ١٢٦ و ص ١٣٥ - ١٣٧

(٥) « تاريخ السلطان قايتباي والدولة الأيوبية ودول المماليك » . ينسب هذا الكتاب للسيوطي . بيد أنه لم يذكره لنا ضمن مؤلفاته ، وليس بالخطوط المحفوظ بدار الكتب من جهة أخرى ما يدل على نسبه للسيوطي . ويقول مؤلفه في مقدمته ما يلي : « ولما أخذ مولانا السلطان الملك الأشرف أيده الله بنصره من ذلك الحظ الأوفى ، والحل الأسنى ، وانتشر عدله في الآفاق ، واشتهر ذكره بمكارم الأخلاق ، وضعت له ترجمة أذكر فيها ما يحضر من أوصافه السنية ، وأفعاله المرضية ، وإن كان اللسان يقصر عن حصرها ، والعلم بكل من ربضا ، لتكون باعثة للناظر فيها على مزيد الدعاء له بطول البقاء ، والعلو والارتقاء ، بلغه الله تعالى من فضله كل أمل ، ووفقه لما يرضيه في قوله وعمله »

وقد تولى الأشرف قايتباي الملك في سنة ٨٧٢ هـ وتوفي سنة ٩٠١ هـ . ويتناول المؤلف في ترجمة السلطان الأشرف هذه ، سيرته وحملاته المتوالية إلى الشام لمحاربة شاه سوار ، وفيها تفصيل لأقسام جيشه وقادته حتى سنة ٨٧٧ هـ ، وتشغل هذه الترجمة جزءاً قصيراً لا يعدو العشر لوحات .

ويورد مؤلف الكتاب بعد ذلك نبذة من أخبار سبعة آخرين من السلاطين . من الملك الناصر صلاح الدين إلى حين « وصول المملكة إلى مولانا المقام الشريف المشار إليه » .

ونحن نشعر أن في لهجة الكتاب ، وفي اختتامه بالأحاديث الدعائية ، ما يحمل على الاعتقاد أنه فعلاً من تأليف السيوطي^(١).

(٦) « الشاربخ في علم التاريخ » . هذا كتيب أو رسالة صغيرة للسيوطي تتألف من ثلاثة أبواب ، يتناول أولها مبدأ التاريخ ، والمقصود به الحوادث التي تتخذ أساساً للبدء بتاريخ العالم ، مثل هبوط آدم ، وبعث نوح ، والطوفان ، وبناء البيت ، ثم عام الفيل ، وأخيراً الهجرة التي اتخذها عمر بن الخطاب بداية لتاريخ المسلمين . ويتحدث في الباب الثاني عن فوائد التاريخ . وفي الباب الثالث عن فوائد شتى تتعلق به ، وعن طريقة احتساب التاريخ بالشهور والأيام^(٢) .

(١) توجد من هذا الكتاب نسخة خطية تقع في ٥٧ لوحة متوسطة مزدوجة . وتحفظ بدار الكتب برقم ٦١ تاريخ .

(٢) نشر هذه الرسالة المستشرق الألماني زيپولد سنة ١٨٩٤ ، وصدرت في ليدن . وتقع في خمسة عشر صفحة من القطع المتوسط .

هذا وقد ترك لنا السيوطى فى باب التاريخ أيضاً عدة من كتب الطبقات ، مثل « طبقات الحفاظ » و « طبقات النحاة » و « طبقات المفسرين » و « طبقات الكتاب » و « طبقات شعراء العرب » و « حلية الأولياء » . وكلها من مجموعات التراجم ، التى تختص بصفة المترجم من أى البلاد .

ونكتفى بما تقدم فى استعراض مجهود السيوطى فى ميدان التاريخ . والسيوطى عالم من علماء الدين قبل كل شئ . ولا شك فى اجتهاده وتفوقه فى هذا الميدان . وتراثه الدينى فى التفسير والحديث والفقه ، يتبوأ مكانة مرموقة ، بين تراث الحفاظ والفقهاء . ولكن لإنتاجه التاريخى لا يرقى إلى هذا المستوى ، وفى رأينا أن معظمه يتسم بطابع سطحى ، ولا يمتاز بشئ من التعمق أو الروح النقدية أو الخواص التاريخية المميزة ، التى تجعل منه مراجع قيمة ، للموضوعات التى يتناولها ، ولا يستثنى من ذلك سوى كتاب « حسن المحاضرة » فهو فى نظرنا أهم وأقيم مؤلفات السيوطى التاريخية .

الفصل التاسع

ابن إياس

مؤرخ الفتح العثماني

(٨٥٢ - ٩٣٠ هـ) : (١٤٤٨ - ١٥٢٣ م)

كانت مصر من بين فتوح الدولة العثمانية ، أعظمها وأيسرها ، ففي « مرج دابق » غنم بنو عثمان تراث الدولة الإسلامية ، الذي تكدس في الشام ومصر مدى تسعة قرون ، وصحقوا دولة السلاطين الزاهرة ، وهي ما تزال تحتفظ بكثير من سالف بأسها وبهاثها ، وانتزعوا رسوم الخلافة العباسية بعد ما انتشحت بها مصر عصوراً طويلة . وكان مصير مصر يضطرب في كفة القدر ، قبل ذلك بأكثر من قرن ، ومن المحقق أنها كانت قبلة لأطماع بني عثمان منذ اشتد ساعدهم ونما سلطانهم ، وأشرفوا من هضابهم على حدود مصر الشمالية ، وهي يومئذ قاصية الشام ؛ فكانت مصر تثير جشع أولئك الغزاة بنحبها وغانها ونعماها . وما كان فتح بني عثمان لمصر أو على الأقل محاولتهم لهذا الفتح ، لترجأ إلى عام « مرج دابق » لولا أن عاصفة هائلة هبت على العالم الإسلامي قبل ذلك بأكثر من قرن ، فكادت تكتسح جميع الدول الإسلامية ، ولولا أنها انقضت بالأخص على مجد بني عثمان الفتي فكادت تسحقه في المهد ؛ ففي موقعة أنقرة أصاب تيمورلنك دولة بني عثمان الناهضة بضربة شديدة (سنة ١٤٠٢ م) بعد أن اجتاحت في طريقه كل الأمم الإسلامية من سمرقند إلى الشام ، فخبا ظمأ الفتح الذي شهر بنو عثمان سيفه حيناً ، وشغلوا مدى نصف قرن آخر بإصلاح شؤونهم وإتمام أهبتهم لفتح القسطنطينية . ومنذ محمد الفاتح عاد سبيل الفتح العثماني يتدفق نحو الشمال ، ونحو الجنوب ، وعادت مصر قبلة الفاتحين .

ولم تنج مصر من بطش الفاتح التتري ، فقد انقض تيمورلنك قبيل ذلك على بلاد الشام ، فافتتحها وعاث فيها أشنع عيث ؛ ولم تنجع أهبة سلطان مصر

وسيره إلى لقاء الفاتح شيئاً في تلافى النكبة ، ولم تهدأ العاصفة إلا حينما ارتد الفاتح من تلقاء نفسه ، وسار لقتال بنى عثمان . ولو كان تيمورلنك يعنى بالفتوح المستقرة لكانت مصر بلا ريب إحدى غنائمه ، بل هنالك ما يدل على أنه كان يعتزم فتح مصر بعد الشام ، لو لم تتخذ الحوادث مجرى آخر وتدفعه نحو الشمال . على أن مصر تأثرت أيضاً بتلك النكبة التي سحقت الشام حصنها من الشرق ، وشغلت حيناً بتحسين قواعدها ، وإصلاح أهباتها .

هذا ، وبينما كانت مصر تحتّم عصورها الحبيدة ، وتنحدر ببطء إلى طور جديد من الانحلال ، وتجنح إلى حياة فتور ودعة ، هي أثر عصور طويلة من السلام والعيش الناعم ، إذا بالدولة العثمانية الفتية الناهضة ، تفيق من نكبتها بسرعة ، وتفتح القسطنطينية ، ثم توغل في الفتح شمالاً وشرقاً . وكان شبح هذا الخطر يلوح لمصر قبل وقوعه بأعوام طويلة . ومنذ أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل القرن السادس عشر) كانت الجيوش العثمانية تهدد الشام من الشمال والشرق . وكانت مصر من جانبها واثقة في منعها ، فكانت كلما لاح هذا الخطر تهم لدفعه في أهبات جزئية محلية . غير أن ثقة مصر في منعها ، وربما في حسن طالعتها ، واستسلامها إلى نوع من قدر الحوادث ، كانت أعظم أسباب النكبة . فقد لبثت مصر آمنة هادئة ، حتى اتخذ الفاتح كل أهبتها ، وسار سلطان مصر للقائه في أقصى حدوده الشمالية تاركاً من ورائه حكومة مفككة العرى ، وقواعد غير محصنة ، وعمالا ذوي أطماع وكيد . فكانت المفاجأة الهائلة في « مرج دابق » ، وكان زوال ملك مصر وسيادتها ، وكان بدء رقها ، وفاتحة ذلتها مدى عصور طويلة ، ذوى فيها مجدها النال ، وركدت فيها كل نواحي عظمتها السالفة ، وانحدرت إلى شر ما تنحدر إليه أمة عظيمة ، من ضروب الانحلال الفكري والاقتصادي والاجتماعي .

والحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية والإسلامية ، لم يكن إلا تنمة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التي بدأها هولاءكو وبرابرتهم التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الإسلامية ، في بغداد في منتصف القرن الثالث عشر ، واستأنفها تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر . بيد أن الفتح العثماني كان باستقراره أعمق أثراً

من الوجهة المعنوية ، وأشد تقويضاً للمدنية الإسلامية ، من الفتح التتارية المؤقتة .

* * *

كانت حوادث هذا الفتح الذى سلبت مصر فى عمره وظلماته ثلاثة قرون سود ، مادة لتأملات مؤرخ مصرى ، قضى أن يشهد المحنة ، وأن يختم بأخبارها تاريخه ، الذى بدأه بتدوين سيرة ما قطعت مصر الإسلامية ، من عصور الرياسة والمجد . كان محمد بن أحمد بن إياس سليل أسرة شركسية ، ظهرت فى مراكز الرياسة ، فى مصر والشام ، منذ منتصف القرن الثامن ، واتصلت بالبلط القاهرى اتصالاً قوياً . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ وتوفى بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ - ١٥٢٣ م) ودرس على جماعة من أعلام عصره ولا سيما جلال الدين السيوطى . وسار فى أثر هذه المدرسة التاريخية المصرية الزاهرة ، التى جنحت من التعميم إلى التخصيص ، ورأت أن تعنى قبل كل شىء بتاريخ مصر والإفاضة فيه ، التى افتتحها المقرئى أعظم أساتذتها بخططه وآثاره الخالدة ، وبرز فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى والسخاوى . نشأت وازدهرت ثم تضاءلت فى القرن التاسع (القرن الخامس عشر) . غير أنها وهبت تاريخ مصر الإسلامية أكبر وأنفس مجموعة من الموسوعات والوثائق ، وامتازت بالأخص بتدوين حوادث عصرها بطريق المشاهدة ؛ وقد نشأ ابن إياس فى أواخر عهدها ، فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر ، ولكنه لم يوهب كثيراً من كفاياتها الباهرة ، سواء من حيث الطرافة ، أو الإفاضة أو البيان . ولو لم يقدر لابن إياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى ، وأن يدونها لنا بإسهات وإفاضة ، لما كان لأثره عن تاريخ مصر كبير قيمة أو أهمية ، لأنه ليس إلا صورة مصغرة من جهود أسلافه ، مجردة من كل ما يميز هذه الجهود من الدقة والمتانة وعميق البحث .

غير أن ابن إياس لم يرد على ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة ، التى يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ ، فبينما نراه يحمل تاريخ الفتح الإسلامى والدول الإسلامية الأولى ، وبينما يتناول تاريخ دول المماليك الأولى

بشيء من التوسع ، إذا به ينقلب إلى الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع ؛ فلماذا كانت أواخر هذا القرن ، وهو العصر الذى عاش فيه ابن إياس ووعى صوره وحوادثه ، ألفيته يجعل من تاريخه نوعاً من السجل اليومي ، لا يفوته أى يدون فيه كثيراً من الحوادث الخاصة فضلاً عن العامة^(١) . أما حوادث الأعوام القلائل التى سبقت الفتح العثماني ، وحوادث الفتح ذاته ، ثم الأعوام القلائل التى تلتها ، فإنها تستغرق معظم مجهود المؤرخ ، وتملأ منه أكثر من مجلدين كبيرين .

وفي هذا القسم الذى يدون فيه ابن إياس حوادث عصره ، وبالأخص حوادث الفتح العثماني ، وما تقدمه ، وما تلاه ، تبدو أهمية مجهوده واضحة . ففيه نجد وثيقة فريدة ، تكمل سلسلة الوثائق المتوالية التى تركها لنا المقرئى ، فابن تغرى بردى ، فالسخاوى ، كل عن حوادث عصره ؛ وبذا نستطيع أن فظفر بسيرة قرن بأسره من تاريخ مصر ، ترويه المشاهدة الشخصية . وهى مرحلة ذات أهمية وظواهر خاصة ، لأنها تفصل بين مصر الظافرة المستقلة ، وبين مصر المغلوبة المستعبدة . ومن المحقق أن حوادثها تنم عن كثير من العوامل والظواهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التى دفعت بمصر يومئذ إلى طريق الإنحلال ، ومهدت إلى سقوطها فريسة هينة فى يد الظافر ، وإلى استكانتها عصوراً طويلة تحت نيره المضطرب .

نشأ ابن إياس كما قدمنا فى النصف الأخير من القرن التاسع فى مدينة

(١) مرجعنا فى هذا الوصف هو النص الذى أخرجه مطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ من تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ولكن المستشرق كاله (Kahle) الذى قارن نص مطبوع بولاق بما يوجد من تاريخ ابن إياس بخطه بمكتبة الفاتيح باستانبول - وهو أربعة أجزاء - يعتقد أن معظم المخطوطات التى انتهت إلينا من تاريخ ابن إياس ، إنما هى منتخبات منه فقط ، لأنه بينما نرى فيها إلهام الخلل فى تاريخ بعض السنين ، إذا بنا نجد التوسع والإسهاب فى البعض الآخر . هذا إلى أنه يوجد تباين كبير بين نص مطبوع بولاق ، وبين نص مخطوط استانبول سواء من حيث المدى والترتيب والصحة ، إلى حد أن الإنسان قد يتساءل عما إذا كان الأمر يتعلق بكتاب واحد (راجع مقدمة المستشرق كاله الألمانية ، فى الجزء الرابع من بدائع الزهور الذى نشر متما لنص مطبوع بولاق ؛ ص ٢ -) ، والذى سوف نتحدث عنه بعد .

القاهرة ، غير أنه لم يظهر في مجتمعا الفكرى كما ظهر أسلافه وأساتذته « مدرسته » ولم يبد براعة خاصة في فرع بعينه من العلوم والآداب . وقد يرجع ذلك إلى أن الدرس العام كان ظاهرة التفكير في عصره . فقد كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحي العلوم والآداب في عصره ، ولكن شتان ما بين الدهنين . ومال ابن إياس بالأخص إلى درس التاريخ والجغرافية ، وعالج نظم الشعر . ولكنه لم يكن مؤرخاً عظيماً ، ولا جغرافياً محققاً ، ولا شاعراً مجيداً . وكان بيانه يقصر بالأخص عن أداء المهمة الكبيرة التي أخذها على نفسه ؛ فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك ، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ ، كلما أعوزته حاجة التعبير ، ويلجأ إلى العامة في كثير من الأحيان . وهو ما يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل في بيانه ، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان في عصره ؛ فإن معاصريه ابن تغرى بردى ، والسيوطى ، والسخاوى كتبوا التاريخ وغيره بلغة قوية وبيان متين . كذلك لا نجد في مباحث ابن إياس ، سواء ما تعلق منها بجغرافية مصر وخطوطها وتاريخ نيلها ، مما أودعه كتاب « نشق الأزهار » الذى نتحدث عنه فيما بعد ، كثيراً من التعمق أو الطرافة ، وكل ما هنالك أن ابن إياس يقتبس من المتقدمين من مؤرخى مصر ، مثل ابن عبد الحكم ، والكندى وابن زولاق والقضاعى والمسبحى وابن وصيف شاه والمقرئى وغيرهم . أما الجليل في تاريخه عن مصر فليس إلا ما كتبه عن عصره ، وبالأخص عن حوادث الفتح العثمانى وما تقدمه وما تلاه . وقد لبثت هذه الرواية التى يتركها ابن إياس عن حوادث عصره ، فيما انتهى إلينا من مخطوطات مؤلفه ، عصراً ، ناقصة تتخللها ثغرة كبيرة ، هى حوادث خمس عشرة سنة من أول شوال سنة ٩٠٦ إلى آخر سنة ٩٢١ هـ ، (١٥٠٠ - ١٥١٥ م) وهى مدة سلطنة السلطان قانصوه الغورى آخر ملوك مصر المستقلة . ولكن البحث الحديث ظفر بها في مخطوطين : أحدهما بمكتبة باريس ، والآخر في لسنجراد ؛ وظهرت أخيراً إلى الضياء في مجلد ضخيم^(١) . وفيها يتناول ابن إياس عصر السلطان الغورى منذ بدايته ، بإسهاب

(١) نشر هذا المجلد بعد طول احتجابه بعناية جمعية المستشرقين الألمانية (Deutsche Morgensienische Gesellschaft) ؛ وقام بتحقيقه وإخراجه الأستاذ باول كاله (Paul Kahle) . الأستاذ بجامعة بون ، بمعاونة الأستاذ محمد مصطفى مدرس العربية بها ، والأستاذ سوبرنهام ، -

وإفاضة ، ويدون حوادثه شهراً فشهراً ، ويوماً فيوماً تقريباً ، ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب ، والبلاط ، والحكومة ، والأمن والقضاء ، والوظائف ، والشئون المالية والاقتصادية . ويتبع بالأخص علائق البلاط القاهري بالبلاط العثماني . ويبدو جلياً من روايته أن بلاط القاهرة ، كان يشعر بأن خطر الفتح التركي لمصر غداً قريب الإنقضاء ، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع سيلاً إلى ذلك^(١) . وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخدع سلطان مصر ومهاديه وراسله^(٢) . على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطعنه . بل كان الغوري

= في مجلد في خمسين صفحة من القطع الكبير (استانبول سنة ١٩٣١) . وصدده الأستاذ كاله بمقدمة بالألمانية قارن فيها النصوص المختلفة التي وصلتنا من مؤلف ابن إياس . والمراجع في نشر هذا الجزء الذي اقتدناه حشاً من تاريخ ابن إياس مخطوطان : أولهما مخطوط بمكتبة باريس الوطنية (رقم ١٨٢٤) ، ويحتوي على تاريخ مصر من سنة ٨٩١ - ٩١٢ هـ ، ومنقول عن نسخة المؤلف الأهلية في سنة ١١٢٧ هـ . وعنوانه « بدائع الأمور في وقائع الدهور » ، في أخبار الدولة (كذا) الملك الأشرف قانصوه الغوري الأشرفي . والثاني محفوظ بالمتحف الآسيوي بلنجراد (رقم ٤٦) ، ويحتوي على تاريخ مصر من سنة ٩١٣ - ٩٢١ هـ . وموصوف بأنه الجزء العاشر من تاريخ ابن إياس ومنقول عن نسخة المؤلف سنة ١١٢٧ هـ . ويبدأ هذا القسم الجديد من تاريخ ابن إياس - وقد وصف « بالجزء الرابع » من كتاب بدائع الزهور في حوادث الدهور - من حيث انتهى الجزء الثاني من نص نسخة بولاق - أعني من شوال سنة ٩٠٦ هـ . وينتهي بنى القعدة سنة ٩٢١ هـ ومن ثم يتصل بالجزء الثالث من نسخة بولاق الذي ينتهي بأول سنة ٩٢٢ هـ . وينتهي إلى سنة ٩٢٨ هـ . وهو نهاية للتاريخ .

هذا وقد نشر نص جديد لهذا القسم من تاريخ ابن إياس ، قام بإخراجه أيضاً الدكتور باول كاله وزميله ، ووصف بأنه « الجزء الخامس » من تاريخ ابن إياس (استانبول سنة ١٩٣٢) متضمناً لتاريخ مصر في نفس الفترة (٩٢٢ - ٩٢٨ هـ) . بيد أنه توجد بين النصين ، نص مطبوع بولاق ونص المجلد الجديد ، فروق كثيرة ، سواء من حيث الاستيعاب أو المدى أو الترتيب .

وقام العلماء الثلاثة بعد ذلك بنشر ما سموه « بالجزء الثالث من تاريخ ابن إياس (سنة ١٩٣٦) متضمناً لتاريخ مصر من سنة ٨٧٢ هـ (أعني منذ السنة التي انتهت فيها أبو المحاسن بن تغري بردى من « تاريخه » النجوم الزاهرة) إلى سنة ٩٠٦ هـ . وهو ما يقدمه إلينا الجزء الثاني من مطبوع بولاق ابتداء من ساطنة الأشرف قايتباي (ص ٩٠) وذلك مع فروق كثيرة في النص .

وقد أسدت جمعية المستشرقين الألمانية ، وأسدى العلماء الثلاثة ، بالعمل على إخراج هذه المجلدات الثلاثة ، ولا سيما « الجزء الرابع » الذي يحتوي على الجزء المفقود من « بدائع الزهور » خدمة جليلة إلى البحث في تاريخ مصر الإسلامية .

(١) بدائع الزهور - ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٢) بدائع الزهور - ج ٤ ص ٢٠٠ و ٢٨٤ .

دائب الأهبة والاستعداد . ولكن الإنحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ ، وكانت الثورات الداتلية تفت في نظمها وأهبتها . وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء في الإدارة أو القضاء^(١) . ويتحدث ابن إياس عن مقدمات الفتح ، ويذكر كيف أن أميراً مصرياً ، نغم على السلطان ، وفر إلى قسطنطينية ، ونقل إلى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها ، وأطلعه على قواتها وأسرار دفاعها ، وحدثه عما يسودها من الاضطراب والضعف . ثم يقول : « فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره » ، مما يدل بأن المجتمع القاهري كان يشعر بدنو النكبة وانقضاها^(٢) .

* * *

وفي هذا القسم من روايته ، أعنى تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨ هـ ، يبدى ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدى بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها ، وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق . ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المتسلسل ، للربوب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية . وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها . ولكن لابن إياس فضلاً في ذلك ، هو أنه يعنى في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتنبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة ؛ فنرى في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات ، اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ؛ ونشعر بوحى القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال

(١) بدائع الزهور - ج ٤ ص ٢٤٩ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٤ .

(٢) بدائع الزهور - ج ٤ ص ٤٧١ و ٤٧٣ .

وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام ؛ ونرى الطبقة الوسطى منكشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجرى الحوادث . أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاحبة فائز ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتخفى أمام القوة . ويتبع ابن إلياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم ، من غضب ورضى وموح واکتئاب ، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام .

أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة ، فيعرضها ابن إلياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ، ويأمر بالحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه . وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملكية التي عرفت ، يمزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية ، كلها في صعيد واحد ؛ وكانت مناصب القضاء الأعلى ، وهي أربعة ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة منصب يملؤه قاض للقضاة ، تعتبر من الوجهة النظرية أرفع مناصب الدولة ، ويلحق بها منصب المحتسب العام . ولم تكن ثمة وزارة وإنما كانت الهيئة التنفيذية مزيجاً من عدة مناصب كبرى ، يملؤها الأمير الكبير ، وأمير المجلس ، والأمير اخور ، والأمير الداوادر الكبير ، والإستادار ، وكاشف الكشاف ، وأمير السلاح^(١) . وكان اختصاص هذه الوظائف يتقلب ويختلف باختلاف السلاطين . ويتبع ابن إلياس هذه التقلبات بعناية ، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب وغيرهم من كبراء الدولة في كل حكم . ونرى مما يذكر إلى أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة ، تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات ، فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء في الغالب ؛ ونرى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى ، وينجر فيها السلطان والأمراء والقضاة ؛

(١) لا يتسع المقام لأن نشرح اختصاص كل من هذه المناصب بالتفصيل ، ولكننا نذكر فقط أن المحتسب العام يسهل على تنفيذ القوانين (الشريعة) ويضرب على أيدي المنتهكين لأحكامها فهو كالكاتب العام في عصرنا من بعض الوجوه . والأمير اخور هو ناظر الاصطبلات والركائب الملكية ومتولى جميع أمورها ، والداوادر هو المتولى لتبليغ الرسائل السلطانية ثم كانت له بعد ذلك الولاية والعزل . والإستادار متولى أمر البيوت السلطانية (ناظر الديوان الخاص) . وأمير السلاح كوزير الحربية إليه شؤون الجيش . وكاشف الكشاف كوزير الداخلية إليه مرجع كشاف الأقاليم أو مديريها .

وكيف كانت الحقوق والأموال ، بل الأرواح في كثير من الأحيان ، معلقة على نزعات العسف والنحك والهوى .

ويستعمل ابن إياس في رواية الحوادث والأوامر العامة لغة اللواوين أو اللغة الرسمية ، كما أنه يستعمل العبارات والأساليب التي كانت سائدة في ذلك العصر ، في التعبير عن كثير من شئون الحياة الاجتماعية ، وفي تصوير كثير من العادات والأحوال . وهذا وجه طريف في روايته ، فهو لا يلجأ إلى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو عبارات ذائعة متداولة . فنراه مثلاً يتحدث دائماً عما « يرسمه » السلطان من الأوامر ، وعن « يرسم » بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة ، وعن يقضى بإقامتهم في الترسيم (الإعتقال أو الحبس) لذين أو جرائم ، ويذكر في مواضع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالى أو المحتسب يشرف في القاهرة « المناداة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء » كلما حدثت فتنة أو سرى إلى الناس جزع أو انزعاج ، ويورد الأوامر والنداءات في ذلك وغيره بألفاظها الرسمية ، وكيف كان ينذر المخالفون دائماً ، « بالشنق بلا معاودة » . كذلك يصف لنا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة ، وكيف كان السلطان يشق القاهرة ، « فتفرش له الشقق الحرير في الطريق ، وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر ، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان » ، ويشير دائماً إلى شئون العصر وعاداته الاجتماعية ، فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة ، في عبارات واحدة دائماً كقوله عن حفلة زواج شهيرة : « فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، وملوا فيه أسبطة حافلة ، من الأطعمة الفاخرة ، وصنعوا فيه مزهرة بين وشامات ، وكان من المهمات المشهورة » . وهكذا . وهي لغة العصر الاجتماعية يوردها ابن إياس دائماً في مواطنها إلى جانب اللغة الرسمية . ويصف ابن إياس أيضاً الخلع المملوكية ، وثياب الأمراء ، والقضاة والجند ، والخاصة والعامة ، وما يعتورها من تحوير وتغيير ؛ كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، وتغييرات النقد وآثارها في المعاملات . وعلى الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة ؛ أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء ، تصويراً قوياً شائقاً .

وترك لنا ابن إياس ، إلى جانب مؤلفه عن تاريخ مصر ، مؤلفاً آخر ، هو مزيج من التاريخ والجغرافية وعنوانه : « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » . وفيه يتحدث حسباً يقول في مقدمته عن « عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء ، وما صنعوا من الأبنية المحكمة في مصر وغيرها من البلاد . . . وأخبار النيل والأهرام ، وعجائب البلاد التي من أعمال مصر ، وخططها وأقطارها » . ويسمى الكتاب في نسخة دار الكتب الخطية « خريدة العجائب ، وبغية الطالب » . وذكرت محتوياته على صفحة العنوان بما يلي : « فيه ذكر عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وأخبار الملوك السابقة ، وأخبار النيل وعجائبه ، وأخبار البلدان والبحار ، والأشجار ، والجزائر ، والجبال ، والعبون ، والأبيار ، والدور والكنائس والقصور » . ويتناول ابن إياس فيه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة ، وأخبار بعض آثارها وصروحها : والكتاب فياض بالأساطير والخرافات القديمة التي ردها المتقدمون . وابن إياس كعادته في ذلك ناقل فقط لا يأتي بمجديد ، ولا يعنى بتحقيق أو تمحيص ، وليس لأثره قيمة تاريخية أو جغرافية تذكر ^(١) .

كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دوّن قلم ابن إياس ، فهو يصل في روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل (سنة ٩٣٠ هـ) . ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثماني هي كما قدمنا أهم وأنفس ما في أثره ، وإن كان بيانه لم يسبق عليها كل ما يجب من دقة وقوة . فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة ، الحاسمة في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام ، سجلاً يومياً مسهباً ، يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة . وهو لا يمهّد فيه إلى الحوادث ، ولا يعنى بربطها ، بل يدونها مرسلة كما وقعت ، ويحصى آثارها لإحصاء من رأى وسمع . وما كان لابن إياس أن يمهّد أو يكثّر التعليق في رواية انقلاب مفاجئ

(١) تحفظ نسخة دار الكتب الخطية من الكتاب المذكور برقم (٤٣٩ جغرافية) . وقد نشرت من الكتاب قطعة منظمها عن النيل والمقياس ، وأرقت بترجمة فرنسية بقلم المسيو لانجليس أمين قسم المخطوطات الشرقية بمكتبة باريس سنة ١٨٥٧ .

صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة ، وقضت من بعده حيناً بين التصديق والتكذيب ، والرجاء واليأس . وكل ما هنالك أن ابن لياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، بالاستناد إلى الحوادث دائماً ، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة في عبارات شديدة ، وأحياناً مؤثرة ، ويغضب بمصرعهم ؛ ويعنى بالتبسط في سرد فظائع الترك وآثام الفاتح ، ويشيد ببطولة طومان باي آخر الزعماء المدافعين عن حرية مصر ، ويكي مصرعه ومصرع أعوانه وجنده ، ويرسل عبارات التأثر أو السخط أو الغضب أو الإشفاق كلما عن له ذلك . على أن قصور بيانه كثيراً ما يعجزه عن أن يسبق على هذه البوادر النفسية ، كل ما يجب من القوة والوضوح . وهذا القصور في البيان ينتقص كثيراً من قيمة الرواية التي يخلفها لنا ابن لياس عن حوادث الفتح العثماني . كان ابن لياس بحاجة إلى بيان كبيان جيبون^(١) ليستطيع إخراج الصور التي يقدمها إلينا في أثوابها الرائعة ، وليصف لنا فظائع الترك في القاهرة ، وما جنوا على الأنفس والأموال والنظم ؛ كما وصف جيبون بقلمه الجبار فظائعهم في قسطنطينية ، وما ارتكبه فيها يوم افتتاحها من شنيع السفك والإثم ، وما جنوا على الحضارة البيزنطية بقية أعظم الحضارات الخالدة . غير أن ابن لياس لم يكن مصوراً بارعاً للحوادث ، ولم يكن بالأخص ناقداً قوى التعليل ، يقرأ في الحوادث غير نواحيها المادية . ولكن كثيراً من الإفاضة ، وقليلاً من التأمل ، وطرفاً من الملاحظة القوية ، تعوّض عن هذا النقص في كثير من المواقف ؛ وتقدم إلى الناقد مادة لا بأس بها .

وقد بينا كيف أن مصر كانت ترتجف لشبح هذا الفتح قبل وقوعه ، وكيف أن المؤرخ كان يستشعر النكبة ، ولكن مصر لم تكن تتوقع أن يسحق استقلالها ومجدها في لحظة صاعقة . فكانت « مَرَجُ دابق » مفاجأة مروعة ، ذهلت لها مصر وصعقت . ويبدو أثر هذا الروح واضحاً في أول صرخة تبتدر من المؤرخ في ذكر النكبة إذ يقول : « وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار »^(٢) . ولا غرو فقد خرج السلطان

(١) إدوارد جيبون Gibbon المؤرخ والفيلسوف الإنكليزي الشهير (١٧٣٧ - ١٧٩٤) ، مؤلف كتاب Decline and Fall of the Roman Empire «اضمحلال وسقوط دولة الرومان» .

(٢) بدائع الزهور - ج ٣ ص ٤٥ .

الغورى ، إلى شمال الشام قاصية الحدود المصرية ، بجيشه الزاهر ، ليرد عادية الغزاة عن مصر ، فكانت « مرج دابق » قبراً له وقبراً لحريات مصر . يقول المؤرخ : « وزال ملك الأشرف الغورى فى ملح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه »^(١) . ويفيض فى تفاصيل الواقعة الهائلة التى نشبت بين الغزاة ، وبين الجيش المصرى فى « مرج دابق » فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ (أغسطس سنة ١٥١٦) ، وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدى النكبة فى القاهرة وكيف « قام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا . وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء . . . ورجت القاهرة ، وضجت الناس ، واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال »^(٢) . ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف الغورى وخلالها ويعدد مثالبه ومآثره ، وينظم فى ذلك قوله :

طلعت تاريخ الملوك فلم أرى	فيما سمعت حوادث مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها	بعجائب وغرائب بين السورى
لكن هذى وقعة ما مثلها	سبقت لسلطان ولا متأمرأ
والأشرف الغورى كان مليكنا	لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله ردت عليه بما جنى	والدهر جازاه بأمر قدرا

وينتظم ابن إياس حديثه عن الغورى وعن عصره وأعماله بإيراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتونى ، وهو من أشهر أدياء هذا العصر ، وفيه يصف النكبة ، ويرثى الغورى فى مقاطيع مبكية ، نقتبس منها ما يأتى :

غربت شمس دولة الغورى	وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم	والفلك دار ولم يزل داير

* * *

والعجائب فى قنقلة الغورى	راح برجلو لقتلوا خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا	ما جرى لو ما مر بالخاطر

(١) بدائع الزهور - ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) بدائع الزهور - ج ٣ ص ٥٢ - ٥٣ .

دمعة العين منى على الغورى
أرتجى فى الناس عين تساعدنى
كان عليه ترقب زمان ملوكو
من دماها تجرى لحزنى عين
من صباحى حتى تغيب العين
والسعادة حتى أصابو عين

* * *

ذى العساكر شبهتها روضة
واللبوس من الحديد تحكى
والإمارة تحكى شجر مثمر
والمدافع ترمى سفيرجل كبار
كم أسلى قلبى على الغورى
كل حادث بأمير القديم راحل
فيها أغصان فرسان عليها زهور
ورد أحمر بين الرياض منشور
فى رياض نشرو غسدا عاطر
ول رمان يحكى من الفحول فاخر
وأقلو ياقلب اتفكر
والإقامة للأول الآخر

* * *

يالذى جا يسمع عقود نظمه
وإن أتى لك من يطلب التاريخ
غربت شمس دولة الغورى
وبهذا رب السما قد حكم
خذ وحرر عتو بديع نقلوا
والوقائع عن الملوك قُلو
وابن عثمان نجمو طلع سائر
والفلك دار ولم يزل دابر^(١)

ويتبع ابن إياس حركات الغزاة بإفاضة منذ « مرج دابق » حتى قدومهم إلى القاهرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٥١٦). ويصف أهبة السلطان طومان باى لمقاومة الفاتح بحماسة ، وبنو « بهمة العالية » فى إعداد وسائل الدفاع ، ويجيد شرح الوقائع الهائلة التى نشبت متعاقبة بين الجيش التركى وعلى رأسه سليم الأول ، وبين الجيش المصرى وعلى رأسه طومان باى والمماليك ، وكيف عبس القدر لمصر وجيشها ، فهزم طومان باى مراراً فى أنحاء القاهرة وضواحيها ، ولكنه استمر فى دفاعه جلدأ مستبسلأ حتى انفض عنه معظم أنصاره وجنده ، ففر إلى الصعيد يجمع هنالك أشتات جيشه وأهباته . وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضواري المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وغيثاً وهتكاً ونهباً ، ودامت هذه المذبحة الهائلة أياماً أربعة

(١) راجع هذه القصيدة المبكية بأكملها - بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٤ - ٦٨ .

من ثامن المحرم سنة ٩٢٣ (أوائل فبراير سنة ١٥١٧) ويصفها ابن إياس « بالمصيبة العظمى التي لم يسمع بمثلا فيما تقدم من الزمان » ويقول : « إن الجثث كانت مرمية في الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ، ومن الرملة إلى الصليبية ، إلى قناطر السباع ، إلى الناصرية ، إلى مصر العتيقة » ويقدر القتل بأكثر من عشرة آلاف ، ويقدر من قتل من الممالك فقط بثمانمائة . ولكن هذا التقدير متواضع جداً ، إذ يقدر البعض ضحايا هذه الجريمة الشائنة بخمسة وعشرين ألفاً . ولم تحض أسابيع قلائل على ذلك حتى أمر سليم الأول بإعدام الأمراء الممالك ، وكان قد احتال عليهم ووعدهم بالأمان حتى ظهروا ، وعددهم أربعة وخمسون أميراً وقائداً ؛ وقبض على نسايمهم وفرض عليهم الغرامات الفادحة . ثم كانت الموقعة الأخيرة والفاصلة في السادس من ربيع الأول (أبريل سنة ١٥١٧) بين الغزاة ، وجيش طومان باي ؛ فإن هذا الأمير الجلد الشجاع عاد بقواته على مقربة الجزيرة بمحاول مرة أخرى لإنقاذ الوطن من براثن الوندال ، ولكن القدر ظل على عبوسه له ، فهزم للمرة الخامسة ، وغاض كل أمل في إنقاذ حريات مصر واستقلالها ، وظفر الفاتح بعد ذلك بطومان باي ، وأمر بإعدامه ، فشقق على باب زويلة أمام أعين ذلك الشعب الذي كان مليكه قبل ذلك بأشهر قلائل ، والذي أحبه وقدر خلاله . ويرثيه المؤرخ في قوله : « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك في عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ... وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاءاً ... ولم يسمع بمثل هذه الموقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شقق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل هذا .

لهني على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لن يذكر^(١)
ولبث سليم الأول في القاهرة زهاء ثمانية أشهر ، يذيق وجنده ، المصريين ، أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة ، ويجمع من تراث مصر وثروتها الفنية ، كل ما وصلت إليه يده ، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ،

(١) بدائع الزهور - ج ٣ ص ١١٥ .

ويبعث بها إلى قسطنطينية ؛ ويقبض على أكابر مصر وزعمائها ، وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ، ومهرة الصنائع والعمال ، ويحشد لهم أكداً في السفن ، ويبعث بهم إلى قسطنطينية ؛ وكان في مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس بمصر وأفراد أسرته ، وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة . وكان الفاتح يرى بذلك إلى غرضين : الأول تجريد مصر من أكابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها ، ويقتل قواها المعنوية ، والثاني نقل تراث مصر الفنى والفكرى والصناعى إلى قسطنطينية . ويقول ابن إياس في ذلك : « وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها » ويعقد فصلاً خاصاً يذكر فيه أسماء كل من نفي إلى قسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكرها وفنانيها (١) ، ويختتم هذه الوقائع كلها بقصيدة طويلة من نظمه هذا مطلعها :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى من حادث عمّت مصيبتها الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى غمض العيون كأنها سنة الكرى
ومنها: الله أكبر إنها لمصيبة وقعت بمصر ما لها مثل يرى
لهفى على عيش بمصر قد خلت أيامه كالحلم ولى مدبراً
قد كان هذا الإنتقام بمصرنا سبقت به الأقدار كان مقدرأ

ويفيض المؤرخ فى أعمال الفاتح وجوره ، وما أصاب شعب مصر من بظشه وعسفه حتى مغادرته مصر ، ثم يتتبع أخباره بعد ذلك حتى وفاته عام ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠م) ، ويترجم بهذه المناسبة ، ويرثيه بأبيات من نظمه (٢) .

(١) بدائع الزهور - ج ٣ ص ١١٩ .

(٢) تستوقف النظر هنا إشارة بدرت من المؤرخ ، فهو يحيل القارئ فيما ارتكبه سليم الأول فى مصر ، إلى كتاب له يسميه بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وذلك فى قوله : « ومن أراد أن ينظر ما وقع منه بالديار المصرية فلي نظر إلى الجزء الخامس من تاريخنا » بدائع الزهور (ج ٣ ص ٢٣٥) ووجه التساؤل هنا ، هو أن مؤلف إياس فى تاريخ مصر ، وهو الذى ندرسه فى هذا الفصل ، يسمي بهذا الاسم أعني « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فهل تكون هذه التسمية خطأ ، وهل يكون « بدائع الزهور » هذا مؤلف آخر لابن إياس غير الذى وقع فى يدنا ومرف بهذا الاسم ؟ على أنا نرجح أن « بدائع الزهور » الذى يشير إليه المؤرخ إنما هو المطول لمؤلفه ، لأن النص الذى نشرته مطبعة بولاق قد نقل كما قدمنا عن مختصرات فقط لتاريخ ابن إياس .

ومن الغريب أن ابن إياس يبدى فى عواطفه نحو الفاتحين تردداً واضطراباً ، فبينما يحمل على سليم الأول ، ويعدد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه ، إذا به يلقيه بالملك المظفر ، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته ، ويدعو بالنصر لولده وخلفه السلطان سليمان . ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ فى هذا الموقف ، وفى كثير غيره ؛ ومن الصعب أيضاً أن نتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ بما قد يخالف حقيقة عواطفه ؛ فلعله وهو كما رأينا ينحدر من أصل شركسى أو تركى ، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس . ومن جهة أخرى ، فقد كان ابن إياس يدون روايته فى عهد اضطراب وفتنة ، وربما كان هذا التردد بين المديح والذم ، نوعاً من حرية التقدير عند ابن إياس ، فهو مثلاً لا يحجم عن الحملة على مواطنيه . ووصفهم بأنهم « ليس لهم عقول ، يصدقون بالمحاولات الباطلة » .

هذه هى رواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى ، وهى وثيقة تستمد نفاستها ، رغم ضعف بيانها ، من المعاصرة والمباشرة . بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مدى هذه المباشرة ، فإن ابن إياس لم يكن جندياً يخرق الصفوف ، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة . والظاهر أيضاً أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصبية التى دون حوادثها ، فهو مثلاً لم يحاول أن يرى سليماً الأول رغم إقامته فى القاهرة عدة أشهر ؛ وهولذلك يعتمد فى وصف شخصه على صديق له رآه . ولا غرو فقد كان ابن إياس فى ذلك الحين شيخاً تجاوز السبعين ، وربما لحقته أوصاب المرض . غير أن ابن إياس كان أديباً ومفكراً كبيراً ، يتصل بأكابر عصره ؛ وكان فى وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطلعة ، وكان يشهد بعينه كثيراً من المناظر والآثار المادية لما يدون من الحوادث ، ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها . بل إن المؤرخ لا يملك نفسه أن يهتف لنفسه فى خاتمة مؤلفه ، وأن يملق نفسه بأنه « وقع له فيه من الحسن ما لم يقع لغيره من المؤرخين » وأن :

« تاريخنا بهجة المجالس يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور يشرح صدره لكل عابس »

أما نحن فنرى في رواية ابن إياس ، وما يسرده من حوادث هذا الفتح
الوندلى ، وفي ذلك الاستشهاد الطويل المروع الذى عانته مصر تحت النير التركى
الغاشم ، درساً قومياً خالداً عميق الأثر ؛ ومثلاً حياً ساطعاً لسياسة السفك
والتخريب الآثمة ، التى وصمت إلى الأبد ذكرى الوندال والهنون والتتار ،
ومن إلهيم من الشعوب البربرية الغازية ؛ ونبراساً مستنيراً لفهم نفسية هذه
الشعوب الهدامة ، وتقدير مجدها الذى لم يقم إلا على اجتياح الشعوب والمدنيات
الزاهرة^(١) .

(١) نشر هذا الفصل ضمن المجموعة التى تضمها كتابى « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط
المصرية » (الطبعة الثانية) ص ٢٠٧ - ٢٢١ .

الفصل العاشر

محمد بن أبي السرور البكرى

(١٠٠٥ - ١٠٦٠ هـ) : (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م)

كان من الطبيعى أن تنجب النهضة الأدبية ، وأن تتحطم الأقالام بمصر ، عقب الفتح العثمانى ، ومن ثم فلما نرى النهضة التاريخية التى ازدهرت فى القرن التاسع ، والتى خلقت لنا الموسوعات العظيمة فى تاريخ مصر الإسلامية ، تنجب بدورها ، ولا نجد بعد ابن إياس ، مؤرخين مصريين يتناولون تاريخ بلادهم بمثل الإفاضة ، والسعة ، والتبحر ، التى طبعت كتب المقرئى ، وابن تغرى بردى ، والعينى ، والسخاوى .

ومن ثم فلما نجد التراث المصرى التاريخى يتضاءل خلال العصر العثمانى ، ويتحول معظمه إلى مؤلفات وملخصات قاصرة ، يتعلق معظمها بهذا العصر ، وتعداد سلاطين آل عثمان ، ونوابهم بمصر ، وقلما نعث إلى جانب ذلك بروايات ضافية عن أحوال مصر ومجتمعاتها فى ذلك العصر .

على أن هذه المؤلفات المتواضعة ، تمثل مع ذلك بين مصادر التاريخ المصرى ، وتلقى أضواء كثيرة على طبيعة الحكم العثمانى ، وأحوال الولاة العثمانيين ، وخصائص الإدارة العثمانية للبلاد ، كما تلقى بعض أضواء على أحوال المجتمع المصرى ، وما كان يعانيه فى ذلك العصر ، من ضغط الفاتحين وعسفهم وجشعهم .

وكان فى مقدمة مؤرخى العصر العثمانى ، كاتب لامع خصب ، هو ابن أبى السرور البكرى ، الذى عاش خلال القرن الحادى عشر الهجرى ، وترك لنا عدة مؤلفات تاريخية ، عن النصف الأول من العصر العثمانى ، أعنى القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر .

وهو محمد بن محمد بن أبى السرور شمس الدين البكرى الصديق المصرى ، المعروف بابن أبى السرور البكرى سليل الأسرة البكرية المعروفة . ولد بالقاهرة سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) ، وتوفى بها فى سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) .

وليس لدينا تفاصيل عن حياته . بيد أنه يبدو من نسبه ، ومكانته العلمية ، أنه كان عميد السادة البكرية في وقته ، ويبدو من جهة أخرى من موضوعات كتبه ومقدماتها ، أنه كان من أولياء الحكم العثماني ، وأنه كان وثيق الصلة بالولاة العثمانيين ، فعظم كتبه ، حسبما سنرى ، يدور حول تاريخ الفتح العثماني ، وسير الولاة والقضاة العثمانيين منذ الفتح حتى عصره . وقد ترك لنا ابن أبي السرور في هذا الميدان تراثاً تاريخياً هاماً ، يلقي أضواء كثيرة على أحوال الحكم العثماني والحكام العثمانيين (أو البكربكية حسبما يسميهم) في القرن العاشر الهجري وأوائل القرن الحادي عشر .

ويتكون تراث ابن أبي السرور من عدة مؤلفات تاريخية ، وكلها ما يزال مخطوطاً لم ير الضياء . ومعظمها يدور حسبما تقدم حول تاريخ آل عثمان والحكام العثمانيين ، وليس بينها سوى مؤلف واحد ، يدور حول التاريخ العام وتاريخ الدول الإسلامية ، ومن بينها الدول المصرية منذ الفتح الإسلامي ، وسوف نبدأ باستعراض هذا المؤلف العام ، ثم نستعرض بقية مؤلفاته على النحو الآتي :

(١) كتاب « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » .

وهو مجلد ضخيم يقع في أكثر من أربعمائة صفحة كبيرة ، وقد رتب مؤلفه على تسعة عشر مقصداً أو فصلاً ، هي على الترتيب كما يلي : ذكر بيان شرف التاريخ . ما للناس من القول في مدة الزمان واختلافهم في أعمار بني آدم . في ذكر من كان قبل آدم من المخلوقات . ذكر آدم ومن بعد من الإنسان إلى حنظلة بن صفوان . ذكر ملوك الفرس . ذكر ملوك الفرس والساسانية . ذكر ملوك اليونانيين . ذكر ملوك الروم . ذكر النبي وسيرته . ذكر الخلفاء الخمسة من بعده . ذكر خلفاء بني أمية . ذكر خلفاء بني العباس . ذكر دولة بني أمية بالأندلس . ذكر أعيان الدولة الديلمية البويهية . ذكر الخلفاء الفاطمية . في ذكر دولة آل سلجوق . في ذكر الدولة الأيوبية . في ذكر الدولة التركية . في ذكر الدولة المجرسية . وهذا الفصل هو خاتمة الكتاب .

ويقول لنا المؤلف إنه لم يتناول دولة آل عثمان في هذا التاريخ ، لأنه أفرد لها تاريخاً مستقلاً ، هو الذي أسماه « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » ، وهو الذي سوف نستعرضه بعد .

ومن الواضح أن المؤلف يجرى في سرد تاريخ هذه الدول بطريق الإيجاز ، بيد أنه يميل إلى التبسيط نوعاً في حديثه عن الدول المصرية ، ولا سيما الدول المملوكية التركية والجركسية^(١) .

(٢) كتاب « الزهرة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية » .

وهذا أول الكتب التي ينحصر بها ابن أبي السرور تاريخ مصر ، وهو تاريخ موجز للدول المصرية ، يبدأه بذكر ملوك مصر قبل الطوفان ، وفي أيام الجاهلية ، وينقل في ذلك ما رواه المسعودي . ثم يتحدث عن ملوك مصر القديمة ، وعن دخولها من الأنبياء ، ثم عن فتحها في خلافة عمر ، ومن وليها من الحكام المسلمين . ثم يتحدث عن الدول الطولونية ، والفاطمية ، والأيوبية ، ودول الملوك الجراكسة . كل ذلك بمنتهى الإيجاز . ثم يتناول بعد ذلك « ذكر الدولة العثمانية بمصر المحمية » ، ويمهد له بذكر فتح مصر على يد السلطان سليم الأول . ويتحدث بعد ذلك عن خلفه السلطان سليمان ، فالسلطان سليم الثاني ، فالسلطان أحمد ، فالسلطان مصطفى ، فالسلطان مراد . ويتحدث في عهد كل من هؤلاء السلاطين ، وعن ولي مصر من الولاة والحكام (البكركية) ، ومن قضاة العسكر . وهو يتناول أخبارهم بشيء من التبسط ، ويسرد علينا ما وقع في أيامهم من الحوادث . وذلك حتى ولاية خليل باشا في سنة ١٠٤١ هـ (١٦٤١ م) .

وفي القسم الأخير من الكتاب ، يحدثنا المؤلف عن خصوصيات مصر ، وعجائبها ومنتزهاتها ، وحفلاتها . ويشمل هذا الباب الكلام عن قناطر الجيزة ، وبركة الرطلى ، وبركة الأزبكية ، ثم عن الأهرام وأبى الهول (ويقدم إلينا المخطوط رسماً ساذجاً للأهرام وأبى الهول) ، وكل ذلك منقول عن الكتاب السابقين ولا سيما المقرئى^(٢) .

(١) تحفظ دار الكتب المصرية بنسخة مخطوطة من هذا الكتاب تحفظ بها برقم ٧٢ م تاريخ (مكتبة مصطفى باشا) ، وهو يقع في ٢٠٣ لوحة كبيرة مزدوجة تضم ٤٠٦ صفحة في كل صفحة ثلاثين سطراً .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٢٦٦١ تاريخ تحتوى على ١٠٩ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط ، كما توجد منه نسخة أخرى في مكتبة جوتا ، وثالثة في مكتبة جامعة أكسفورد (البودليان) .

(٣) كتاب « الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة » . وهو كتاب صغير الحجم . ويصارعنا المؤلف في مقدمته بأنه اختاره مما ودر في كتبه الأخرى ، إذ يقول في مقدمته « فهذا كتاب ... اقتطفت فيه أزهير توارينخي التي ألفها ، وجعلته خاصاً بالديار المصرية في الدولة الشريفة العثمانية ، مع ما يضاف إلى ذلك من فضائلها البهية » .

ويرتب المؤلف كتابه على ثلاثة أبواب يشرح لنا محتوياتها على النحو الآتي :
الباب الأول - في ذكر فضائل مصر من الكتاب الكريم ، ومن سنة النبي العظيم ، وذكر دعاء الأنبياء لمصر وأهلها ، وذكر وصف العلماء لمصر ودعائهم لها ، واختيارها للصحابة والملوك ومن بعدهم إلى وقتنا هذا . وذكر فتوح مصر .
الباب الثاني - في ذكر من وليها من البكربكية والوزراء ، من حين فتحها مولانا السلطان سليم خان في سنة اثنين وعشرين وتسماية إلى سنة أربع وخمسين وألف .

الباب الثالث - في ذكر من وليها من قضاة العسكر أهل المقام الباهر . واعتمادى في مدة الوزراء والبكربكية وقضاة العسكر ، على ورود خبر العزل وجلوس الوزير أو البكربكى والحاكم الشرعى على تخت مصر من المدة هي مدة قايم مقام .

ومن الواضح ، أن الباب الأول ، وهو المتعلق بفضائل مصر ، إنما هو تردد وخلاصة لما كتب في ذلك في سائر كتب المؤرخين المتقدمين ، وليس فيه أى جديد ، كذلك لا يأتينا بأى جديد فيما يتعلق بفتوح مصر ، إذ هو منقول عن الكندى وابن زولاق .

والذى يهمنا في هذا الكتاب قبل كل شيء ، هو ما يتعلق بذكر الحكام والقضاة العثمانيين ، وهو ما يحتويه البابان الثانى والثالث . وهو يسرد لنا أخبار البكربكية أو الولاة ، وقضاة العسكر المتعاقبين ، وما وقع في أيامهم من الحوادث . وبالرغم مما تنسم به روايته من الإيجاز ، فإنها تعتبر مرجعاً نفيساً لثبت الحكام والقضاة العثمانيين في عصر نضبت فيه المراجع التاريخية المصرية^(١)

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٩٢٦ تاريخ وثقع في ٥٣ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط .

(٤) كتاب « المنح الرحمانية ، في الدولة العثمانية » .

وهذا كتاب آخر لابن أبي السرور البكرى يخص به تاريخ الدولة العثمانية ، وذكر الولاة العثمانيين على مصر منذ افتتاحها . وهو يقول لنا في مقدمته إنه بعد أن ألف كتابه « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » ، أعجب به بعض الفضلاء ، وسألوه « أن يفرد منه ذكر الدولة العثمانية الجلييلة الخاقانية في مؤلف لطيف ، مع زيادات بذكر ما حوته من مزيد السير » ، وأنه قام بتحقيق هذه الرغبة ، لأن ملوك آل عثمان هم « عين الملوك شرقاً وغرباً ، عجباً وعرباً ، مع ما أظهره من العدل والإنصاف ، وإطاعة الشرع ، والنظر للرعية ، بعين الإسعاف ، إذ كان جدى يقول ، ما دام الملك باق في آل عثمان ، فالشرع معمول به ، على توالى الزمان ، فأسأل الله بقاء دولتهم مع مزيد رفعتهم ، إذ أنها الرحمة الكاملة ، والنعمة الشاملة » .

ويتناول الكتاب ابتداء الدولة العثمانية ، منذ قيامها على يد مؤسسها عثمان خان ، ثم يذكر خلفاءه من السلاطين بالتعاقب : أورخان ، مراد الأول ، بايزيد ، محمد ، مراد الثانى . وليس لهذا القسم كبير أهمية ، إلا منذ الباب التاسع ، الذى يتحدث فيه المؤلف عن سلطنة سليم الأول فاتح مصر . ويذكر لنا المؤلف بإيجاز فتح السلطان سليم لمصر ، وما صاحب الفتح من الحوادث ، ثم يحدثنا عن سلطنة السلطان سليمان ، ثم عن ولى مصر فى عهده من البكربكية وأولهم مصطفى باشا ، الذى تولى حكم مصر فى ذى الحجة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢) ، ثم أحمد باشا ، ثم قاسم باشا . ويذكر لنا مدة حكم كل منهم ، وبعض صفاته ، وما وقع فى مدته من الأحداث . ويتحدث بعد ذلك عن السلطان سليم الثانى ، ثم عن السلطان محمد بن مراد ، الذى تولى السلطة سنة (١٠٠٣ هـ) ثم السلطان أحمد (١٠١٢ هـ) ثم السلطان مصطفى (١٠٢٦ هـ) . ويذكر لنا أسماء الولاة (البكربكية) الذى تولوا حكم مصر فى عهد كل سلطان من هؤلاء ، ويحدثنا عن الوباء الذى نزل بمصر فى ربيع الأول سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فى عهد السلطان أحمد ، وعهد الوالى جعفر باشا ، وعن راح ضحيته من الأعيان . ويلحق بهذا المؤلف الذى يشغل من نسخته المخطوطة ٩٢ لوحة مزدوجة ، قطعة

صغيرة في « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » ، تشغل نحو عشر لوحات أخرى^(١)

(٥) « اللطائف الربانية على المنح الرحمانية » .

إن ابن أبي السرر البكرى يكرر نفسه في كتبه ، ولا سيما حول ذكر الولاة والقضاة العثمانيين الذي تولوا الحكم والقضاء بمصر . وهذا ما فعله في هذا الكتاب . فهو يقول لنا في مقدمته إنه « بعد أن ألقت كتابي المسمى بالمنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، وذكرت فيه بكل ربكيتهم بمصر ، فخطر لي أن أجمع تاريخاً له ، وزدت فيه ذكر قضائهم بمصر مع زيادات ظفرت بها بعد تأليف المنح ، وسميته « فيض المنان بذكر دولة آل عثمان » . وهذا العنوان الذي ورد في المقدمة يخالف العنوان المدون فوق الورقة الأولى من المخطوط ، وهو الذي أوردهناه فيما تقدم .

ويبدأ ابن أبي السرور كتابه بذكر جلوس السلطان عثمان بن السلطان أحمد في ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٨ م) ، وما وقع في عهده من الحوادث . غير أنه يبدأ ذكر الولاة منذ الوالي أحمد باشا الذي تولى حكم مصر في سنة ٩٣١ هـ (١٥٢٤ م) ، ثم يسرد أسماء الولاة تباعاً ، وما كان يقع في ولاية كل منهم من الحوادث ، وهم على التوالي قاسم باشا . إبراهيم باشا . الوزير سليمان باشا . خسرو باشا . سليمان باشا . داود باشا . علي باشا . محمد باشا الشهير بدقادن زاده . إسكندر باشا . علي باشا الصوفي . ثم محمد باشا وهو الخامس عشر من الولاة العثمانيين . ويجري ذكر هؤلاء الولاة حتى سلطنة السلطان مصطفى في سنة ١٠٣١ هـ . ثم يقدم لنا بعد ذلك فصلاً يذكر فيه من ولي مصر من القضاة العسكر ، وأولهم المولى أحمد الرومي ، ويذكر مدة كل منهم ، وما جبل عليه من الصفات ، وما أحدثه من الأعمال والتغييرات ، ويسمهم جميعاً بالموالي ، ويستمر في ذكرهم حتى المولى رضوان أفندى الشهير بالحتشم ، وهو السادس والستون من قضاة

(١) يوجد من كتاب « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » بدار الكتب نسخة مخطوطة تقع في ١٠٢ لوحة مزدوجة يشغل منها هذا الكتاب ٩٢ لوحة ويشغل الذيل المسمى « باللطائف الربانية » اللوحات العشرة الباقية . ويحمل هذا المخطوط رقم ١٩٢٦ تاريخ .

الدولة العثمانية بمصر ، وكانت ولايته للقضاء في سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢١ م) (١) .
وكتب ابن أبي السرور إلى جانب هذه المؤلفات التاريخية مختصراً لخطط
المقريزي أسماه « قطف الأزهار من الخطط والآثار » ، ورتبه على نحو خطط
المقريزي تقريباً ، فتكلم عن أصل تسمية مصر ، وعن نيلها وجبالها وأهراماتها
وملوكتها قبل الإسلام ، وعن الفتح الإسلامي ، ثم أخبار الفسطاط وأخبار
الخلفاء والسلاطين ، كل ذلك بمنتهى الإيجاز . ثم تحدث عن الفتح العثماني ،
وعن نواب الدولة العثمانية حتى ولاية الوزير أيوب باشا (١٠٥٤ هـ) ، وعن
قضاة مصر منذ الفتح الإسلامي ، ثم قضاة الدولة العثمانية حتى سنة ١٠٥٦ هـ .
وهذه الفصول الأخيرة هي الزيادات التي أضافها المؤلف إلى مختصر الخطط .
وأما عن الخطط فقد اقتبس المؤلف أبواب المقريزي ، عن القاهرة وقصور
الخلفاء ، وعن الحارات والدروب ، وعن الصروح المختلفة من الجوامع والمساجد
والمدارس والخوانق ، وعن القياسر والأسواق ، والكنائس والديارات . وهو
يكتفي في ذلك بما أورده المقريزي ، غير أنه يقرنه من آن لآخر بملاحظات
وزيادات موجزة عما طرأ على أحياء القاهرة في عصره من التغيير في مختلف
أحيائها . وهذا وجه أهمية هذا المختصر ، فهو يصل تاريخ الخطط في بعض المعالم ،
من حيث تركها المقريزي إلى عصره (٢) .

* * *

هذا مجمل ما تركه لنا ابن أبي السرور البكري الصديقي من مراجع تاريخية ،
يتعلق معظمها بالفتح العثماني لمصر ، وبالولاية والقضاة العثمانيين ، منذ الفتح حتى
أواسط القرن الحادي عشر الهجري .

وهي مراجع لا شك في قيمتها وأهميتها بالنسبة لتاريخ مصر في العصر
العثماني ، الذي يسوده نوع من الظلام ، وتندر فيه المصادر الجادة . ونستطيع
أن نقول إن مؤلفات البكري يمكن أن تعتبر حلقة هامة في سلسلة مصادر العصر

(١) توجد نسخة مخطوطة من « اللطائف الريانية » بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٨٠ م
تاريخ (مكتبة مصطلقى باشا) وهي في مجلد صغير متوسط القطع .

(٢) يوجد من كتاب « قطف الأزهار » نسخة خطية بدار الكتب تحفظ برقم ٤٥٧ جغرافية
وهي عبارة عن مجلد متوسط يقع في نحو ثلاثمائة صفحة . ومنه نسخ خطية أخرى في باريس ولندنجراد .

العثماني ، تقرب من العصر الذي يعالجه الجبرتي في بداية تاريخه ، وتقرب الثغرة بين العهدين . وإنه لتبدو لنا من هذا التراث حقيقة أخرى جديرة بالتسجيل ، وهي تلخص في موقف الطبقة المصرية العليا يومئذ من الحكم العثماني ، وما كانت تبديه من ولاء أو ملق للدولة العثمانية المسيطرة على أقدار الوطن ، ولولاتها الذين عرف معظمهم بالاستبداد والعسف والقسوة الغاشمة في حكم البلاد ، والعمل على سحق كل مقوماتها المادية والأدبية ، وذلك لكي تحتفظ بنعمائها ونفوذها وجاهاها . ولقد أوردنا من قبل ، ما ذكره البكري في مقدمة كتابه « المنح الرحمانية » من مديح مغرق للدولة العثمانية ، وتنويه بما أظهره ملوك آل عثمان « من العدل والإنصاف وإطاعة الشرع » ، ومن دعاء ببقاء دولتهم « إذ أنها الرحمة الكاملة والنعمة الشاملة » . وننقل هنا فقرة أخرى مما ورد في كتاب « الروضة المأنوسة » ، في خاتمة الفصل الذي يتحدث فيه البكري عن دعاء الأنبياء ووصف العلماء لمصر ، وقد أوردنا شرحا لإحجام آل عثمان عن اتخاذ مصر داراً لملكهم ، قال :

« وأما ساداتنا آل عثمان ، فعدم جعلها دار ملكهم ، وكرسي سلطانهم لخوفهم على القسطنطينية من الكفرة ، ولما ملكوا من جهة بر روميل من الكفار ، فخافوا أن يجعلوها دار ملكهم لبعث المسافة من مصر إلى الجهة المذكورة . ولكن ليس عندهم أعظم من مصر ، ولا أرجح منها دون ساير بلادهم . فنسأل الله تعالى أن يقيها بأيديهم إلى يوم القيامة » (١) .

ولسنا في حاجة إلى التعليق على تلك الحقيقة المؤلمة ، التي تنضح من مثل هذا الدعاء .

(١) مخطوط « الروضة المأنوسة » لوحة ٢٨ .

الفصل الحادى عشر

عبد الرحمن الجبرى

واضع أسس الرواية عن مصر الحديثة

(١١٦٨ - ١٢٤٠ هـ) : (١٧٥٦ - ١٨٢٥ م)

ليس فى صحف مصر الإسلامية أظلم من العهد التركى ، ولم ينزل عصر من عصور الحكم الأجنبى بمصر ، ما أنزله بها حكم السلاطين والباشوات الترك ، ولم يعصف مثله عصر بنى مصر ، أرواحهم وعقولهم وجسومهم . وهو حكم لا تعوزه الدلائل رغم ما يحيط بسير هذا العصر من أسباب الغموض والظلمات . فالعصر التركى أغمض صحف مصر أيضاً رغم كونه أحدثها ، وقبلما نظفر عنه بوثائق تاريخية شافية ، أو صور صحيحة عن أحوال مصر الاجتماعية والفكرية ، وكل ما نظفر به سير الباشوات الولاة ، وأخبار عسفهم ومظالمهم ، ودسائسهم وأعمالهم الإدارية . وهى كلها صحف متائلة . أما الشعب المصرى ، وحقيقة أحواله المادية والمعنوية ، فقلما نجد عنه فى هذه السير آثاراً شافية . ويرجع ذلك إلى طبيعة النظم السياسية والاجتماعية التى فرضت على مصر وشعبها خلال هذه القرون المظلمة . على أن مؤرخاً مصرياً استطاع أن يخلف لنا وثيقة نفيسة ، عن أحوال مصر فى العصر التركى ، وهى وثيقة تتعلق بأواخر هذا العهد ، ولكنها تلقى ضوءاً كبيراً على ما تقدم من عصور ، لأن التماثل فى النظم والأحوال كما قلنا ، من أهم ظواهر تاريخ مصر أيام الباشوات .

هذا المؤرخ الذى يعتبر بحق ، واضع الحجر الأول فى صرح الرواية عن مصر الحديثة ، هو عبد الرحمن الجبرى . ولسنا نريد فى هذا الفصل أن نعرض للمؤرخ قدر ما نعرض لمجهوداته التاريخى . فهو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرى . ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م) ، وتوفى بها سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) ، وتلقى من التربية والعلوم ما كان يسمح بتلقيه فى عصره ، وحفظ القرآن طفلاً ،

وكان معلمه الأول أبوه الشيخ حسن برهان الدين ، وهو من أكبر علماء عصره ، وقد اشتهر بالأخص بتضلعه في المعقولات والعلوم الرياضية . ودرس عبد الرحمن كذلك على أشهر أساتذة العصر ، وبرع بالأخص في علوم الدين واللغة ، وكذلك في الحساب والهندسة والفلك ، وهى العلوم التى تلقاها بالأخص عن أبيه ، وأبدى في دراسته تفوقاً وذكاء . وهو يذكر لنا كثيراً من شيوخه خلال استعراض تراجهم في تاريخه . ثم تولى التدريس بالجامع الأزهر ، وكان يلقى دروسه في الفقه والرياضة والفلك . ولما غزا الفرنسيون مصر في سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، سافر الجبرتي إلى بلدة إيبير في شمال الدلتا حيث توجد أملاكه ، معتزماً أن يقيم هنالك ، مؤثراً سكون الريف على اضطرابات العاصمة . على أنه لم يقيم إلا قليلاً . ولعل ذهنه الوثاب لم يطاوعه يومئذ ، على أن يتعد طويلاً عن حوادث فريدة في تاريخ مصر ، خصوصاً بعد أن هدأت العاصفة الأولى . وعلى أى حال فقد كان المؤرخ يومئذ يرى الحوادث ويلاحظها عن كثب ، ويدون عنها مذكراته ، فعاد إلى القاهرة غير بعيد . ويقول مسيو الكساندر كاردان ، الذى نقل جزءاً من تاريخه إلى الفرنسية ، والذى استقى معاوماته عنه من أسرته ، أن المؤرخ استدعى ليعين عضواً في الديوان العام الذى أنشأه نابليون من بعض شيوخ مصر ، ليستعين به على تهذيب الأحوال ، وضبط النظام ، وأنه عين فعلاً عضواً في هذا الديوان ، وظهر بين أعضائه ، ونال احترام قادة الجيش المحتل وكبرائه . ولكن المؤرخ لا يذكر لنا ذلك عن نفسه في أخبار الديوان الذى يذكر أعضائه العشرة ، وهو ليس منهم . كذلك لا يشير إلى ذلك في كلامه عن الديوان الثانى المعروف بمحكمة القضايا الذى عقب الديوان الأول .

ولكن الجبرتي عين بالفعل عضواً في الديوان الثالث ، الذى ألفه الجنرال منو في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ م (جمادى الثانية سنة ١٢١٥ هـ) ، من تسعة أعضاء ، هم الشيخ عبد الله الشراوى رئيس الديوان ، والشيخ محمد المهدي كاتب السر ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى صهر الجنرال منو ، والشيخ الفيومى ، وعبد الرحمن الجبرتي ، وهو يشير إلى نفسه في هذا الموطن خلال ذكر الأعضاء

بقوله « وكاتبه » ، أى مؤلف الكتاب^(١) . وعين الشاعر السيد إسماعيل الخشاب صديق الجبرتي الحميم أميناً للمحفوظات ، وكاتباً لسلسلة التواريخ ، وهى عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة . ومن الواضح أن اتصال الجبرتي على هذا النحو بسلطات الاحتلال ، كان يهيئ له فرصة طيبة للوقوف على الأحداث ، والاطلاع على كثير من الوثائق والبيانات والإحصاءات الرسمية ، والانتفاع بذلك فى تدعيم مجهوده التاريخي ، ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الاحتلال الفرنسي .

وقد بدأ المؤرخ وضع مذكراته التاريخية قبل الاحتلال الفرنسي ، كما يستفاد ذلك من مقدمته إذ يقول : « أنى كنت سودت أوراقاً فى حوادث آخر القرن الثانى عشر (الهجرى) وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها ممن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيوخ تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمراء المعبرين » . ونلمح من هذه العبارة أن الجبرتي أراد أن يكون مؤرخ عصره قبل كل شيء ، فدون ما وقع تحت بصره وسمعه ، من الحوادث والمشاهد والأخبار ، ولكنه رأى أن يمهّد إلى عصره بحوادث العصر الذى سبقه . والواقع أن المؤرخ يبدأ تاريخه بفاتحة القرن الثانى عشر ، بعد أن يحمل تاريخ مصر أيام الدولة الإسلامية فى لوحة موجزة ، ثم يتبسط فى سرد الحوادث كلما اقترب من عصره . وهو يسلك فى حوادث الجليل الذى تقدمه ، وهو أواخر القرن الثانى عشر ، مجلداً ضخماً . ولهذا القسم الأول من تاريخه قيمة كبرى ، إذ هو عرض واضح لدور من أدوار الحكم التركى ، يلقي ضياء على ما تقدمه من أدوار متماثلة فى معظمها ، ثم هو صورة قوية للمجتمع المصرى فى ذلك العصر ، ولعله وثيقة فريدة فى هذا الباب . وللرواية هنا كثير من القوة التى تمثل فيها يرويه المؤرخ بعد من الحوادث المعاصرة ، فهو قد تلقاها من « أفواه الشيوخ » الذين عاصروا الحوادث وشهدوها ، هذا إلى ما يكون قد عثر عليه من وثائق ، أو حققه من الأشخاص الرسميين أو المصادر الرسمية ، وقد كان يتصل بها بحكم نشأته وتربيته العلمية ، وكان العلماء و« الشيوخ »

(١) تاريخ الجبرتي (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٣ ص ١٤٤ .

يومئذ من أهم مصادر السلطان والرأى . ويبين ذلك واضحاً في كثير مما يرويه من حوادث هذا العصر .

ويختار الجبرتي لعرض الحوادث الترتيب الزمني ، فيعرضها متعاقبة في الأعوام والأشهر والأيام المتعاقبة ، على طريقة ابن الأثير في الكامل ، وهي طريقة تخل أحياناً بنظام الربط والتدليل والاستنتاج . ولكنها لا تحدث مثل ذلك الأثر في رواية الجبرتي ، لأن الحوادث التي يعرض لها ، إذا استثنينا عهد الاحتلال الفرنسي ، إنما هي في الغالب سلسلة من الأعمال والنزعات والأهواء الفردية ، لا ترجع إلى فكرة أو سياسة عامة ، ثم هي إذا تعلقَت بحركات الجموع ، كانت وثبات عرضية متقطعة ، لا تستند إلا إلى أسباب أو بواعث مؤقتة . وماذا دون الجبرتي غير أعمال الحكام وزعماء الممالك ، وسير الأفراد النابهين ، وفورات العامة ؟ على أن هذه هي كل تاريخ مصر في هذا العصر ، ومن استقراؤها وتحليلها ، يبرز المجتمع المصري يومئذ في صورته الحقيقية ، وهذه هي مهمة مؤرخ مصر في عصرنا . أما الجبرتي فلم يعن إلا بأن يقدم إلينا ثبناً من حوادث عصره وصوره المختلفة ، قلما يتخللها التعليق أو التحليل ، وأن يهب الخلف وثيقته القيمة ليقروا ويتأملوا ويحكموا . على أن الجبرتي يمتاز في تطبيق هذه الطريقة بمهارة في العرض وقوة في الملاحظة ، ودقة في التفصيل ، فهو يلدن غير الحوادث السياسية والحربية ، كل حادثة اجتماعية أو اقتصادية ، ويعرج على أصغر الحوادث كما يعنى بأعظمها ، ويعنى بظواهر الطبيعة ، ومظاهر الحياة العامة ، وأحوال الأفراد العاديين ، وطبائعهم وأخلاقهم ، ثم يعنى بكل التفاصيل الجغرافية والتخطيطية ، حتى ليخيل إليك في كثير من المواقف ، إنك تشهد معه ما يروى من حوادث القاهرة في أحياء وأماكن ما زالت قائمة في عصرنا ، فلم يكن الجبرتي مؤرخاً فقط ، بل كان أيضاً صحفياً بارعاً ، ولو أنه اختار أن يذيع مذكراته في نشرات أسبوعية أو شهرية ، لكان بحق مبكر الصحافة العربية ومنشؤها . وإليك مثلاً مما يدونه في حوادث عام ١١٠٦ هـ :

وفي ثامن عشر رجب ، ورد الخبر بجلبوس السلطان مصطفى بن محمد .
« في رابع شعبان ورد مرسوم بضبط أموال نذير أغا وإسماعيل أغا الطواشين
فسجنوهما بباب مستحفظان وضبطوا أموالهما وختموها .

« في خامس شوال أنهى أرباب الأوقاف والعلماء والمجاورون بالأمر إلى على باشا بامتناع الملازمين من دفع خراج الأوقاف ، وخراج الرزق المرصدة على المساجد ، وما يلزم من تعطيل الشعائر ، فأمر الملتزمين بدفع ما عليهم من غير توقف فامثلوا .

وفي حوادث عام ١١٠٧ هـ :

« في منتصف المحرم اجتمع الفقراء والشحاذون رجالاً ونساء وصبياناً ، وطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع ، فلم يجبههم أحد ، فرجوا بالأحجار ، فركب الوالى وطردهم ، فنزلوا إلى الرملة ، ونهبوا حواصل الغلة التي بها ، ووكالة القمح وحاصل كتبخدا الباشا . وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستائة نصف فضة . . . ومات الكثيرون من الجوع ... واشتد الكرب ، وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ، ومن على رؤوس الخبازين ، وبذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصي حتى يخزوه بالفرن ، ثم يعودون به .

« وفي شوال عمل الباشا مهماً عظيماً لختان ولده إبراهيم بك ، وختن معه ألفين وستائة وستة وثلاثين غلاماً من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار .

وفي حوادث عام ١١٠٨ هـ :

« في ١٣ ربيع الأول ورد أمر بتزيين أسواق مصر سروراً بمولود للسلطان سمي محموداً .

وورد الخبر باستشهاد مراد بك .

« وفي ١٣ رمضان أحضر الباشا الشيخ محمد الزرقاني أحد شهود المحكمة ، بسبب أنه كتب حجة وقف منزل آل إلى بيت المال ، فأمر بخلق لحيته ، وتشهيره على جل في الأسواق ، والمنادى ينادى عليه ، هذا جزاء من يكتب الحجج الزور ، ثم أمر بنفيه إلى جزيرة الطينة » .

وكثيراً ما يعرج المؤرخ على الظواهر الطبيعية ، فيقول مثلاً :

« في غاية الحجة سنة عشرين ، كسف جرم الشمس في الساعة الثامنة ، واستمر سبع عشرة درجة ثم انجلت .

« في شهر شوال (سنة ٢١) ترادفت الأمطار ، وسالت الأودية حتى زاد نهر النيل بمقدار خمسة أذرع ، وتغير لونه لكثرة ممازجة الطفل للماء في الأودية ، واستمرت الأمطار تنزل وتسكب إلى غاية الشهر ، وكان ابتدائها من غرة رمضان .

ويعنى المؤرخ بتدوين عادات عصره ورسومه بدقة ، وإليك كيف يصف حفلة عرس وقعت في عام ١٢٠٦ هـ وهي مما شهدها بنفسه :

« في أواخر شهر الحجة شرع إبراهيم بيك في زواج ابنته عديلة هانم للأمير إبراهيم بيك المعروف بالوالى أمير الحاج سابقاً ، وعمر لها بيتاً مخصوصاً بجوار بيت الشيخ السادات ، وتغالوا في عمل الجهاز والحلى والجواهر ، وغير ذلك من الأواني والفضيات والذهبيات . وشرعوا في عمل الفرح ببركة القيل ، ونصبوا صواري أمام البيوت الكبار ، وعلقوا فيها القناديل ونصبوا الملاعب ، وفردت التفاريد على البلاد ، وحضرت الهدايا والتقدم من الأمراء والأكابر والتجار ، ودعا إبراهيم بك ، الباشا ، فنزل من القلعة وأحضر صحبته خلعاً وفراوى ومصاغاً للعروس من جوهر ، وقدم له إبراهيم بك تسعة عشر من الخيل ، وسبعة لؤلؤ وأقمشة هندية ، وشبقات دخان مجوهر ، وعملوا الزفة في رابع المحرم يوم الخميس ، وخرجت من بيت أبيها في عربة غريبة الشكل صناعة الإفرنج ، في هيئة كمال من غير ملاعب ولا خزعبلات ، والأمراء والكشاف وأعيان التجارة مشاة أمامها » .

* * *

هذه الرواية المتعددة الألوان المختلفة النواحي ، هي ابتكار خاص للجبرتي ، وهو منهج فريد محدث في تدوين تاريخ مصر ، وليس مبالغة أن نقول إنه يبدو من أحدث المناهج العلمية في استقراء تاريخ الأمم ، من سير الطوائف والمجتمعات التي تتكون منها ، ومن ظواهرها العامة والخاصة ، وبالأخص من سير الأفراد وأحوالهم وخلالهم في الحياة اليومية . ولعل الجبرتي إذ يقرن المنهج القديم ، الذي يعنى بتدوين تاريخ الملوك والحكومات ، بتاريخ الشعب ذاته ماثلاً في طبقاته وأفراده ، لم يكن يفكر في أن يستحدث منهجاً في التاريخ ، ولكن لا ريب

أنه كان يشعر ، وهو يدون أخبار الحياة اليومية ، والحوادث الصغرى ، وعادات العصر ورسومه ، وأخلاق الأفراد وخلالهم ، بفكرة غامضة عن أهمية هذه التفاصيل وضرورتها ، لكى يقدم من المجتمع الذى عاش فيه إلى الخلف ، صورة واضحة قوية ، ويلوح لنا أنه وفق أعظم توفيق ، فى تصوير مجتمعا المصرى فى العصر الذى عنى به ، وتصوير النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التى كان يدين بها .

ونلمح فى كل ما يعرضه المؤرخ من هذه الصور الطريفة ، قوة فى الملاحظة ، ودقة فى البحث ، ووضوحاً فى العرض ، وبساطة فى التعبير ، ونزاهة فى التقدير . بيد أنه يبدو فى ذروة هذه المواهب ، فى القسم الذى كتبه عن الغزوة الفرنسية والاحتلال الفرنسى . ويشغل هذا القسم معظم المجلد الثالث من تاريخه ، وفيه يأتى على كل كبيرة وصغيرة ، من حوادث هذه الأعوام الثلاثة ، ويعنى بالأخص بتلوين كل ما قامت به السلطة المحتلة ، من الأعمال العسكرية والسياسية ، والمحدثات الإدارية والاجتماعية ، وإثبات معظم الوثائق التى صدرت فى صور الأوامر أو البيانات أو الرسائل ، والتى كان معظمها يعلق يومئذ على جدران القاهرة . وقد استفاد المؤرخ كثيراً من اتصاله بالسلطات المحتلة فى تحقيق روايته إلى أعظم حد ممكن . كذلك عنى الجبرقى بإثبات كل مجهود بذله الأمراء المالك لمقاومة الاحتلال ، وهو يتحدثنا أيضاً عن سائر الثورات الشعبية والحلية التى اضطرت ضد الفرنسيين . وذلك سواء فى أحياء القاهرة أو دروبها ، أو فى مختلف أنحاء الأقاليم ، ويفيض فى وصف هذه الحركات ، ويسرد لنا تفاصيلها بدقة ، وما أنزلته بالفرنسيين فى بعض الأحيان من الأضرار والخسائر الفادحة . يتحدثنا الجبرقى بنوع خاص عن أحوال عامة القاهرة وحركاتهم ، وأخبارهم . وهو فى ذلك يبدى خفة روح جمّة ، حتى أنك لتبتسم عند كثير من أخباره وعباراته ، وقد تفرق أحياناً فى الضحك حيناً تتلو أخبار « الحرافيش » و « الجميدية » ، ومواكبهم ، ومعتقداتهم وأناشيدهم وذعرهم . وهنا يبدو الجبرقى فى خير ثوب نزاهة يمكن أن يرتديه مؤرخ ، يرى بلاده يغزوها العدو الأجنبى . فهو هادئ فى العرض هدوء فى كل مكان آخر ، وهو باحث عن الحقيقة قبل كل شيء ، وهو يعف عن التعليق

من خصومه زعماء الماليك ، وأنصارهم وأتباعهم من أبناء مصر . وإذا لم يكن في
صحف الماليك في هذا العهد ، وفي كثير من عصور الحكم التركي ، ما يشيد
بذكرهم ، ويرفع من هيبتهم ، فإن التاريخ يسجل أنهم دافعوا عن مصر بأرواحهم
أحقاباً ، وشادوا لها ببسالتهم مجداً لا يمحي ، وأقاموا فيها أيام دولهم الزاهرة ،
للعلم والأدب صروحاً رفيعة ، ثم هلكوا أخيراً في سبيل الدفاع عنها تحت أقدام
الظافر ، وعاشوا بعد ذلك تحت نير المقتصب في ظلام وعزلة . على أنهم لبثوا
خلال عزلتهم طوال القرون لا يخدم سخطهم على الأجنبي المغير ، ولا ينجو
شوقهم إلى استعادة لمحة من سلطانهم الناهب . وقد كانوا هم الذين تحركوا
وحاولوا رد الفرنسيين عن مصر ، بينما كان الولاة في مصر وأتباعهم يتوارون ،
وبينا كانت حكومة السلطان تسلم مصر ، فريسة ذليلة لغزاتها الجدد . هذه البقية
الباقية من جنود بواسل ، هي التي خشى محمد على بطشها بسلطانه الفتى ، فلجأ
للقضاء عليها إلى أوضع ضروب الغدر ، ودبر مذبحته ، التي ترتجف لذكرها
الأوصال فرقاً .

وفي رواية هذه الواقعة الدموية ، يرسل الخبر في لمحة من كوامن اشمئزازه
ومخطه ، بل ينوح ويكي ، حذراً متحفظاً ، ويسرد تفاصيل الجريمة ، دهشاً
مروعاً ، ويصف بدقة ووضوح ، كيف انقلب الحفل الذي دبره محمد على ،
وهرع الماليك أمراء وبطانة إلى شهوده ، في أثواب ضاحكة بهيجة ، إلى مقتلة
عظيمة ، وكيف أعقب نجمة محمد على لضيوفه ، وثوب أعوانه القتلة بالأضياف ،
الذين لم يغيب بعد عن آذانهم صدى تحيته ، ولم يستقر في بطونهم ما تناولوا من
شرابه . يقول المؤرخ في وصف هذا الصباح الأسود : « وأسرف العسكر في
قتل المصريين ، وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحداً ، وأظهروا كامن
حقدهم » ويسرد ضروباً مثيرة مروعة من الوحشية ، التي أبداءها القتلة الغادرون
في لإزهاق فرائسهم ، والمثيل بها : « وعند ما تحقق العسكر حصول الواقعة
وقتل الأمراء ، انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم ،
طالبين النهب والغنيمة ، فولجوها بغتة ونهبوها نهباً ذريعاً ، وهتكوا الحرائر
والحریم ، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات ، وسلبوا ما عليهن من

الحلى والجواهر والثياب ، وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعه بسرعة ، فقطع يد المرأة » . وكانت المذبحة عامة ، تكشف بفظائعها ، كل ما نقرأ في صحف الوندال وبرابرة العصور الوسطى . كانت سانت برتلمى أخرى^(١) ، أو صورة من مذابح سبتمبر . فسالت الدماء مدراراً في الأقاليم والقرى « ووردت الرؤوس ، في ثلثي يوم من النواحي ، فوضعت بالرميلة ، وعلى مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة ... » وكان القتل « يلقون في حفر في الأرض فوق بعضهم البعض لا يتميز الأمير عن غيره ، وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظام ، وألقوا جماعهم المسلوخة ، على الرمم في تلك الحفرة » . « فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها » .

بهذه العبارة يختتم المؤرخ تفاصيل المذبحة العلوية ، وبها يرثى الفرائس . بل لعل أصدق ما في الرثاء روعة التفاصيل التي عني المؤرخ بضبطها وترتيبها . وقد تلمح أثر هذا الرثاء أيضاً ، فيما يورده المؤرخ من تراجم زعماء الماليك ، والإشادة بشجاعتهم وخلالهم . وإذا صدقنا ما يروى من أن يد الأهواء ، قد لعبت بما رواه المؤرخ عن أعمال محمد على ، فصادرت أول طبعة من مخطوط المؤرخ ، وأصدرت الحكومة طبعة حذف منها ما لم يرق ، للذين يريدون أن يصور محمد على للخلف دائماً في ثوب الملاك الطاهر ، فإن ما أبقت عليه يد الحو من بودار الألم والأسى ، التي أرسلها الجبرتي خلال روايته ، ليست إلا لحة ضئيلة مما عساه يكون قد سطره فعلاً .

وقد ينتحل التاريخ الموضوع كل ما يستطيع من أعذار لمحمد على ، وقد يبرر المذبحة العلوية ، بأنها عمل من أعمال السياسة ، قضت به الحكمة والضرورة . ولكن مها كانت قيمة هذه الأعذار ، فإن النقد التزيه ، سيذكر دائماً أن هذه الواقعة الدموية ، كانت ضربة أليمة للقومية المصرية ، وأنها عصفت أشد عصف

(١) وبين سانت برتلمى التي زعم فيها الهوجنوت في فرنسا (سنة ١٥٧٢ م) ألوفاً ، وبين مذبحة محمد على شبه كبير ، فقد اجتذب الهوجنوت سادة وبطانة إلى الإحتفاء بعرس أميرهم هنري د ناغار ، كما اجتذب محمد على فرائسه احتفاءً بتشجيع ولده طوسن . أما مذابح سبتمبر فقد وقعت بفرنسا سنة ١٧٩٣ ، وكانت من أروع وقائع الثورة . وفيها هلك ألوف من النبلاء ورجال الدين وأنصار الملكية .

بحيوية مصر وبنائها الاجتماعى ، ومهدت إلى رهط من العناصر الأجنبية الدخيلة ،
السبيل إلى استرقاق الطبقات المصرية الصميمة واستغلالها أجيالا .

* * *

ويعنى الجبرقى إلى جانب ما يسرده من حوادث الأيام والسنين ، بترجمة أعلام
العصور التى يتحدث عنها ، ولا سيما أعلام عصره ، وذلك فى فصول مفردة .
والواقع أنه يقدم إلينا بهذه الفصول ثبناً حافلاً جداً ، أو دائرة معارف تاريخية
لأعلام مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل القرن الثالث عشر ، من مفكرين ،
وجند ، وساسة . ويعنى بالعلماء والمفكرين المعاصرين عناية خاصة ، ويسرد
أحياناً طرفاً من آثارهم فى النثر والنظم . ولهذه اللمحات قيمتها فى تقدير مكانة
الأدب ولفته فى هذا العصر ، وأسلوب الجبرقى نفسه صورة صادقة ، من آداب
هذا العصر . ولعل أنخص ما يلفت النظر تردد هذا الأسلوب بين القوة والضعف ،
وبين الفصاحة والركاكة ، واقتترانه بكثير من الألفاظ العامة .

ويمتاز تاريخ الجبرقى بعدة مميزات هامة ، تضاعف من قيمته التاريخية
والحضارية ؛ من ذلك أنه يقدم إلينا صورة طيبة من حياة المجتمع المصرى ،
وعاداته وتقاليده فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وهى فترة تعتبر مرحلة
فصل بين عهدين من تاريخ مصر ، خاتمة العصر التركى ، وبداية العصر الحديث ،
الذى يمتاز بسرعة تطوره نحو حياة جديدة ومجتمع جديد .

ومن ذلك أنه يصف لنا كثيراً من أحياء القاهرة وصروحها التاريخية وخططها
فى ذلك العصر خلال سرده لمختلف الحوادث ، وهو وصف يعتبر حلقة متممة
لما تقدمه من أوصاف سابقة للمدينة العظيمة ، فى كتب الخطط والآثار ، ومنه
نستطيع أن نضع خريطة مفصلة لمواقع القاهرة ومعالمها فى ذلك العصر .

ويحظى الجامع الأزهر ، وشيوخه وطلابه من الجبرقى بعناية خاصة ، فهو
يسرد لنا كثيراً من الحوادث التى يمتزج بها اسم هذا المعهد الشهير ، ويقدم إلينا
تراجم كثير من علمائه ، ويذكر لنا كثيراً من أحوال طلابه ، وذلك بالأخص
فى عهد الاحتلال الفرنسى ، حيث لعب علماء الأزهر وطلابه ، أكبر دور فى
الثورات الشعبية المختلفة التى اضطرت ضد الفرنسيين ، ثم هو يذكر لنا مختلف

المواقف والمناسبات الهامة ، التي كان يضطلع بها « المشايخ » أو العلماء في سير الحوادث العامة ، وفي قيادة الجموع ، وفي تمثيل الشعب أو الدفاع عنه وعن حقوقه ومطالبه لدى مختلف السلطات . وبذلك تبرز لنا شخصية الأزهر القوية في ذلك العصر ، وتتلور مهامه السياسية والاجتماعية في رواية الجبرتي بصورة واضحة لا نجدها في أية رواية أخرى .

وكذلك فلن تراجع المعاصرين ، التي يذيل بها الجبرتي فصوله التاريخية ، تقدم إلينا مجموعة نفيسة من تراجم أعيان مصر في القرن الثاني عشر الهجري وأوائل القرن الثالث عشر ، مما لا نكاد نجده في أى مصدر آخر غير الجبرتي ، وهى بذلك تتم حلقات تراجم الأعيان ، من بعد كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للأمين المحبى ، وكتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر لأبى الفضل المرادى .

وقد استمر الجبرتي في تدوين حوادث عصره حتى نهاية سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) . وهو يسمى كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » . وقد نُقل المؤلف إلى الفرنسية وطبع في القاهرة سنة ١٨٨٨ ، وهذا عدا ترجمة كاردان لقسمه المتعلق بالحملة الفرنسية ، التي سبقت الإشارة إليها . وللجبرتي أثر تاريخي آخر عنوانه : « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » يخصصه لحوادث الاحتلال الفرنسي ، وقد استخرجه من مذكراته ، ووضع عقب جلاء الفرنسيين عن مصر ، بإشارة الوزير يوسف باشا ، ورفع إلى السلطان سليم الثالث فنال استحسانه ، وترجم إلى التركية ونشر في سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) في حياة مؤلفه . وقد عاد الجبرتي فأدججه في تاريخه مع زيادات وتعليقات كثيرة .

وتوفى المؤرخ في سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) شيخاً يرثى على السبعين ، بعد أن فقد بصره ، وجدأ على ولد له توفى قتيلاً سنة ١٨٢٣ ، ثم لحقه إلى القبر بعد ذلك بعامين .

ثبت المصادر

- كتاب فتوح مصر وأخبارها لعبد الرحمن بن عبد الحكم (طبعة ليدن)
كتاب تسمية ولاية مصر لأبي عمر الكندي (طبعة لجنة ذكرى جب)
كتاب تسمية قضاة مصر لأبي عمر الكندي (طبعة لجنة ذكرى جب)
فتوح البلدان للبلاذري
فتوح الشام للواقدي
أخبار سيبويه المصري لابن زولاق (القاهرة ١٩٣٣)
المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي
أخبار مصر لابن ميسر
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي
السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي .
إتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزي ١
إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي .
نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النوري .
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري
صبح الأعشى لأبي العباس الفلقشندي
الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق
وفيات الأعيان لابن خلكان
فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي
تذكرة الحفاظ للذهبي
طبقات الشافعية للسبكي
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية لابن حجر (طبعة حيدر آباد)
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر
تهذيب التهذيب لابن حجر

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى .
التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .
نظم العقيان فى أعيان الأعيان للسيوطى .
تاريخ الخلفاء للسيوطى .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس (طبع بولاق) .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور (الأجزاء الثالث والرابع والخامس المنشورة
بعناية جمعية المستشرقين الألمانية) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة .
كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى .
تاريخ الأدب الجغرافى العربى للأستاذ كراتشكوفسكى (ترجمة الأستاذ صلاح الدين
عثمان هاشم) .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

مصادر مخطوطة

- الكواكب السائرة فى مناقب أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزى .
إنباء الغمر بأبناء العمر للحافظ ابن حجر (مكتبة الأزهر) .
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى .
حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور لابن تغرى بردى .
الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوى .
القول التام فى فضل الرمى بالسهم للسخاوى (مكتبة الإسكوريال)
عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران للبقاعى .
الكاوى على تاريخ السخاوى للسيوطى .
تاريخ السلطان قايتباى (للسيوطى) .

- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (مكتبة الإسكوريال) .
- أخبار مصر (الجزء الأربعون) للمسيحي (مكتبة الإسكوريال) .
- مسند الشهاب للقضاعي (مكتبة الإسكوريال) .
- عيون الأخبار ونزهة الأبصار لابن أبي السرور البكري .
- النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية لابن أبي السرور البكري .
- الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة لابن أبي السرور البكري .
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية لابن أبي السرور البكري .
- اللطائف الربانية على المنح الرحمانية لابن أبي السرور البكري .

• • •

Wüstenfeld : Geschichteschreiber der Araber

C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur :

G. Remiro : Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino (Tomo VIII-ano 1919)

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.

Derenbourg : Les Manuscripts Arabes de l'Escorial

Encyclopaedie de l'Islam.

Journal of the Royal Asiatic Society

الفهارس

فهرست الموضوعات

صفحة

مقدمة ... ٣

١ - المؤرخون المصريون

حتى العصر الفاطمي

٨	الفصل الأول : عبد الرحمن بن عبد الحكم
٢١	الفصل الثاني : أبو عمر الكندي
٣٤	الفصل الثالث : الحسن بن زولاقي
٤٩	الفصل الرابع : عز الملك المسيحي
٥٥	الفصل الخامس : أبو عبد الله القضاعي

٢ - المؤرخون المصريون

في العصر المملوكي حتى العصر الحديث

٦٢	الفصل الأول : شهاب الدين النويري
٦٨	الفصل الثاني : ابن فضل الله العمري
٧٦	الفصل الثالث : أبو العباس القلقشندي
٨٥	الفصل الرابع : تقي الدين المقرئ
١٠٥	الفصل الخامس : الحافظ ابن حجر العسقلاني
١١٤	الفصل السادس : أبو المحاسن بن تغري بردي
١٢٧	الفصل السابع : شمس الدين السخاوي
١٤٢	الفصل الثامن : جلال الدين السيوطي
١٥٢	الفصل التاسع : ابن إياس
١٦٩	الفصل العاشر : محمد بن أبي السرور البكري
١٧٧	الفصل الحادي عشر : عبد الرحمن الجبرتي
١٩٠	ثبت المصادر :

فهرست الكتب والرسائل

الأوائل ، لأبي هلال العسكري ؛ ٧٩
الآيات النيرة في معرفة الخوارق والمعجزات ،
لابن حجر ؛ ١٠٧

ب - ت

البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر ، لابن
تقري بردي ؛ ١٢٣
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لابن إلياس ؛
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٦

بغية الراوى فيمن أخذ عن السخاوى ؛ ١٣٣
بغية الطالب ونهج المسالك ، في أخبار مصر والقري
والمالك ؛ ١٢

بلوغ المرام بأدلة الأحكام لابن حجر ؛ ١٠٧
البيان والإعراب عما بمصر من الأعراب ،

المقريزى ؛ ٨٩

تاريخ ابن كثير ؛ ١٠٩

تاريخ ابن الفرات ؛ ١٠٩

تاريخ أسيوط ، للسيوطى ؛ ١٤٦

تاريخ الخلفاء ، للسيوطى ؛ ١٤٦ ، ١٤٨

تاريخ السلطان قايتباى ؛ ١٥٠

تاريخ العمر للسيوطى ؛ ١٤٦

تاريخ غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ١٤٢

تاريخ القضاى ؛ ٦٠

التاريخ المحيط ، للسخاوى ؛ ١٣٨

تاريخ المدنيين ، للسخاوى ؛ ١٣٨

تاريخ المسجى الكبير ، تاريخ مصر ؛ ٥١ ،

٥٢ ، ٥٣

تاريخ مصر ، لابن زولاق ؛ ٣٦

تاريخ تيسابور لعبد الناصر الفارسي ؛ ١٤٢

تاريخ الولاة والقضاة ، كتاب الولاة والقضاة ،

الكندى ؛ ٢٨ ، ٣٣

التبجير في علوم التفسير ، للسيوطى ؛ ١٤٦

التبر المسبوك في ذيل السلوك ، للسخاوى ؛ ١٣٤

١

إعطاء الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ، المقريزى ؛

٨٩ ، ٤١

الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطى ؛ ١٤٦

الإتقان في فضائل القرآن ، لابن حجر ؛ ١٠٧

أخبار السرى بن الحكم ، للكندى ؛ ٣٠ ، ٣١

أخبار سيديو مصرى ، لابن زولاق ؛ ٣٥ ،

٤٥ ، ٤٦

أخبار قضاة مصر ، انظر تسمية قضاة مصر

أخبار الماردانيين ، لابن زولاق ؛ ٣٩ ، ٤٠

أخبار مصر لابن ميسر ؛ ٥٤

الأخبار المكلفة في الأحاديث المسلسلة ، للسخاوى ؛

١٣٣

أسرار التنزيل ، للسيوطى ؛ ١٤٦

الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ؛ ١١٢

الإعلام بمن ولد مصر في الإسلام ، لابن حجر ؛

١١٢

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، للسخاوى ؛

٩٨ ، ١٠١ ، ١٣٥ ، ١٣٩

أعيان النصر ، للصفدى ؛ ١١١

إغاثة الأمة بكشف الغدة ، للمقريزى ؛ ٩٥

ألفية ابن مالك ؛ ١٤٣

أمراء مصر ؛ انظر تسمية أمراء مصر

أمراء مصر (قصيدة) لابن الجزار ؛ ٣٧

كتاب الأموال ، لأبي عبيدة ؛ ٧٩

كتاب الأمثلة لخدمة المقلبة ، للمسجى ؛ ٥٢

الكل المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ،

للسيوطى ؛ ١٤٦

أنباء القمر بأنباء العمر ، لابن حجر ؛ ١٠٨ ،

١١٠

الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء ، للقضاى ؛

٥٨

- تصنيف المنتبه وتحرير المشتبه ، لابن حجر ١٠٧٤
تنمة أمراء مصر ، تنمة ولاية مصر ٢٥ ، ٤٥
التشنيف لابن فضل الله العمري ٧٩
التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبي حنيفة ،
للسخاوي ١٣٣
تسمية أمراء مصر ، تسمية قضاة مصر ، للكندي ؛
٢٥ ، ٤٥ ، ١١١
تشنيف الأسباع بمسائل الإجماع للسيوطي ١٤٦
التعريف بالمصطلح الشريف ، للعمري ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٨ ، ٨٢
تعليق التمايق ، لابن حجر ١٠٧
تهذيب التهذيب ، لابن حجر ١٠٧
التوشيح على الجامع الصحيح ، للسيوطي ١٤٦
الثبت المصري ، للسخاوي ١٣٣
- ج - ر
جمع الجوامع أو الجامع الكبير ، للسيوطي ١٤٦
كتاب الجند العربي ، للكندي ٣٨
الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ،
للسخاوي ١١٢ ، ١٣٨
كتاب جونة المناشدة في غرائب الأخبار والأسفار ،
للمسبحي ٥٢
حديث الإثنين ، لسائت يفي ١٣٧
حسن التوصل ٧٩
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،
للسيوطي ٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
١٥١
حلية الأولياء ، للسيوطي ١٤٦ ، ١٥١
حلية الصفات في الأسماء والصناعات ، لابن
تغري بردي ١٢٣
حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، لابن
تغري بردي ١١٩
ختم السيرة النبوية ، للسخاوي ١٣٩
المحصل المكفرة للذنوب ، لابن حجر ١٠٧
مخطط المقرئزي ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
٩٣ - ٩٥ ، ٩٧ - ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١١٢ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٧٥
- خ - ط
خطة القضاء ، ٦٠
كتاب خطط مصر ، لابن زولاق ٣٦ ، ٣٨
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ،
لمسبحي ١٨٩
كتاب الخندق والتراويج ، للكندي ٣١
دائرة المعارف الإسلامية ١٠٣
در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ،
للسيوطي ١٤٧
الدر المنقط ٧٩
الدر المنثور في التفسير المأثور ، للسيوطي ١٤٦
درر العقيدة الفريدة ، للمقرئزي ٨٩ ،
٩٨ ، ١٠٣
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر ؛
٦٢ ، ١١١ ، ١٤٨
كتاب درك البنية في وصف الأديار والعبادات ،
للمسبحي ٥٢
الدعوة المستجابة للعمري ٧١
دسة الباكى للعمري ٧١
الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ، للسيوطي ١٤٦
ذخيرة الكتاب لابن صاحب النعمان ٧٩
ذيل أمراء مصر ، لابن زولاق ٣٩ ، ٤٣ ، ١١١
ذيل رفع الإصر ، للسخاوي ١١١ ، ١١٢ ،
١٣٤
الذيل الشافي على المنهل الصافي ، لابن تغري بردي ١٢٣
ذيل قضاة مصر ، لابن زولاق ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤
ذيل النبلاء ، للمسبحي ١١١
كتاب الراج والارتياح ، للمسبحي ٥٢
الرحلة الحلبية وتراجيحها ، للسخاوي ١٣٣
الرحلة السكندرية وتراجيحها ، للسخاوي ١٣٣
الرحلة المكية ، للسخاوي ١٣٣
رفع الإصر عن قضاة مصر ، لابن حجر ٣٦ ،
٤٤ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٤ ، ١٤٢
رفع اليأس عن بني العباس ، للسيوطي ١٤٦
الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة ، لابن
أبي السرور البكري ١٧٢ ، ١٧٦
- س - غ
سفرة السفرة ، للعمري ٧١
سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، للمرادى ؛
١٨٩

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجبرقي ؛

١٨٩

عقد جواهر الأسفاط في أخبار القسطنطينية ،

للمتريزي ؛ ٨٩

عقود الجمان في المعاني والبيان ، للسيوطي ؛ ١٤٦

عمدة الأحكام ؛ ١٤٣

عمدة المحتج في حكم الشطرنج ، للسخاوي ؛ ١٣٩٤

عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران ،

للقاضي ، ١٣٦ ؛ ١٤٨

عين الإصابة في معرفة الصحابة ، للسيوطي ؛ ١٤٦

عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، للبكري ؛ ١٧٠

العيون النعجة في حلى دولة بني طنج ، لابن سعيد ؛ ٣٩٤

عيون المعارف ، للقضاي ؛ ٥٨ - ٦٠

الغاية في شرح الهداية ، للسخاوي ؛ ١٣٣

النبوغ المرواح ، للقلقشندى ؛ ٨٧

ف - ل

فتح الباري بشرح البخاري ، لابن حجر ؛ ١٠٤٤

فتح النيث بشرح ألفية الحديث ، للسخاوي ؛ ١٣٣

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ؛ ١٣

١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٧

الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ؛ ٨٤

فضائل مصر ، لمصر بن أبي عمر الكندي ؛ ٣٣ ، ٣٢

فضائل مصر ، لابن زولاق ؛ ٣٦ ، ٣٧

فواضل السمر في فضائل آل عمر ، للبكري ؛ ٧١

القضايا الصائبة في النجوم والحساب للمسيحي ؛ ٥٢

قطف الأزهار من الخبط والآثار ، للبكري ؛ ١٧٥

قلائد الحسان في قبائل العربان ، للقلقشندى ؛ ٨٣

القول البدع في الصلاة على الشيع ، للسخاوي ؛

١٣٩

القول الثام في فضل الرى بالمهام ، للسخاوي ؛

١٣٩

القول النافع في بيان المساجد والجوامع ،

للسخاوي ؛ ١٤٩

الكاوي على تاريخ السخاوي ، للسيوطي ؛

١٣٦ ، ١٤٥

كشف الظنون ، لحاجي خليفة ؛ ٥٣

كشف المغطى في شرح الموطأ ، للسيوطي ؛ ١٤٦٨

السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزي ؛ ٨٩

١٣٤ ، ١٢٠

كتاب السؤال والجواب ، للمسيحي ؛ ٥٢

سيرة الإخشيد ، لابن زولاق ؛ ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤

سيرة المعز لدين الله ، لابن زولاق ؛ ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤

السيف السقيل في حواشي ابن عقيل ، للسيوطي ؛

١٤٦

الشافعي من الأئم في وفيات الأئم ، للسخاوي ؛

١٣٨

كتاب الشريعات ، للمصري ؛ ٧١

كتاب الشجب في أخبار أهل الحموى ، للمسيحي ؛ ٥٢

شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبل ؛ ٧٦

شرح ألفية ابن مالك ، للسيوطي ؛ ١٤٦

شرح الشاطبية ، للسيوطي ؛ ١٤٦

شرح الثمائل النبوية ، للسخاوي ؛ ١٣٣

شرح الكافية لابن الحاجب ؛ ١٤٣

الشمارة في علم التاريخ ، للسيوطي ؛ ١٥٠

كتاب الشهاب ، للقضاي ؛ ٥٨ ، ٥٩

صبابة المشتاق ، للمصري ؛ ٧١

صبح الأعشى ، للقلقشندى ؛ ٦٩ ، ٧٥ -

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤

صحيح البخاري ؛ ٦٢

صناعة الكتاب ، لأبي جعفر النحاس ؛ ٧٩

ضموم الصبح المفسر ، للقلقشندى ؛ ٨٣

الضموم اللامع في أعيان القرن التاسع ، للسخاوي ؛

٧٧ ، ٧٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٢

١٢٤ ، ١٣٤ - ١٣٨ ، ١٤٨

طبقات الأصوليين ، للسيوطي ؛ ١٤٦

طبقات الحفاظ ، لابن حجر ؛ ١٠٨

طبقات الحفاظ ، للسيوطي ؛ ١٤٦ ، ١٥١

طبقات شعراء العرب ، للسيوطي ؛ ١٤٦ ، ١٥١

طبقات الكتاب ، للسيوطي ؛ ١٤٦ ، ١٥١

طبقات المفسرين ، للسيوطي ؛ ١٤٦ ، ١٥١

طبقات النحاة للسيوطي ؛ ١٤٦ ، ١٥١

كتاب الطمام والإدام ، للمسيحي ؛ ٥٢

- الكنز المدخر في فتاوى ابن حجر، للسخاوي؛ ١٣٩
الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة،
لغزى؛ ١٤٤، ١٤٥
الطائف الربانية على المنهج الرحمانية؛ ١٧٤
- م - ي
- ما وراء الأساطين، للسيوطي؛ ١٤٤
مجانى النصر لأبي حيان؛ ١١١
المجلة الأسبوعية؛ ١٨٥
كتاب مختار الأمانى ومعانيها، للمسبحي؛ ٥٢
المختار في ذكر الخطط والآثار، للقضاي؛
٥٨، ٥٩
مختصر البداية والنهاية، لابن حجر؛ ١١٢
كتاب مروان الجعدي لأبي جبر الكندي؛ ٣٠
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، للعمري؛
٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٧٨
كتاب مسجد أهل الراية، للكندي؛ ٣٠
مسند الشهاب، للقضاي؛ ٥٩
مظهر التقديس يذهب دولة الفرنسيس، للجبرتي؛ ١٨٩
معالم الكتاب لابن شيث؛ ٧٩
معجم مخطوطات الإسكوريال؛ ٥٣
معجم ياقوت؛ ٢٠، ٣٨
المغرب في حل المغرب لابن سميذ؛ ٣٩
كتاب المرقى والمشرق، للمسبحي؛ ٥٢
المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة، للسخاوي؛
١٣٣
مقدمة إيساغوجي؛ ١٤٣
المقنى المقرئى؛ ٣٠، ٥٧، ١١١
- المنهج الرحمانية في الدولة العثمانية، للبكري؛
١٧٠، ١٧٤
منتقى تاريخ مكة، للسخاوي؛ ١١٨
منهاج الفقه والأصول؛ ١٤٣
المجلد الصافي، لابن تفرى بردي؛ ١١٧
١١٩، ١٢٠
مواد البيان، لبلى بن خلف؛ ٧٩
المواظف والاعتبار بذكر الخطط والآثار؛ انظر
خطط المقرئ
كتاب الموالى، لأبي عمر الكندي؛ ٣٠
مورد الطائفة، لابن تفرى بردي؛ ١٢٣
النبذ الكافية في معرفة الكتابة والقافية
للمعري؛ ٧١
النجوم الزاهرة، لابن تفرى بردي؛ ٧٦،
١١٧، ١١٩ - ١٢١
الزفة الزهية، للبكري؛ ١٧١
نشق الأزهار في عجائب الأقطار، لابن إلباس؛
١٥٦، ١٦١
نظم البقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي؛
١٤٧، ١٤٩
نفحة الروض، للمعري؛ ٧١
نهاية الأرب في فنون الأدب للتويرى؛ ٦٣-٦٦،
٦٩، ٧٢، ٧٦
نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، لملقشندى؛
٨٣
الرواق في الوفيات للصفدي؛ ١١٩
الوفيات لثقى الدين بن رافع؛ ١١١
يقظة الساهر، للمعري؛ ٧١

فهرست القبائل والطوائف والدول

الدولة المملوكية ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٠ - ١٧٣ ، ١٧٥	آل البيت ٩٦
الدولة الفاطمية ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ١٠٠ ، ١٧٩ ، ١٧٦ ، ١٧١ ، ١٢١	الأغالبة ٦٦
الدولة المملوكية ١٥٩ ، ٦٦ ، ٥٢	آل حنّان ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٦ ، ١٧٣ ، ١٧٦
الروافض ٥٢	الأنصار ٩
الروم ١٧٠ ، ٥٧	أهل الراية ٣٢
الرومان ٨	البكرينكية ١٧٠ - ١٧٤
السلجوقية ١٧٠ ، ٦٦ ، ٥٨ ، ٥٦	بنو الأحمر ١١٠
السودان ٧٢	بنو الإخشيد ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠
الشيعة ٦٦ ، ٥٢ ، ٤٣	بنو إسرائيل ١٧
الصلبيين ٦٧ ، ٦٦	بنو أمية ١٧٠ ، ١٤٨ ، ١٢١ ، ٣١ ، ٢٨
الصحابة ٩ - ١١ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٦٥	بنو عبيد ٩٦ ، ٨٧
١٧٢ ، ١٤٨	بنو طولون ٣٨ ، ٢٤
العرب ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ٦٥ ، ٦٧	بنو العباس ١٧٠ ، ١٤٨ ، ١٢١
١١٧ ، ٧٢	بنو عبد الحكم ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٦
الفاطميون ٢٥ ، ٣٥ ، ٩٦ ، ١٠٠	بنو عبد الواد ٨٢
الفرس ٨ ، ٦٥ ، ١٧٠	بنو مزين ٨٢ ، ١١٠
الفرنج ٨١	التابعون ٩ - ١١ ، ١٧ ، ٢٢
الفرنسيون ١٧٨ ، ١٨٦ ، ١٨٩	التتار ٦٩ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١١٠ ، ١٤٩
القرامطة ٦٦	١٥٣ ، ١٦٨
قضاة العسكر ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤	الترك ٧٠ ، ٧٢ ، ٨١ ، ١١٧ ، ١٤٩
كتامة ، قبيلة ١٣٢	١٥٣ ، ١٦٢
المرابطون ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٢	الحليش ٧٢ ، ٨١
المصريون ١٨٦	الخلافة العباسية ٤١
المغول ٧٠	الخلفاء الراشدون ٦٥ ، ١٤٨
المماليك ١٢٠ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧	دول السلاطين المصرية ٧٤
١٨٧	الدولة الإخشيدية ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩
ملكة الروم ١١٠	الدولة الأموية ٢٤ ، ٦٦
الموال ٦٥	الدولة الأيوبية ٦٥ - ٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١
الموحدون ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٢	الدولة الجوسية ١٧٠
اللون ١٦٨	الدولة البيزنطية ٥٦ ، ٧٤
الوندال ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٨٧	الدولة التركية ١٧٠
اليهود ٦٥ ، ٩٣	الدولة الحركسية ١٧٠
اليونان ٨ ، ١٧٠	الدولة الطولونية ٣٤٠ ، ١٧١
	الدولة العباسية ٢٤ ، ٦٦ ، ١٥٣

فهرست البلدان والأماكن

بغداد ١٤٤ ، ١٦ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ١١٤ ، ١٤٣

١٥٣ ، ١٤٨ ، ١٤٣

بلاد الروم ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤

بلاد الكرج ٨٢

البندقية ٨٢

البهنسا ٥٠

بيت المقدس ١٣٠

بيزنطية ٥٧ ، ٥٨

الترکستان ١١٠

التركور ١٤٣ ، ١٤٤

تلسان ٨١ ، ١١٠

تونس ٨١

ج - ج

جامع ابن طولون ١٤٤

الجامع الأزهر ٦٢ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، ١٨٩

١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩

الجامع الأشرفي ٩٢

جامع الحاكم ٨٧

جامع عمرو ، انظر المسجد الجامع

جامع قسطنطينية ٥٧

الجامع المولدي ٩٢

جنتجن ١٢

الجزيرة ٩٦ ، ١١٠ ، ١٤٥

الجمهورية الإيطالية ٧٣

جنوه ٨١

جوتا ٣٧ ، ٣٨

الجيزة ١٦٥

حارة بهاء الدين ١٢٨

الحجاز ٧٠ ، ٧٢ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٦١

١٦١

حصن كيفا ١١٠

حلب ١٣٠

- ١ -

أبو الهول ١٧١

إيبار ١٧٨

أذربيجان ٨١

أراجون ٧٤ ، ٨١

أرزن ، ٨١ ، ١١٠

الأرض الكبيرة ، انظر فرنسا

أرمينية ٨١

الإسكندرية ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨

١٣٠ ، ٩٤ ، ٣١ ، ١٨

آسيا الصغرى ٦٦ ، ٧٠ ، ١١٠

أشبونة ٨١

الأشمنين ٩٤

إصبيان ١٤

إفريقية ١٦ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣

ألمانيا ٧٤

إنجلترا ٧٤

الأندلس ١٦ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٢

١٧٠ ، ١٦١ ، ١١٠

الأهرام ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٥

إيران ٨١

ب - ب

باب زويلة ١٦٥ ، ١٨٧

باب مستحفظان ١٨٠

باريس ١٨٥

بجاية ٨١

بركة الأزيكية ١٧١

بركة الرطل ١٧١

برلين ٨٣

البرنو ٨١ ، ٨٢

بعلبك ٨٧

الفرما ٩٤
الفسطاط ٩٤ ٩١ ١٨ ٢١ ٢٢ ٢٤
٣٠ ٣١ ٣٤ ٣٨ ٤٥ ٤٧
٩٠ ٩١ ٩٣ ١٠٠ ١٠٥ ١٧٥

فلسطين ١٣٠
القيوم ٩٤

القاهرة ١٤ ٣٥ ٣٨ ٤٢ ٥٩
٦٢ ٦٩ ٨٨ ٩٠ ٩٢ - ٩٥
٩٩ ١٠٢ ١٠٦ ١١٤ - ١١٧
١٢٥ ١٢٨ ١٣٠ - ١٣٢ ١٤٣
١٥٤ ١٥٦ ١٦٠ ١٦٢ ١٦٤
١٦٥ ١٦٧ ١٦٩ ١٧٥ ١٧٨
١٧٩ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٨

قسنطينة ٥٦ ٥٨ ٨٢ ١٥٢
١٥٣ ١٥٨ ١٦٢ ١٦٦ ١٧٦

قسنطينة ٨١

قشتالة ٨١

قصر الإسكوريال ٥٣

القطنان ٣٨ ٩٠ ٩٦

قفط ٩٤

قلعة الجبل ٩٣ ١١٥ ١٨١ ١٨٢

قلقشندة ٧٧

قناطر الجيزة ١٧١

قناطر السباع ١٦٥

قوص ٩٤

القيس ٥٠

الكعبة ٤٢

كنيسة القيامة ٥٧ ٥٨

م - ي

ماردين ١٩٠

مالى ٨٢

المتحف البريطاني ١٢ ٢٣

المدرسة البرقوقية ، الجهادية ، الحسينية ،

الشيخونية ، الصلاحية ، الصرغتمشية ،

الظاهرية ١٠٧ ١٣١ ١٤٤

مدرسة السلطان حسن ٨٧

المدينة ٨٨ ١١٠ ١٣٠ ١٣٢

مدينة مدين ٩١

حاه ١٣٠

حصن ١٣٠

حوش قوصون ١٤٥

شالقاء سعيد السعداء ١٣٠

الحضيرية ١٤٣

خراسان ٦٦ ١١٠

الخليل ١٣٠

دار الكتب المصرية ٣٢ ٤٥ ٥٩ ٦٧

٦٨ ٧٥ ٨٤ ١٣٩ ١٥٠ ١٦١

حشوق ١٤ ٣٠ ٦٩ ٨٨ ١٢٥

١٣٠

دمياط ٩٤ ١٣٠

ديوان الإنشاء ٦٩ ٧٣ ٧٤ ٧٧

٧٨ ٨١

روضة المقياس ١٤٤

الرميلة ١٦٥ ١٨١ ١٨٧

س - غ

سغا ١٢٨

سمرقند ١١٠ ١٥٢

السند ٧٢

سويقة أمير الجيوش ٩٢

السودان ٨١ ٨٢

الشام ٨٤ ٥٩ ٥٧ ٦٦ ٦٧ ٧٠

٧٢ ٨٣ ١١٩ ١٣٠ ١٣١

١٣٤ ١٤٣ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢

١٥٤

الصعيد ٥٠ ١٦٤

صقلية ٦٦

الصليبية ١٦٥

الصين ٦٩

طرابلس ٦٣

العراق ١١٠ ١٤٩

للعسكر ٣٨

عمود المقياس ٩١

غرقاطة ١١٤

ف - ك

فارس ٨ ٦٦ ١١٠

قرنسا ٧٤ ٨١

المغرب : ١٥ ، ١٦ ، ٤٣ ، ٧٦ ، ٨١ ، ١١٣ ، ١٤٤	مصر : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ - ١٦٤
المغرب الأوسط : ٨١	مسجد أهل الراية : ٣١
المغرب الأقصى : ٨١	المسجد الجامع (جامع صرو) : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨٧ ، ١٠٧
مكتبة الإسكوريال : ٥٣ ، ٥٢ ، ١١٩	المسجد الحرام : ١٣١
مكتبة باريس الوطنية : ١٢ ، ١٥٦	المشرق : ٧٦ ، ١١٥
مكتبة جامعة ليدن : ١٢	مضرب : ٨ - ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ - ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ - ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ - ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ - ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ - ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨
مكة : ٥٦ ، ٨٨ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٣٠ - ١٣٣	مصر الإسلامية : ١٩ - ٢١ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٦٩
منار الإسكندرية : ١٤٦	مصر القاهرة : ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١
منفراد : ٨١	
موقعة أنقرة : ١٥٢	
نابيل : ٨١	
ناپلس : ١٣٠	
قبره : ٨١	
نصيبين : ١١٠	
النيل : ٢٠ ، ٩٣ - ٩٥ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٨٢	
الهند : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦١	
الوجه البحري : ١٣٠	
اليمن : ٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦١	

فهرست الأعلام

- ١ —
- أبراهيم بك ١٨١ ، ١٨٢
 ابن أبي السرور البكري ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ابن أبي الليث ١٠
 ابن أبي الحجد ٨٧
 ابن الأثير ١٠٥ ، ١٠٦
 ابن إياس ١٩ ، ٨٦ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣٧
 ابن بركات النحوي ٩٩
 ابن تغري بردي ١٩ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥٣
 ٥٩ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١١٥ — ١٢٥
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٩
 ابن جحدم ٣١
 ابن جرير الطبري ١٠٥ ، ١٣٢
 ابن جماعة ١٠٦ ، ١٤٩
 ابن حيدر المسقلاني ١٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٤
 ٦٢ ، ١٠٢ ، ١٠٥ — ١١٣ ، ١١٦
 ١٢٨ — ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 ابن الحصى ١٤١
 ابن خلدون ٨٥ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٥
 ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦
 ابن خلكان ١٤ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٠
 ٥٤ ، ٥٢
 ابن دانيال الكحال ١١١
 ابن دقاق ١٩ ، ٣٠ ، ١٠٩
 ابن سعيد الأندلسي ٢٥ ، ٣٩
 ابن عبد الظاهر ٩٩ ، ١٠٠
 ابن زولاق ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩
 ٣٣ — ٤١ ، ٤٣ — ٤٨ ، ٥٥ ، ١٠٠
 ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٥٦
 ابن الطقطقي ٨٥
 ابن ظهيرة ، البرهان ١٣٥ ، ١٤٩
- ابن حبان ، انظر سليم الأول
 ابن حريشاه ١١٦ ، ١١٨ ، ١٤٩
 ابن عساكر ٦٥ ، ١٠٥
 ابن الفرج التلمحي ١٤
 ابن فضل الله العمري ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١
 ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢
 ابن قاضي شهبة ٤٩
 ابن قنيد ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٧
 ٢٨ ، ٣٢
 ابن كثير ، عماد الدين ١٠٩
 ابن كلث ٤٢
 ابن لمية ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٧
 ابن المأمون ١٠٠
 ابن المتوج ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٠
 ابن ميسر ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧
 ابن النحاس ٢٨ ، ٢٩
 ابن وصيف شاه ١٩ ، ١٠٠ ، ١٥٦
 ابن يحيى ١٠
 ابن يوقس ١٠٠
 أبو سحاق التنوخي ٨٧ ، ١٠٦
 أبو بكر الصديق ٥١ ، ١٤٨
 أبو بكر المارداني ٤١
 أبو بكر بن سامع الصنوبري ٥٧
 أبو بكر محمد بن موسى ، انظر سيوريه المصري
 أبو حامد بن الضياء ٤١
 أبو طاهر السلفي ١٢ ، ١٤ ، ١٥
 أبو عبد الرحمن النسائي ٢٢
 أبو عبد الله القضاة ١٨ ، ٥٥ — ٦٠ ، ٩٩ ، ١٥٦
 أبو عمر الكندي ١٣ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢١ —
 ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٩٩
 ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٥٦
 أبو الفرج بن الشحنة ١٠٦
 أحمد باشا ، الرائي ١٧٣ ، ١٧٤
 أحمد ، السلطان ١٧١ ، ١٧٣
 أحمد الرومي ، المولى ١٨٤

أحمد زكي باشا ٦٨
أحمد بن عبد الرحمن بن برد ٢٩
أحمد بن علي بن الإخشيد ٤٤ ، ٢٥
الإخشيد (محمد بن طنج) ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٠ ، ٣٩
الإسلام ٨ ، ٢٢ ، ٣٥ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١٤٧ ، ١٨٣
إسماعيل الخشاب ١٧٩
إسكندر باشا ، الوالي ١٧٤
الإسكندر المقدوني ٦٥
الأشرف بارسي ٩٢
الأشرف قايتباي ١٢٢ ، ١٥٠
إليون ، القيصر ٥٧
أمية ابن أبي الصلت ٣٧
أنوجور بن الإخشيد ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٦
الأوحدي ، شهاب الدين ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١٢٤ ، ١٣٦
أورخان ، السلطان ١٧٣
أيلك ، المعز ١١٩ ، ١٢٢
إيستروب ، المستشرق ٣٣
أيوب باشا الوالي ١٧٥
ب - ز
البابا ٨١
بايزيد ، السلطان ١٧٣
بجنصر ١٧
بدر الدين الزيتوني ١٦٣
بدر الدين الششكي ١٠٦
بدر الدين العيني ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٦٩
البرهان الأكدي ٨٧
برهان الدين الابناني ١٠٥
البروتوكول ٦٩ ، ٧٤
بروكلمان ، المستشرق ١٠٣
البقاعي ، إبراهيم ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩
بكار بن قتيبة ١٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٣
البلاذري ٨
بليان الجنوي ٧٣
البلقي ، جلال الدين ١١٦
البلقي ، سراج الدين ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٤٣

البلقي ، علم الدين ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٩
بونز ، المستشرق ٤٠
بونابرت ، ١٨٣ ، ١٨٤
تفري بردي ١١٥ ، ١١٦
تق الدين الفاسي ٥٣ ، ١٠٩
تق الدين بن رافع ١٠٩
تق الدين الشبل ١٤٣
تيمور لنگ ١١٠ ، ١١٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣
تيودورا ، القيصرية ٥٦ ، ٥٨
الجبوتي ، عبد الرحمن ١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٠
١٨٢ - ١٨٩
الجبوتي ، حسن برهان الدين ١٧٨
الجزية ١٩
جسبار ريمير ، المستشرق ٦٧
جعفر باشا ، الوالي ١٧٣
جمال الدين الجزائر ٣٧
جنكيز خان ٧٥
جوانا ، ملكة نابل ٨١
الجواني ٩٩ ، ١٠٠
جوتيل ، المستشرق ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢
جوهر الصقلي ٢٥ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦
جيبون ، أدوارد ٦٧ ، ١٦٢
حاجي خليفة ٥٣ ، ٥٤
الحارث بن مسكن ٢٨
الحاكم بأمر الله ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١٥٢
الحروب الصليبية ٧٤
الحسن الأعصم ٤١
الحسين بن علي ٤٣
الحسين بن محمد المارداني ٤٦
حنظله بن صفون ١٧٠
خالد بن حميد ١١
الخراج ١٩ ، ٩٦
خسرو باشا ، الوالي ١٧٤
خليل البكري ١٧٨
داود باشا ، الوالي ١٧٤
الداودي ١٤٣
الدوج ٨١
ديرنبور ، المستشرق ٥٣

- ديوان بونايرت ؟ ١٧٨ ، ١٨٤
الذهبي ، الحافظ ؟ ١١ ، ١٤ ، ٥١ ، ١٠٥ ،
١٣٢ ، ١٣١
رضوان أفندي الخشم ؟ ١٧٤
زكي الدين الخروفي ؟ ١٠٥
الزين الاشليبي ؟ ١٤١
زين الدين العراقي ؟ ٨٧ ، ١٠٦
س - غ
السادات ، الشيخ ؟ ١٨٢
سانت بيث ؟ ١٣٧ ، ١٣٨
ست الملك الفاطمية ؟ ١٢٢
السخاوي ، شمس الدين ؟ ١٩ ، ٣٣ ، ٥٣ ،
٧٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٧ - ١٠٥ ، ١١٣ -
١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٥ - ١٣٢ ، ١٣٦ -
١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٦٩
السراج العبادي ؟ ١٤٠
سراج الدين بن الملقن ؟ ١٠٥
السري بن الحكم ؟ ٢٤
سعد بن عبد الحكم ؟ ٩
سعد بن عقير ؟ ٢٦
سعد الدين المرزباني ؟ ١٤٣
سلم الأول ؟ ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ،
١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧١ - ١٧٣
سلم الثاني ؟ ١٧١ ، ١٧٣
سلم الثالث ؟ ١٨٩
سليمان النبي ؟ ٦٥
سليمان ، السلطان ؟ ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣
سليمان باشا ، الوالي ؟ ١٧٤
سيبويه المصري ؟ ٤٥ ، ٤٦
السيوطي ، جلال الدين ؟ ١٢ ، ١٩ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٣٧ ،
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ - ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٧ - ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦
الشافعي ، الإمام ؟ ٩ ، ٥٥ ، ١٤٧
شجرة الدر ؟ ١١٩
الشدة المعظمي ؟ ٥٦
شرف الدين المناوي ؟ ١٤٧ ، ١٤٩
شمس الدين التماري ؟ ١٠٥
- الشمس بن الصانع الخنق ؟ ٨٧
شمس الدين القطن ؟ ١٠٥
الشهاب البوصيري ؟ ١٠٦
الشهاب الحجازي ؟ ١٤٠
شهاب الدين الشارمماسي ؟ ١٤٣
شهاب الدين بن حمي ؟ ١٠٩
صلاح الدين الإفقيسي ؟ ١٠٩
صلاح الدين ، الملك الناصر ؟ ٨١ ، ١٥٠
صلاح الدين الصفدي ؟ ٧٠ ، ١١٩
طفرليك ؟ ٥٧ ، ٥٨
طومان باي ؟ ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،
١٧١ - ١٧٣
الظاهر لإعزاز دين الله ؟ ٥٦
الظاهر برقوق ؟ ٧٧ ، ٨٨ ، ١١٠
الظاهر جقمق الملاي ؟ ١٢٠
الظاهر محشقدم ؟ ١٣٢
عبد الباسط بن خليل الخنق ؟ ١٤٥
عبد الحكم بن عبد الحكم ؟ ١٠٤٩
عبد الرحمن بن عبد الحكم ؟ ٩ ، ١١ - ٢٢ ،
٢٦ - ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٢٨ ، ٤٧ ،
٥٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٥٦
عبد الله الشرقاوي ، الشيخ ؟ ١٧٨
عبد الله بن بكير ؟ ١١
عبد الله بن الزبير ؟ ٣١
عبد الله بن سعد ؟ ١٦
عبد الله بن صالح ؟ ١١ ، ١٦
عبد الله بن عبد الحكم ؟ ٩ ، ١٠
عبد الملك بن مسلمة ؟ ١١
عثمان ، الخليفة ؟ ٥١
عثمان خان ، مؤسس دولة التترك ؟ ١٧٣
عثمان بن أحمد ، السلطان ؟ ١٧٤
عثمان بن صالح ؟ ١١ ، ٢٧
المز الحنبل ؟ ١١١ ، ١٣٥ ، ١٤٠
المزيز باقة ؟ ٤١ ، ٤٤ ، ٥٠
حل بن أبي طالب ؟ ٥١ ، ٦٥
علي بن الإخشيد ؟ ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤
علي الرشيد ؟ ١٧٨
علي باشا ، الوالي ؟ ١٨٠
علي باشا الصوفي ، الوالي ؟ ١٧٤
علي بن عبد المزيز الجروي ؟ ١٠

محيى الدين الكافهيجى : ١٤٠ ، ١٤٣
 مرشد بن يحيى المدينى : ١٢ ، ١٤
 المسيحى ، عز الملك : ٢٣ ، ٤٩ ، ٥٢ -
 ١٠٠ ، ٥٥ ، ٥٤
 المستظهر بالله العباسى : ٦٦
 المستنصر بالله الفاطمى : ٥٦ ، ٥٩
 المسيح : ٦٥
 مصطفى الصاوى ، الشيخ : ١٧٨
 المعز لدين الله الفاطمى : ٤١ - ٤٣ ، ٤٧
 المقرئى ، تقي الدين : ١٨ ، ٢٤ ، ٣١
 ٢٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣
 ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ٩١
 ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١
 ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٢
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٥
 ١٥٦ ، ١٧٥
 المقوقس ، زعيم القبط : ١٨
 المنصور العباسى : ١١
 منو ، الجنرال : ١٧٨
 موسى السرى ، الشيخ : ١٧٨
 ميخائيل السادس ، القيصر : ٥٨
 الناصر بن الظاهر : ١١٥
 الناصر بن قلاوون : ٦٢ ، ٦٣
 الناصر لدين الله العباسى : ٨١
 ناصر الدين بن العديم : ١١٦
 النبى : ٨ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ،
 ٦٧ ، ٨٠ ، ١٧٢
 النجاشى : ٨١
 النجم بن رزين : ٨٧
 النجم بن فهد الهاشمى : ١٣١
 النويرى ، شهاب الدين : ٦٣ - ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٦
 ياقوت الحموى : ٢٠ ، ٣٨
 يحيى بن بكير : ٢٧
 يحيى بن عثمان : ٢٧
 يزيد بن حبيب : ١١ ، ١٦
 يعقوب بن ابراهيم : ١٠
 يوسف : ١٧
 يوسف باشا ، الوالى : ١٨٩

على بن منير الحلال : ١٢ ، ١٤
 على بن النعمان : ٢٩
 عمر بن الخطاب : ١١ ، ١٧ ، ١٥٠ ، ١٧١
 عمر بن الكندى : ٣٢ ، ٣٣
 عمرو بن العاص : ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤
 الغزير : ٥٣
 النورى ، السلطان : ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٦٣ ، ١٦٤

ف - ل

فاطمة بنت تنرى بردى : ١١٥
 الفيروزابادى ، مجد الدين : ١٠٥
 الشيخ الفيومى : ١٧٨
 قاسم باشا ، الوالى : ١٧٣
 القاضى الفاضل : ٧٠ ، ١٠٠
 القائم بأمر الله العباسى : ٥٦
 القبط : ١٨
 قریش : ٦٥
 القضاى ، انظر أبو عبد الله القضاى
 القلقشندى : ٣٠ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠
 قيس بن العاص : ٢٦
 كاردان ، الكساندر : ١٧٨ ، ١٨٩
 كافور : ٢٥ ، ٣٢ ، ٤٤
 كراتشكوفسكى ، المستشرق : ١٠٤
 كسرى : ٨١
 الليث بن سعد : ١١ ، ١٦
 ليث بروقتسال : ٥٣

م - ي

المتوكل العباسى : ١٠
 المتوكل العباسى (بمصر) : ١٦٦
 محمد باشا دقادن زاده ، الوالى : ٧٤
 محمد الأمير ، الشيخ : ١٧٨
 محمد الزرقانى : ١٨١
 محمد على باشا : ١٨٦ ، ١٨٧
 محمد المهدي ، الشيخ : ١٧٨
 محمد بن أحمد التلاح : ١٣
 محمد بن الربيع الجيزى : ١٤٧
 محمد بن النعمان : ٤٤

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب

موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (جزءان)
(الطبعة الرابعة ، مزيدة منقحة) .

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (جزءان)

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

* * *

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية (الطبعة الثانية تحت الطبع)

ابن خلدون — حياته وتراثه الفكري (الطبعة الثانية)

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (الطبعة الثانية)

مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (الطبعة الرابعة)

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (الطبعة الثانية)

تاريخ الجامع الأزهر (الطبعة الثانية)

* * *

وتطلب هذه الكتب كلها من مكتبة الخانجي بالقاهرة (ص ب ١٣٧٥)

ومكتبة الهلال ببغروت (بناء العذارية)

ومكتبة المتنبي ببغداد (شارع المتنبي)

ومكتبة الرشاد بالدار البيضاء (المغرب)

HISTORIANS OF ISLAMIC EGYPT

By

MOHAMED ABDULLA ENAN

*Author of : Decisive Moments in the History of Islam.
Al - Hakim Bi - Amrillah. Islamic Egypt, History of Al - Azhar
Mosque, History of the Moorish Empire in Spain, etc.*



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل -
للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم قبضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن
مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

موزان مبارك



١٢٥ قرشاً

